في عالم طاغور



ترجمة: شكري عياد

طاغور شاعر الحب والسلام
البيت والعالم

المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة

167

المشروع القومى للترجمة

فى عالم طاغور

تأليف

رابندرانات طاغور

تقديم وترجمة

شكرى محمد عياد



٢٠٠٠

طاغور

شاعر الحب والسلام

شكري محمد عياد

مقدمة

هذا الكتاب الصغير الذى يصدر بمناسبة الذكرى المئوية لمولد طاغور ، هو تحية للشاعر الذى وهب حياته لرسالة الحب والسلام ، ولكنه يطمح أيضًا إلى أن يكون دراسة .

لقد عاش طاغور ثمانين سنة ، وبدأ يكتب قبل أن يتم العشرين ، ولم يتوقف عن الكتابة إلى أن مات . ففى حياته ستون عامًا من الإنتاج الأدبى المتصل . وقد مارس كل الفنون الأدبية الهامة : الشعر والمسرحية والرواية والأقصوصة . ولم يكن أديبًا فحسب ، بل كان مع ذلك مربيًا أنشأ مدرسة وأدارها ليطبق نظريته فى التربية ، وكان وطنيًا شارك فى الأحداث الهامة التى مرت بها بلاده فى تلك الحقبة الطويلة ، وعده كثير من الناس فيلسوفًا ، لأنه كان مفكرًا له نظرة متكاملة إلى الحياة .

فكيف تطمح مثل هذه الرسالة الصغيرة إلى أن تكون دراسة لإنسان بلغت حياته من السعة والخصب وتعدد الجوانب هذا المبلغ ؟

إنها تحاول أن تعرض طاغور من خلال بعض أعماله الفنية الكبرى التى تعبر عن الأفكار الأساسية فى سائر أعماله الأخرى . وهى وإن اتخذت شكل السيرة التى تبدأ من المولد وتنتهى عند الوفاة ، فقد حاولت أن تكون سيرة أفكار أكثر من سيرة أحداث . والهدف من ذلك أكثر من أن يخرج القارئ بصورة مكتملة – على صغرها – للشاعر الإنسانى العظيم . إن الهدف هو أن يحب القارئ هذه الصورة ، ويتطلع إلى استكمال خطوطها وألوانها . ولئن أصابت هذه الرسالة الصغيرة ذلك الهدف الكبير ، إنها إذن لجديرة بأن تحمل اسم شاعر الحب والسلام ، الذى وسع قلبه العالم كله .

شكرى محمد عياد

فتى البنغال

البنغال فى أواسط القرن التاسع عشر .

وفرة فى الطبيعة ، ووفرة فى الناس ، ووفرة فى الآلهة ، وفقر فى الأموال .

كانت الهند فى العصور الوسطى مضرب الأمثال فى ثروتها ، وكان اكتشاف طريق مفتوح إلى هذه الثروة هو ما حفز ملاحى البرتغال والإسبان إلى الدوران حول العالم ، حتى اكتشفوا عالمًا جديداً فى الطريق . كانت البنغال «مخزن غلال» لشعوب العالم ، وكانت المدن الصناعية مثل دكا ومرشد آباد تصدر إلى العالم الغربى المنسوجات القطنية والحريرية والزجاج والخزف والحديد ، وقد وصف «كلايف» مبعوث شركة الهند الشرقية البريطانية مدينة مرشد آباد فقال إنها : «تعادل فى اتساعها وكثرة سكانها ووفرة ثرواتها مدينة لندن» . وكان فى الهند نظام اجتماعى مستقر فى القرى والمدن .

ولكن الهند ، كغيرها من بلاد الشرق ، كانت تفتقد شيئًا .

كانت تفتقد ذلك الإيمان المطلق بالعقل ، وتلك الرغبة المشتعلة فى الكسب ، والقوة ، والاستيلاء . ولذلك كانت تعيش فى هدوء أقرب إلى النعاس .

وصحت الهند على أفظع كابوس استعمارى رآه الشرق .

صحت على فئة من المغامرين جاءوها من جزيرة نائية وراء البحار باسم التجارة ، وفى أول الأمر لم ير الهنود بالتجارة بأسًا . فقد كان التجار العرب والمسلمون منذ أقدم العصور يجوبون العالم ويزيدون فى سعادة أهله . ولكن هؤلاء «التجار» القادمين من وراء البحار كانوا طرازاً آخر من الناس ، فقد كانت تلتهمهم رغبة الكسب والاستيلاء التى لم يتخيل الهنود أن لها كل هذا السلطان على الناس ، ولم يكن يردهم وازع من خلق أو ضمير ، فقد كان من هؤلاء التجار من يمارسون القرصنة فعلاً إلى جانب التجارة ، وكان هم مغامرى «شركة الهند الشرقية» التى حصلت من التاج البريطانى على احتكار التجارة مع هذا القطر الغنى ، كان همّ هؤلاء المغامرين أن يحصلوا على أكثر ما يمكن من ثروات الهند ، بأقل ما يمكن من المال .

وكانت طريقتهم فى المساومة هى القوة المسلحة .

وفى سنة ١٧٥٧ حدثت موقعة «پلاسى» بين قوات شركة الهند الشرقية وقوات سلطان الهند وأمير البنغال ، ورشا الإنجليز أحد القواد الهنود فضمن لهم النصر ، واستتبت للشركة السلطة فى البنغال ، ثم فى سائر أقاليم الهند .

وفى سنة ١٧٦٢ – أى بعد ذلك بخمس سنوات – شكا نوّاب البنغال – أى أميرها – إلى الشركة من معاملة وكلائها فقال :

«إنهم يستولون بالقوة على البضائع والسلع من الفلاحين والتجار وغيرهم لقاء ربع قيمتها . ويجبرون الفلاحين وغيرهم بطرق العنف والقهر على أن يدفعوا خمس روبيات فى بضائع لا تساوى أكثر من روبية واحدة» .

وهكذا كانت ثروة القارة الهندية تنتقل بالنهب الصريح إلى الجزر البريطانية .

وليس هنا مجال تفصيل الفظائع التى ارتكبها الاستعمار البريطانى فى الهند ، ولا أطوار هذا الاستعمار . وإنما نريد أن نرسم صورة للبيئة المادية والفكرية التى نشأ فيها شاعرنا رابندرانات طاغور .

ولذلك نتجاوز هذه الأحداث الهامة إلى سيرة رجل ذى شأن كبير فى تاريخ الهند الحديث . هذا الرجل هو رامـوهان راى (١٧٧٢ – ١٨٣٣) الذى يعد أبا الإصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى فى البنغال : إن سيرة هذا الرجل أشبه بمزيج هندى من على مبارك ومحمد عبده ، تتمثل فيه صحوة الهند على ذلك الكابوس الاستعمارى الرهيب ، وتفكيرها فى أصل الداء وطريقة العلاج . فقد أتقن راموهان راى فى شبابه اللغات البنغالية والفارسية والعربية والسنسكريتية ، وألف كتباً بالعربية والفارسية ، ثم أتقن اللغة الإنجليزية حتى كتب بها ، ودافع عن حرية الصحافة ، ودعا إلى الأخذ بالتعليم الحديث ، أى إلى تعلم علوم الغرب وفنونه ، لأنه رأى – كغيره من مصلحى الشرق فى هذه الفترة – أن طريق الخلاص هو فى اقتباس أفضل ما جاءت به المدنية الغربية مع المحافظة على التراث الصحيح لحضارة الشرق . ولكن الجهد الأكبر الذى نذر له نفسه كان فى تنقية العقيدة الهندوسية من بدع العصور المتأخرة والعودة بها إلى منابعها الأولى . فالدين فى الشرق ولا سيما الهند هو قوام الحياة كلها . وقد كانت الصدمة الشديدة التى لقيها شعب الهند على يد الاستعمار البريطانى داعية إلى أن يتجه المفكرون الهنود إلى الإصلاح الدينى أول ما يتجهون ، لأن إصلاح الدين معناه عندهم إصلاح نظرة الشعب إلى الحياة ومسلكه فيها ، ولم يكن ثمة سبيل إلى مناهضة الاستعمار إذا بقيت نظرة الشعب إلى الحياة فاسدة ، ومسلكه فيها خاطئاً .

والديانة الهندوسية من أقدم ديانات العالم ، فكتبها المقدسة الأولى ، «الفيدات» ، ترجع إلى ألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد ، وقد مرت بمراحل كثيرة ، ووسعت مبادئ متناقضة ، ومع أنها رأت منذ البدء روحاً واحداً يهيمن على كل شيء ، فإنها لم تقم قط بعمل ثوري نحو الآلهة القديمة الكثيرة ، فظلت هذه الآلهة تعبد وتقدم لها القرابين ، وكان منها ما يرمز إلى قسوة الطبيعة ، كالإلهة «كالي» إلهة الهلاك والدمار – وكان منها ما يرجع إلى أقدم العبادات الطوطمية ، كآلهة القرى التي كان بعضها يصور بصورة الحيوانات .

ولم تكن الديانة الهندوسية تقتصر على عبادة الأصنام ، بل كانت تحتوى على عادات فظيعة ، كعادة حرق الأرامل مع أزواجهن المتوفين ، التي بقيت إلى القرن التاسع عشر ، وعلى مبادئ شديدة الخطر في تكييف سلوك الإنسان .

فمنها المبدأ الحلولي المفرط الذي يكاد يزيل الحدود بين الخير والشر . وهناك قصص تروى حول تأثير هذا المبدأ في سلوك الرجل الهندي ، من أعجبها قصة ذلك الشيخ الهندي الذي قال لجندي إنجليزي وهو يطعنه بسنان بندقيته : «وأنت أيضاً هو» ومن هذه المبادئ مبدأ الطبقات الذي يجعل الناس طوائف أطهاراً وأنجاساً ، ويقطع وشائج القرابة الإنسانية بين أبناء الوطن الواحد .

ومن المبادئ الهندوسية أن الحياة المثلى هي الوصول إلى حالة من الاستغراق تنكر كل حركة في الحياة ، حتى يتحد المرء بالمطلق الذي لا يتغير ، والذي هو فوق الخير والشر . وهذا هو ما يسعى إليه فقراء الهنود بعباداتهم المضنية ، فهدفهم الأسمى هو «النرفانا» أي فناء الذات الإنسانية في براهما ، وانقطاعها عن العالم ، وتجردها من كافة العواطف الإنسانية .

وأخطر من هذا كله أن الديانة الهندوسية مع كثرة مالها من الكتب المقدسة لا تميز – من بين هذه الكتب – قانوناً عاماً هو أصل الديانة . ومن هنا وجد عندهم نوع من الكتب الدينية التي يؤمن بها عامة الشعب ، مع أنها تنطوي على أفكار مفحشة ، وهي التي تسمى «البورانات» .

لم يخف على «راموهان راى» أثر هذه العقائد كلها في إفساد روح الشعب وإضعاف حيويته ، فوجه همه الأكبر إلى مقاومة الخرافات والبدع الضارة ، ومهاجمة ما انحرف إليه البراهمة من عبادة الأوثان ، مؤكداً أن ذلك كله مخالف لتعاليم كتبهم الأولى التي يدّعون توقيرها وطاعتها . وكانت كتابات راموهان راى الأولى بالعربية

والفارسية تدل - كما أشار مؤرخوه الهنود - على تأثر واضح بمذهب الاعتزال عند المسلمين ، ومعلوم أن المعتزلة كانوا أشد الفرق الإسلامية إيماناً بالعقل ، وتأكيداً لإرادة الإنسان ، وتفلسفاً في العقيدة حتى وصلوا إلى تأويل صفات الله من العلم والقدرة والرحمة ... إلخ . بحيث لا يقع في وهم واهم أن لله - سبحانه وتعالى - شريكاً في الملك ، كما كان اليونان القدماء يتصورون - مثلاً - أن هناك إلهاً للحكمة وإلهة للشعر وإلهاً للحرب ... إلخ ، وهكذا أراد راموهان راى أن يرد الديانة الهندوسية التي وسعت آلهة كثيرة إلى التوحيد النقي والتنزيه المطلق . على أنه لم يخرج على الديانة الهندوسية ، بل عد هذه الأصول هي الأصول الحقة للديانة الهندوسية ولغيرها من الديانات أيضاً ، وأسس جمعية إصلاحية دينية انضوى تحت لوائها جميع أنصار التقدم في البلاد ، وهي جمعية «براهما ساماج» .

وكان من هؤلاء «دفند رانات طاغور» والد شاعرنا رابندرانات ، الذي خلف راموهان راى في رئاسة الجمعية . وكان من أسرة ذات مكانة وثراء ، تولى رجالها مناصب هامة في ظل الأمراء المسلمين - ولقب الأسرة في البنغالية «تهاكور» ومعناه السيد أو المولى - إلا أن صلتهم بالأمراء المسلمين جعلت الهندوس المحافظين يعدونهم مارقين . وقد حمل دفندرانات لواء الوحدانية والتنزيه ، بل مضى في ذلك إلى أبعد مما ذهب إليه راموهان راى ؛ فأنكر كثيراً من العقائد التي جاءت في كتب الديانة الهندوسية الأولى ، كتب «الفيدا» و «الأوبانيشاد» ، وفي ذلك يقول : «إن كتب (الأوبانيشاد) لا تفي بكل حاجاتنا ولا تملأ قلوبنا . أين نجد الشريعة في أساس البرهمية ؟ لقد وصلت إلى أن الأساس الصحيح هو القلب النقي الذي يملؤه نور المعرفة البديهية . إن سلطان براهما هو في القلب النقي وحده ... ولا يمكننا أن نقبل من نصوص أوبانيشاد إلا ما يقبله القلب ، أما ما لا يقبله القلب فلا يمكننا قبوله» .

وكتب عند مبدأ «النيرفانا» الذي جاء في كتب الأوبانيشاد :

«عندما رأيت في كتب الأوبانيشاد أن عبادة براهما تؤدي إلى النيرفانا انزعجت نفسي - تقول الأوبانيشاد : «كل الأفعال ومعها النفس الحساسة كلها تصبح واحداً في براهما ..» . إن كان معنى ذلك أن النفس الحساسة تفقد وعيها المنفصل فإن ذلك لا يكون علامة خلاص بل علامة فناء مخيف ... إن الخلاص عن طريق النيرفانا كما تبشر الأوبانيشاد لم يجد مكاناً في قلبي» .

وطاف دفندرانات بالأماكن المقدسة فى الهند ، على عادة أتقياء الهنود ، فأفزعه ما انحدرت إليه الهندوسية من عبادة الأصنام ، وكتب عن هذه الرحلات يقول : «كم ضرعت إلى الله فى أسفارى والدموع تملأ عينى أن يأتى اليوم الذى تزول فيه الاحتفالات الوثنية من بيتنا وتقوم مكانها عبادة اللا محدود» .

وقد كتب دفندرانات سيرة حياته بقلمه ، وهى تعد من أوائل الكتب النثرية الجيدة باللغة البنغالية ، وكتب لأتباعه كتابًا صغيرًا يضم تعاليمه ، وفى هذا الكتاب الأخير أوجز أصول عقيدته فى ثلاثة بنود :

١ – فى البدء لم يكن شىء . ولم يوجد إلا الواحد العلىّ الذى خلق الكون كله .

٢ – إنه إله الحق ، والحكمة اللا نهائية ، والخير والقوة ، خالد موجود فى كل شىء ، واحد لا ثانى له .

٣ – فى عبادته خلاصنا فى أولانا وأخرانا .

* * *

فى هذا البيت نشأ رابندرانات . ولد فى كلكتا فى ٦ من مايو سنة ١٨٦١، وكان أصغر أبناء أبيه السبعة ، وكان أبوه دائم الترحال ، أما أمه فكانت مريضة بداء الرئة ، فلم ينعم فى نضارة سنه بما ينعم به الصغار من التدليل والملاعبة ، ولعل ما سيطبع شعره فيما بعد من ظمأ لا يرتوى أبدًا ، وحنين لا يهدأ ، ولكنه مغلف فى معظم الأحيان برقة بالغة – لعل هذا الطابع الذى أصبح مميزًا للكثير من شعر رابندرانات أن يكون راجعًا فى بعض أسبابه إلى حرمانه من مظاهر الحنان الأموى الطبيعى فى سنيه الأولى .

وقد حدّثنا طاغور فى «ذكرياته» عن تلك الأيام ، عندما كان الخادم الذى يكلف رعايته يفضل أن يخفف العبء عن نفسه بأن يرسم للطفل دائرة من الطباشير على أرض الحديقة لا يسمح له أن يتجاوزها . ولكنه عرف فى تلك الأيام صديقًا ألقى بنفسه بين أحضانه وكلمه بلغته وبقى حفيًا به ووفيًا له إلى آخر العمر . أحب الطبيعة وسحر بجمالها الذى ظل يبعث فيه أبدًا شوقًا محرقًا إلى الغناء . وقد كتب بعد ذلك إلى أحد أصدقائه يصف كيف كان يجلس أمام النافذة يومًا بعد يوم ويرقب السماء والسحب تظهر فيها واحدة بعد واحدة ، فيشعر أنه محوط بصداقة حميمة لا يعرف كيف يسميها . وكتب فى «ذكرياته» : «فى أصباح الخريف كنت أهرع إلى الحديقة لحظة استيقاظى من النوم ، فأشعر أن رائحة الأوراق والأعشاب المخضلة بالندى تحضننى ، وأن الفجر

يمدّ إليّ وجهه حنوناً غضاً فى أشعة الشمس الباكرة ليحييني تحت كساء أوراق النخيل المهتزة ، كانت الطبيعة تطبق يديها وتسأل ضاحكة كل يوم : «ماذا فى باطنى ؟» ولم يكن يبدو ثمة مستحيل» .

ثم جاءت أيام المدرسة ... وكانت عذاباً بئيساً للصبى الحساس فقد كانت القسوة هى أساس التعليم فى ذلك العهد ، وكان أساتذته يأمرونه بالوقوف فى حر الشمس ساعات إن أهمل فى حفظ درسه . ويصف طاغور شعوره نحو المدرسة فيقول : «لقد فصلتنى فصلاً تاماً عن كل ما كان يملأ حياتى ، وكنت أشعر بالشقاء هناك كأنى أرنب محبوس فى معهد للأبحاث البيولوجية» . وفى هذا الجو الصارم الخالى من جمال الفن ورهافة الإحساس قوى حنينه إلى رقة المرأة . وظهر هذا الحنين فى فراره - كلما استطاع - إلى «الزينانا» - أى جناح الحريم - فى القصر الكبير ، ويقول عن ذلك فى «ذكرياته» :

«أيام كان جناح الحريم بعيداً علىّ كان هناك الفردوس الذى يمرح فيه خيالى . كانت «الزينانا» التى تبدو فى الظاهر سجناً هى بالنسبة إلىّ قصر الحرية الكاملة . فليس فيها مدرسة ولا أستاذ ، ولا أحد هناك ، فيما يخيل لى ، مضطر إلى عمل شىء لا يرغب فيه . وكان فى فراغها المنعزل غموض ساحر ، فكل يلعب هناك أو يعمل ما يحب ، وليس بمضطر أن يقدم تقريراً عن أعماله ، وخصوصاً أختى الصغرى ، وكانت تذهب معنا إلى فصل الأستاذ «نلكمال» ، إلا أنه لم يكن يغير مسلكه نحوها إن أجادت حفظ دروسها أو أساءت . وعندما كنا نتناول فطورنا مسرعين حوالى الساعة العاشرة لنذهب إلى المدرسة كانت هى تمشى بلا اهتمام إلى داخل المنزل ، وضفيرتها تتأرجح خلف ظهرها ، فتغيظنا إلى حد الجنون .

«وعندما جاءت العروس الجديدة إلى منزلنا وعليها عقدها الذهبى زاد جناح الحريم غموضاً وسحراً . لقد شعرت بانجذاب غريب نحو هذه التى جاءت من الخارج وأصبحت مع ذلك واحدة منا ، التى كانت مجهولة ، ومع ذلك فنحن أهلها ، وألهبتنى الرغبة فى مصادقتها ، ولكنى كنت إذا استطعت أن أقترب منها بعد احتيال شديد تطردنى أختى الصغرى قائلة : «ماذا يريد الأولاد من هنا ؟ اخرج !» فكانت تحزّ فىّ نفس الإهانة والحرمان معاً . وكان المرء يستطيع أن يلمح من أبواب حجراتهن الزجاجية شتى اللعب العجيبة من الخزف والزجاج رائعة الألوان والنقوش ولم نكن نعد جديرين بلمسها فضلاً عن أن نستجمع شجاعتنا لنطلب اللعب ببعضها ، ومع ذلك فقد كانت هذه الأشياء النادرة العجيبة بالنسبة لنا - نحن الأولاد - تزيد غرف الحريم جاذبية وسحراً» .

وفي سن الثانية عشرة أتيحت للصبي رابندرانات تجربة كانت عظيمة الأثر في حياته . فقد صحبه أبوه في رحلة طويلة بدأها بزيارة «شانتينيكيتان (دار السلام) التي أقامها الأب في مكان منعزل قرب مدينة «بوليور» على مسافة مائة وخمسين كيلو متراً تقريباً إلى الغرب من كلكتا . في هذا المكان غرس دفندرانات طاغور حديقة وأقام في وسطها منزلاً ومعبداً يذكر فيه الخالق الفرد الصمد . وكان يأوى إلى هذا المكان من حين إلى حين ليقرأ كتب الفلاسفة المحببين إليه ويستغرق في التأمل ، وكانت «دار السلام» مفتوحة لكل من أراد أن يبتعد عن مضطرب الحياة ليقضى فترة من الزمن في تفكير ديني هادئ . في هذا المكان أعد طاغور الأب ابنه لحياة مستقلة خِصبة يضطلع فيها بالأمانة ، وعرف الصبي رابندرانات أول أيامه السعيدة في حضن الطبيعة وطلاقة الفكر . ثم صحبه أبوه إلى «أمريتسار» مدينة السيخ المقدسة وهم فرقة من الهنود مزجوا الهندوكية بالإسلام ، واعتنقوا عقيدة التوحيد ، وهناك كان الصبي يجلس مع أبيه في معبد السيخ وينشد أناشيدهم الدينية . وامتدت رحلتهما خلال أودية رائعة الجمال حتى أقاما في كوخ على جبال الهملايا ، وهناك حيث كانت الأشجار المعمرة تحيط بالكوخ ، يداعبها اصطفاق الشلالات ، وكتل الثلج ماثلة كالعمالقة ، أرشد الأب ابنه إلى التعلق بحب الحقيقة ، والاستقلال في الحياة ، والشعور بعجائب الطبيعة ، وواصل تعليمه بنفسه فشرح له أدب البنغال وتاريخها ، وعلمه مبادئ الفلك تحت قبة السماء . وفي هذه الإقامة – التي طالت عدة أشهر – ازداد عشق الفتى للطبيعة ، فكان – كما حدثنا فيما بعد – يجرى من مخدعه إلى الحديقة كل صباح ليحيى لمعة الفجر الوردية ، ويعب من منظر أحواض الزهر الندية يداعبها نسيم الصباح ، وينصت لهدأة الصباح المبكر يغمره النور المتدفق .

لقد رأينا طاغور الأب يجعل للشعور القلبي نصيباً كبيراً في الإيمان ، فلم تكن فلسفته عقلية خالصة ، وهكذا نرى طاغور في إحساسه العميق بالطبيعة يكتسب منذ صباه إيماناً شعرياً يتغلغل في أعماقه ، ويملأ قلبه بحب الحياة ، ويحمله فوق عواصف الشباب إلى بهجة القلب السخي ونشوة الحب الدائم . ولم تكن الطبيعة وحدها هي التي علمته فلسفة الحب ، بل كانت هناك الأغاني الصوفية الشعبية ، أغاني شعراء (الڤياشناڤا) التي سمع منها الكثير خلال هذه الرحلات فمست في نفسه أوتاراً خلقت للخيال والنغم ، وتركت آثاراً لم تمحها قراءاته بعد ذلك في الآداب القديمة والحديثة .

انتشرت نحلة «الڤياشناڤا» أو عبادة «ڤشنو» في الهند في القرن السادس عشر ، ووجدت أنصاراً كثيرين من الطبقات الشعبية ، فقد أهملت «قانون الطوائف» السائد

فى الحياة الهندوكية ، وأمدت الشعب بتصور حى للإله ، قوامه الحب ، فلم تلغ ذاتية الإنسان ولم تطلب إليه الفناء فى الله بل رسمت له طريق الإخلاص فى حب الله (بهاكتى) ، وربطت هذا الحب الإلهى بالحب الإنسانى ؛ إذ جعلت هذا موصلاً إلى ذاك . وترك شعراء الڤياشناڤا أغانى كثيرة تخلصت من ربقة الموضوعات الدينية المجردة ، وعزفت نغمات الحب الإنسانى . وإليك مثلاً أغنية لأحد شعرائهم «ڤد ياپاتى» :

«يا صديقى ، إن شقائى لا حد له .

«لقد جاء شهر بهادر . إن المطر ينهمر ، ومنزلى خال .

«إن الرعد يزار ، والأرض ملأى بالمطر .

«وحبيبى بعيد فى أرض غريبة ، وكام القاسى [١] يرمينى بسهامه الحادة .

«الطواويس أطربها الرعد فهى ترقص مهتاجة ، والضفادع تنق بجنون ، والضاحوكى [٢] يصيح فيصدع قلبى .

«كل ما حولى ظلام ، والليل عميق ، والبرق لا يهدأ .

«يقول ڤدياپاتى : كيف تقضى هذه الليلة بدون هارى [٣]» .

لم يكن تأثر رابندرانات بعاطفية الشعر الڤياشناڤى أقل من تأثره بفلسفة أبيه . كانت تستهويه موسيقى هذا الشعر ورموزه الفنية ، وعندما عاد إلى قصر الأسرة فى كلكتا سمح له بأن ينقطع عن المدرسة ويتابع قراءاته كما يهوى ، فكانت مجموعات الشعر الڤياشناڤى من أحب القراءات إليه . وحلا له مرة - وقد بدأ ينشر مقالاته وأشعاره فى المجلات الأدبية وهو بعد فتى فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة - أن ينشر قصائد على نسق الشعر الڤياشناڤى ويصطنع لها اسم شاعر ڤياشناڤى مجهول . ومع أن أصدقاء رابندرانات كانوا يعرفون أنها قصائد منتحلة فقد بلغ من إحكام تقليدها أن كتب أحد الأدباء الهنود - وكان يقيم وقتذاك فى ألمانيا - مقالاً طويلاً يحلل فيه أسلوب هذه القصائد ، ويستنتج أن «بها نوسمها» - وهو الاسم الذى اخترعه

(١) إله الحب عند الهنود .
(٢) من طيور الماء .
(٣) من أسماء الإله «كرشنا» .

طاغور – شاعر قديم ، وأن هذه القصائد لا يمكن أن تكون قد كتبت فى العصر الحاضر .

ماتت أم رابندرانات وهو فى الثالثة عشرة ، ولكنه كان بعيداً عن حنانها منذ صغره ، وكان فى سن لا يهزها لقاء الموت ، فلم يترك هذا الحادث أثراً كبيراً فى نفسه . وعندما بلغ السابعة عشرة أرسله أبوه مع أخيه الأكبر «ساتيندرانات» إلى إنجلترا ليدرس القانون . كان لا يزال فى السابعة عشرة برأسه ملىء بالشعر والموسيقى ، وليس به ميل خاص إلى دراسة القانون ، فأنفق العام الذى قضاه هناك فى دراسة عمالقة الأدب الإنجليزى : شكسبير ، وملتون ، وبيرون ، وشلى ، والتعرف على الآداب الغربية الأخرى التى كانت شبه مجهولة فى الهند ، حيث العالم الغربى عند الهندى المثقف يكاد ينحصر فى إنجلترا . وهكذا أخذ رابندرانات على عاتقه أن يعرف القراء الهنود بجوته ودانتى وبترارك وتاسو ، فى سلسلة من المقالات كان ينشرها فى مجلة «بهاراتى» – التى كان يصدرها أخوه الأكبر دفيجندرانات – إلى جانب ما كان ينشره من ترجمات عن شلى وفكتور هوجو وتنيسون وغيرهم .

على أن شغفه بالموسيقى لم يكن دون شغفه بالأدب . لقد كان ملحناً كما كان شاعراً ، وكان يلحن أغانيه بنفسه ، وكان له اقتدار فى ذلك ، حتى إن الأستاذ «جوش» مؤلف كتاب «الأدب البنغالى [1]» يضع مقدرته الموسيقية فوق مقدرته الأدبية . فاجتهد أن يتعرف إلى الموسيقى الغربية ، واستمع إلى الغناء الأوربى ، وقارن بينه وبين الغناء الهندى ، وكان رأيه فى ذلك الحين أن الهنود يعنون بالأغنية نفسها ، أما الأوروبيون فيعنون بالصوت أولاً ، ويصنعون به المعجزات .

لم تطل إقامة الشاعر بإنجلترا ، بل عاد إلى بلاده ولم يدرس شيئاً من القانون ، واكتفى على سبيل الإعداد ببعض دروس خاصة فى اللغة اللاتينية . ومع أن الأب ظل يفكر فى أن يعيده إلى دراسة القانون ، فقد كان الفتى يتجه بكل نفسه إلى الشعر .

(١) Ghosh : Bengali literature

علـى أول الطـريق

عندمـا عاد الشـاعـر إلى بلاده أقام مـدة مـع أخيه جويتيرندرانات فى منزل على ضفاف الكنج ، فى مدينة تشاندراناجـار . وهناك على خرير النهر المقدس وتحت شمس الهند الساطعة التى أنسته ضباب إنجلترا كتب أولى أغانيه الأصيلة : «أغانى المساء» . كانت الطبيـعة هـى مصـدر إلهامه ، ولكنه كان يراها بعين حزينة قلقة ، وإن هذه الرؤية لتظهـر حتى فـى عناوين قصـائده : «اليأس فـى الأمل» ، «انتحـار نجمة» ، «دعـوة إلى الحـزن» ، «المرأة التى لا قلب لهـا» ، «أغنيـة القلب الوحـيـد» . وكـأنما كـان الوجـود كله مصطبغًا بحالته الوجدانية ، فهو فى الحقيقة غارق فى أعماق روحه القلقة الظامئة . إن الليل يبكى بدموع الندى من أجله ، والعالم كله ينبض كأوتار المزهر مستجيباً لوقع خطواته . فى إحدى قصائد هذا الديوان «بداية أغنية» يخاطب الشاعر – محبوبه – قائلاً :

«كما يقبل النور وئيداً فى ابتسامة رقيقة ليموت على المحرقة فى وهج الشرق المشـتعل ، كمـا يعزف الهواء فى البـستان – ضـيفًا من بلاد بعـيدة جناحاه متعـبان ، ويموت عند الزهرة التى وهبـها نفـسه وهو يربت عليـها بلمـسة حنان ، كـذلك أقـبلى يا أغنيـتى يا عروسى ، برقـة على شـفـتيك المتعبتين ودموع فى عينيك !» .

كانت «أغانى المساء» حدثًا جديداً فى الشعر البنغالى . رفعته – فى نظر كثير من النقاد – إلى أعلى قمة الرومنسية ، وأظهرت شاعراً جديداً يشق لنفسه طريقًا خاصًا بالتعبير عن مطامح روحه الشابة وآلامها فى موسيقى تحررت – إلى حد كبير – من تقاليد النظم البنغالى . ومنذ هذا الديوان تظهر مقدرة طاغور على التجديد فى الأوزان والقوافى ، تلك القدرة التى تجلت فيها موهبته الأدبية وموهبته الموسيقية مجتمعتين . وشُبه الشاعر الشاب بقطب من أقطاب الرومنسية الإنجليزية . الشاعر شلى (١٧٩٢ – ١٨٢٢) ، إذ كانت تجمع بينهما تلك الروح المثالية الرافضة ، ولقبه أصدقاؤه «بشلى البنغال» على عادة أدباء كلكتا فى ذلك الوقت من إطلاق أسماء أدباء الغرب المشـهورين على أدبائهم . على أن أعظم تقدير لقيه الشاعر كان ذلك الذى حباه به عميد أدباء البنغال فى عصره بانكيم تشاندرا (١٨٣٨ – ١٨٩٤) فقد كان الأديب الكبير مدعواً إلى حفل زفاف فى كلكتا ، وعندما دخل المنزل قدم إليه مضيفه إكليلاً من الزهر على عادة

الهنود إذا استقبلوا ضيوفهم المكرمين ، ورأى الأديب الكبير الشاعر الفتى داخلاً فأسرع إليه واضعاً الإكليل حول عنقه وقال لصاحب الدار : الإكليل له ياراميش ، ألم تقرأ ديوانه «أغاني المساء» ؟

يتحدث رابندرانات عن سنوات شبابه هذه فيقول :

«كانت هذه السنوات من عمرى بين السادسة عشرة والثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين عهداً من الفوضى . عند ابتداء خلق الأرض عندما كانت اليابسة والماء لم يتميزا بعد أن كانت تهيم فى الغابات التى تعطى الوحل العكر حيوانات برمائية ضخمة . وكذلك تكون العهود المبهمة التى تسبق النضج . فالعواطف التى تجهل نفسها كما تجهل الهدف من سعيها المضطرب الحائر تظل تسكن المناطق غير المحروثة فى الروح الشابة . إن الأسنان اللبنية حين تحاول أن تشق اللثة تصيب الطفل الصغير بالحمى ، ولا يُغتفر هذا الغليان إلا حين تظهر الأسنان وتبدأ فى القيام بوظيفتها . وكذلك عواطفنا المبكرة تعذبنا كالمرض حتى تحقق صلتها الحقيقية بالعالم المحيط بنا . إنك تجد ما تعلمته من تجاربى فى هذه السن فى جميع كتب الأخلاق . ولكن ذلك لا ينبغى أن يغض من قيمة هذه الدروس» .

نعم . لابد أن يخوض كل امرئ غمرات هذه التجارب ليظفر بسلام الروح . وقد كانت الطبيعة التى لاغاها رابندرانات طفلاً لا يحسن أن يضع شعوره فى كلمات ، وخلع عليها آلام شبابه المبكر شعراً يفيض بوقدة الإحساس ، كانت هى نفسها قائده إلى نضج العاطفة ، ففكت روحه إسارها وانطلقت تعانق النور والغناء والعبير . وبعد «أغاني المساء» جاءت «أغاني الصباح» . لم تستقر عواطفه المائجة عند رفض الحياة ، ولم يلمس فى هذا الديوان الثانى أوتار الزهد التى ألح عليها الكثيرون من شعراء الهند زمناً طويلاً ، بل أصبح قلبه ممتلئاً بالتفاؤل ، وبقى كذلك طول عمره . من أروع قصائد هذا الديوان وأدلها على التطور الذى طرأ على إحساس الشاعر بالحياة قصيدة «يقظة الشلال» ، حيث يشبّه روح الشاعر وقد استيقظت لخدمة العالم ومحبة البشرية بشلال كانت روحه نائمة فى عزلته الجليدية ثم أيقظته أشعة الشمس ليصبح نهراً آتيا لا يعوقه عائق . وفى قصيدة أخرى يصيح هذه الصيحة الطروب : «لست أدرى كيف فتح قلبى أبوابه فجأة ، وترك زحمة الأكوان تدخل مندفعة يحيى بعضها بعضاً !» والحق أن قلبه ظل كما هو . لم يتغير شىء من أشواقه المثالية البعيدة ، ولكنه اتسع ليشمل العالم كله ، فظل الواقع يعنى بالنسبة إليه دائماً شيئاً أسمى من الواقع . وقد عبر عن ذلك فى إحدى قصائد هذا الديوان : «الصدى» . كان وقت نظم هذه القصدة يزور مع أخيه

مدينة دار چيلنج «لؤلؤة الهيمالايا» . وكان يجلس على حافة أخدود ويتأمل القمم المغطاة بالثلوج ويصغى إلى هدير الشلالات ، فيفيض فى قلبه نوع من الحنين إلى شىء هو جوهر حبنا وحقيقته . حقًا أننا لا يمكن أن نحب شيئًا لذاته ، إذا ما عرفنا بخبرتنا أن الشىء نفسه قد يبدو لنا فى لحظة ما تافهًا أو منفرًا وفى لحظة أخرى مشوقًا جذابًا . إذن فنحن لا نتوق إلى الشىء نفسه بقدر ما نتوق إلى تأثيره فينا . ولم يجد الشاعر كلمة يعبر بها عن هذا الإشعاع العجيب سوى كلمة الصدى :

«إنى أحبك أيها الصدى أكثر من أى شىء آخر . أنت تلقى فى نفسى الاضطراب والقلق ، وإليك يصعد أنين نايى ! أنت الذى أحب أن أسمع غناء الطيور من شفتيك ، وأسمع همهمة الشلالات ، وأنصت إلى الموسيقى العميقة الخفية فى البستان ، وإلى أغنية الكون كله . ولكن لماذا لا أستطيع أن أظفر بلمحة منك ، مع أنى أبحث عنك فى كل مكان ؟» .

لقد كان رابندرانات - كما رأينا - تلميذًا لشعراء الڤياشناڤا ، الذين جعلوا الحب الإنسانى طريقًا إلى عبادة المطلق ، وقد مضى شاعرنا شوطًا أبعد فى عقيدته الإنسانية التى هى فى الوقت نفسه حساسيته الشعرية . فالمطلق والجزئى ، المثالى والواقعى ، الجوهر والصورة التى يأخذها هذا الجوهر ، يلتقيان دائمًا فى حسه بالحياة ، ويمتزجان بما يشبه التناغم الموسيقى . وهذا أحد مصادر السهولة العجيبة التى نجدها فى شعره ، فليس فى روحه ذلك الصراع الذى ينشأ من التناقض بين الواقعى والمثالى فى النفس البشرية ، ولكن فيها - مكان هذا الصراع - نوعًا من الحنين - أو «الشوق» بتعبير الصوفية - يربط بين طرفى الواقع والمثال ، الجوهر والصورة . وهو شوق لا يهدأ أبدًا ، ولكنه لا يصل أبدًا إلى حدة العذاب ، لأن طرفى الواقع والمثال يلتقيان ويتناغمان دون أن يفقد أحدهما نفسه فى الآخر . لهذا يحب الشاعر الصدى الذى هو واقع وليس بواقع . هذا الجوهر العجيب الذى يحكى كل شىء . وهذا الصدى - هذا الجوهر العجيب - هو نفسه «الهارب» كما سماه فى إحدى قصائده الناضجة فيما بعد ؛ لأنه لا يُلمس ولا يبصر أبدًا ، وإن كنا نشعر به فى فى كل مكان ، ونجده فى كل شىء .

تكاد هذه الفكرة تكون مفتاح أعمال طاغور كلها ، أو هذا على الأقل ما يقوله لنا الشاعر نفسه . وقد شعر فى تلك الفترة فى شبابه بأن إطار الشعر الغنائى وحده لا

يحقق له التعبير الكامل عن هذه الفكرة . فكتب مسرحية «انتقام الطبيعة» وهي من أوائل مسرحياته ، ويقول عنها في «ذكرياته» :

«يمكن النظر إلى (انتقام الطبيعة) على أنها مقدمة لأعمالي الأدبية التالية كلها ، أو قل إن موضوعها هو الموضوع الذي تدور حوله جميع كتاباتي : لذة الوصول إلى اللامحدود في المحدود» .

ولكي نتبين معنى ذلك ونتصور شيئًا من طريقة طاغور المسرحية يحسن بنا أن نلخص مسرحية «انتقام الطبيعة» أو «الناسك» كما سماها طاغور في الترجمة الإنجليزية :

في أول المسرحية يظهر الناسك أمام كهفه ، ويعلن خطته في الحياة ، وكيف قرر سلوكها :

«انقسام الليل والنهار ، لا يعنيني ، ولا انقسام الشهور والأعوام . عندي تيار الزمن قد توقف ، ذلك الذي يرقص العالم على أمواجه ، والقش والأغصان . أنا وحيد في هذا الكهف المظلم ، منغمس في نفسي ، والليل الأبدي ساكن كبحيرة جبل تخاف عمقها نفسه . الماء ينضح ويقطر من الشقوق ، وفي البرك تعوم الضفادع العتيقة . أنا أجلس وأنشد ترتيلة اللاشيء ... أنا حر ، أنا الواحد العظيم المتفرد . عندما كنت عبدك أيتها الطبيعة جعلت قلبي ينقسم على نفسه ، وجعلته يشن حرب الانتحار الوحشية في أرجاء عالمه . كانت الرغبات التي لا هدف لها إلا أن تأكل نفسها وكل ما تصل إليه أفواهها تسوطني حتى أجن . كنت أجري وأطارد ظلي . وكنت تسوقينني بسياط لذتك التي تشبه البرق إلى خواء الشبع . وكان الجوع ، وهو طُعْمك ، يقودني أبدًا إلى مجاعة لا تنتهي ، حيث يستحيل الطعام ترابًا ، والشراب بخارًا» .

«حتى إذا تلطخ عالمي بالدموع والرماد آليت أن أنتقم منك ، أيتها الصورة التي لا تنتهي ، أيتها العشيقة التي لا تفرغ أقنعتها ، فلجأت إلى الظلام ، قلعة اللا محدود ، وحاربت النور الخادع ، يومًا بعد يوم ، حتى فقد كل أسلحته واستلقى عاجزًا عند قدمي . والآن وقد تحررت من الخوف والرغبات وزالت الغشاوة ، وأضاء عقلي نقيًا مشرقًا ، فلأخرج إلى مملكة الأكاذيب ، ولأجلس على قلبها لا أمشي ولا أتحرك» .

وهكذا يخرج الناسك إلى عالم الناس . أتراه أراد أن يمتحن نفسه ، أم أن يمضي في تحديه للطبيعة إلى أبعد مدى ؟ إنه يرى النور أشبه بقفص والساعات تنط وتصيح خلف قضبانه كالطيور الحبيسة . ويجلس على الطريق ، وتمر به مشاهد للناس

فى حياتهم العادية . شيخ البلد ومعه امرأتان يعابثهما وتعابثانه . قرويان يتحدثان بالانتقام من ثالث لأنه أهان أحدهما . طالبان يتحدثان عن مناظرة جرت بين أستاذين ، وكل منهما يتعصب لواحد . فتاتان تغنيان وتبيعان الزهر ، وتتشاحنان مع بعض عابرى الطريق . شحاذ عجوز ، وجندى يطرده لأن ابن الوزير قادم فى الطريق . ويزداد الناسك ضيقًا : «ماذا رأيت من مناظر الإنسان ! هل يمكن أن أصغر ثانية وأعود كواحد من هذه المخلوقات ؟ كلا ، إننى حر . ليست لدى هذه العقبة ، هذا العالم يحيط بى . إننى أعيش فى وحدة خالصة» .

وهنا تدخل الصبية «ڤاسانتى» وامرأة أخرى . والمرأة تسأل الصبية : ألست بنت راجو ؟ فإذا علمت أنها هى أمرتها بالابتعاد خشية أن تمسها ، فالصبية منبوذة . وتذهب المرأة ، وتخبر الصبية الناسك باسمها ، وتسأله هل تستطيع أن تقترب منه ؟

الناسك : لم لا يا طفلتى ؟

ڤاسانتى : إننى رجس . هكذا يقولون .

الناسك : ولكنهم جميعًا كذلك – رجس . إنهم يتمرغون فى تراب الوجود . النقى من نقى عقله من العالم . ولكن ماذا فعلت يا ابنتى ؟

ڤاسانتى : أبى – إنه ميت – كان يتحدى شرائعهم وآلهتهم ، ولم يكن يؤدى طقوسهم .

الناسك : لماذا تقفين بعيدة عنى ؟

ڤاسانتى : أو تلمسنى ؟

الناسك : نعم . لأنه لا شىء يمكن أن يلمسنى فى الحقيقة . إننى دائمًا بعيد ، فى اللانهائى . لك أن تجلسى هنا إذا شئت .

ڤاسانتى : (تنفجر باكية) : لا تأمرنى أن أبتعد عنك أبدًا بعد أن قربتنى إليك !

الناسك : كفكفى دموعك يا طفلتى . إننى ناسك . ليس فى قلبى كره ولا حب . أنا لا أزعم أنك لى ، لهذا لا يمكننى أن أرفضك . أنت عندى كهذه السماء الزرقاء ، أنت موجودة وغير موجودة .

ڤاسانتى : أبى ، إننى منبوذة من الآلهة والناس .

الناسك : كذلك أنا . لقد هجرت الآلهة والناس .

ڤاسانتي : ألا أمٌّ لك ؟

الناسك : لا .

ڤاسانتي : ولا أب ؟

الناسك : لا .

ڤاسانتي : ولا صديق ؟

الناسك : لا .

ڤاسانتي : إذن سأكون معك – لن تتركني ؟

الناسك : لقد تركت كل ما يُترك . يمكنك أن تبقى قريبة مني ، ولكنك لن تقتربي مني أبداً .

ڤاسانتي : أنا لا أفهمك يا أبي . قل لي ، ألا ملجأ لي في الدنيا كلها ؟

الناسك : ملجأ ؟ ألا تعلمين أن هذا العالم هوة لا قرار لها ؟ سرب المخلوقات الذي يخرج من جحر العدم يبحث عن ملجأ ، ويدخل فم ذلك الفراغ الفاغر ويضيع . حولك أشباح الأكاذيب وأنت تقيمين لها سوق الأوهام ، والأطعمة التي تبيعها ظلال . إنها تخادع جوعك ولا تشبعك . تعالي بعيداً عن هنا يا طفلتي ، بعيداً عن هنا .

ڤاسانتي : ولكنهم يا أبي يبدون سعداء في هذا العالم . ألا نستطيع أن نرقبهم من جانب الطريق !

الناسك : أسفاه ، إنهم لا يفهمون . لا يستطيعون أن يروا أن هذا العالم هو الموت منشوراً على مدى الأبدية . إنه يموت كل لحظة ولكنه لا ينتهي أبداً . ونحن مخلوقات هذا العالم نعيش بأن نطعم الموت .

ڤاسانتي : أبتاه ، أنت تخيفني» .

وهنا يأتي عابر طريق يبحث عن ملجأ ، فيقول له الناسك : «لا ملجأ يا بني إلا في أعماق نفسك . ابحث عن هذا الملجأ والزمه فتنجو» . أما الفتاة فتعرض عليه كوخها ، ولكنه لا يكاد يعرف أنها بنت راجو حتى يسرع بالذهاب . ويقبل جماعة يحملون رجلاً على سرير ، إنه الحائك بنديه ، وقد وجدوه مستغرقًا في النوم فحملوه وهم يحسبونه ميتاً ، ولكن بنديه يتحرك ، فيتنازعه حاملوه ويتهمونه بالوقاحة : ألم يكفه أنه مات حتى يجيء فيجادلهم في ذلك ! ويقول أحدهم : «إنه لا يريد أن يعترف بالحقيقة . فلنذهب لنتم مراسم الموتى» .

ويبقى الناسك والصبية مرة أخرى ويقول الناسك :

«لقد نامت الفتاة وذراعها تحت رأسها الصغير . أحسبني يجب أن أتركها الآن وأذهب . ولكن ، أيها الجبان ! هل يجب أن تهرب – تهرب من هذا الشيء الصغير ؟ هذه خيوط العنكبوت التي تمدها الطبيعة ، إنها ليست خطراً إلا على الفراشات لا على ناسك مثلي .

فاسانتي : (تستيقظ فزعة) . هل تركتني يا سيدي ؟ هل ابتعدت عني ؟

الناسك : لماذا أبتعد عنك ؟ مم أخاف ؟ من ظل ؟

فاسانتي : أتسمع الضوضاء في الطريق ؟

الناسك : لكن في قلبي سكون .

(وتدخل امرأة شابة يتبعها رجال)

المرأة : اذهب الآن . دعني . لا تحدثني عن الحب .

الرجل : لماذا ؟ ما جريمتي ؟

المرأة : أنتم أيها الرجال قلوبكم من الصخر .

الرجل : هذا غير معقول . إذا كانت قلوبنا من الصخر فكيف يمكن أن تنال منها سهام كيوبيد ؟

رجل ثان : برافو ! أحسنت .

رجل آخر : والآن ما جوابك على ذلك يا عزيزتي ؟

المرأة : جوابي ! أتحسب أنك قلت شيئًا بارعًا ؟ إنه كلام لا معنى له .

الرجل الأول : احكموا بيننا يا سادة . إن ما قلته هو هذا : إذا كانت قلوبنا من

الرجل الثالث : صخر فكيف ...

نعم . نعم ، إنها لا تجد جواباً .

دعني أبين لكم . لقد قالت إننا نحن الرجال قلوبنا صخر ، أليس كذلك ؟ حسناً ، إنني أجبتها بقولي : إذا كانت قلوبنا من صخر حقاً فكيف يمكن أن تنال منها سهام كيوبيد ؟ فهل تفهمون ؟

الرجل الثاني : يا أخي ، إنني أبيع العسل في هذه المدينة منذ أربع وعشرين سنة ، فهل تظنني عاجزاً عن فهم ما تقول ؟ (وينصرفون) .

الناسك : ماذا تفعلين يا طفلتي ؟

فاسانتي : أنظر إلى راحتك العريضة يا أبي . إن يدي طائر صغير يجد هنا عشه . راحتك كبيرة كالأرض الكبيرة التي تحتوي كل شيء . هذه الخطوط هي الأنهار ، وهذه هي الجبال (تضع خدها عليها) .

الناسك : ملمسك ناعم يا ابنتي كملمس النوم . يخيل إليّ أن في هذا الملمس شيئاً من ملمس الظلام العظيم الذي يمس روح المرء بعصا الأبدية . ولكنك يا طفلتي فراشة ضوء النهار ، لك أطيارك وأزهارك وحقولك ، فماذا تجدين فيّ وأنا مركزي في الواحد ومحيطي في اللامكان ؟

فاسانتي : لا أريد شيئاً آخر . حبك يكفيني .

الناسك : تظن الفتاة أني أحبها . يا لبلاهة قلبها ! إنها سعيدة بهذه الفكرة ، فلتنعم بها . فقد نشأوا في الأوهام ولابد لهم من الأوهام ليتعزوا !

فاسانتي : أبتاه ، هذه اللبلابة التي تمتد على العشب باحثة عن شجرة لتلتف حولها هي لبلابتي ، تعهدتها وسقيتها من وقت أن مدت إلى الهواء ورقتين صغيرتين كصرخة طفل رضيع . هذه اللبلابة هي أنا . نمت على جانب الطريق ، ما أسهل أن تسحقها الأقدام .

أترى إلى هذه الأزهار الصغيرة الجميلة زرقاء شاحبة فى قلوبها نقط بيضاء؟ هذه النقط البيضاء هى أحلامها . دعنى أمسح جبينك برفق بهذه الأزهار . الأشياء الجميلة هى عندى مفاتيح كل ما لم أر ولم أعرف .

الناسك : كلا ، كلا . إن الجميل مجرد وهم عندى – أنا العارف – التراب والزهرة سيان . ولكن ما هذا الخدر الذى يزحف فى دمى ويسدل أمام عينى ستاراً ضبابيًا رقيقًا فيه كل ألوان الطيف ؟ أهى الطبيعة نفسها تنسج أحلامها حولى لتغشى حواسى (يمزق القلادة فجأة) كفى ! فإن هذا هو الموت . أية لعبة تريدين أن تلعبيها معى أيتها الفتاة الصغيرة ؟ إننى ناسك . لقد قطعت كل عقدى . إننى حر . لا ، لا ، هذه الدموع ! إننى لا أستطيع احتمالها . أين كان مختبئًا فى قلبى هذا الثعبان ، هذا الغضب الذى يفح بنابه من ركنه المظلم ؟ لا ، إنها لا تموت ، إنها تعيش رغم المجاعة . هذه المخلوقات الجهنمية تصلصل بهياكلها العظمية وترقص فى قلبى ، حين تعزف سيدتها الساحرة العظيمة على نايها السحرى . لا تبكى يا طفلتى ، تعالى إلىّ . أراك كصرخة عالم ضائع . كأغنية نجمة حائرة . إنك تحضرين إلى عقلى شيئًا أعظم كثيراً من هذه الطبيعة ، أعظم من الشمس والنجوم . إنه عظيم كالظلام . لا أفهمه ، ولم أعرفه قط ، ولهذا أخافه . يجب أن أتركك . عودىّ من حيث جئت – يا رسول المجهول .

فاسانتى : لا تتركنى يا أبت – ليس لىّ غيرك .

الناسك : يجب أن أذهب . لقد ظننت أنى عرفت ، ولكنى لا أعرف . بيد أنى يجب أن أعرف . إننى أتركك لأعرف من أنت

فاسانتي : أبت ، إن تركتني سأموت .

الناسك : خلي يدي . لا تلمسيني . يجب أن أكون حراً .

(ويجري مبتعداً) .

* * *

لقد تزلزل قلب الناسك . إن في الطبيعة وأحابيلها شيئًا أعظم من الطبيعة . أعظم من الرغبات والهفوات ، بل أعظم من الشمس والنجوم ، شيئًا لا نهائيًا كالظلام . هل يجب أن نكون أحراراً لنعرف هذا الشيء ؟ وما معنى أن نكون أحراراً ؟ أن نتحرر من الطبيعة نفسها ! ولكن كيف نرى ذلك الجلال اللانهائي إن لم نره من خلالها ؟ هذا هو الناسك جالساً على صخرة في طريق جبلي ، يمر به راع يغني للحب :

«لا تشيحي بوجهك يا حبيبتي .

لقد كشف الربيع صدره .

الأزهار تتنفس بأسرارها في الظلام .

حفيف أشجار الغابة يعبر السماء

كصرخات الليل .

تعالي يا حبيبتي ، أريني وجهك» .

أين نرى هذا المحبوب الأبدي إن لم نره في يقظة الربيع ، وتنفس الزهر ، وحفيف أشجار الغابة ؟ هذا هو الناسك يتأمل الطبيعة ، ولكنه لا يزال يحسبها أمه له . تستلقي خاضعة عند قدميه :

«ذهب المساء ينوب في قلب البحر الأزرق . الغابة على سفح الجبل تشرب آخر كأس من ضوء النهار . على اليسار أكواخ القرية ترى من خلال الأشجار وقد أشعلت مصابيحها ، كأم محجبة تسهر على بنيها النائمين . أيتها الطبيعة أنت أمتي . لقد فرشت بساطك الكثير الألوان في البهو العظيم حيث أجلس وحيداً كأني ملك ، وأشاهدك ترقصين وعقد نجومك يتلألأ على صدرك» .

وتمر راعيات يغنين :

«الموسيقى تأتى عبر النهر المظلم وتنادينى .
كنت فى المنزل سعيدة .
ولكن الناى رنّ فى هواء الليل الساكن .
واخترق قلبى ألم .
أوه ، دلنى على الطريق يا من تعرفه .
دلنى على الطريق إليه .
سأذهب إليه بزهرتى الصغيرة الوحيدة .
وأتركها عند قدميه .
وأقول له إن موسيقاه وحبى شىء واحد» .

لقد كان شعراء القياشناقا يصورون فى أغانيهم حب راداوكريشنا ، وكيف كان كريشنا يعزف على الناى لينادى محبوبته ، ولكن نداء الناى لم يكن فى أغانيهم مجرد نداء حبيب لحبيب . «إنه كان صوت الناى الذى يأسر كل شىء ويقهر كل شىء ، ينادى بالتخلى عن كل ارتباط أرضى [١]» . ولكن إذا كان شعراء القياشناقا قد صوروا الحب البشرى على أنه جسر للحب الإلهى ، فقد أراد طاغور أن يصور الطريق العكسى للحب . إن الحب الإلهى يستثير الحب البشرى ويبعثه من مكمنه . وهكذا يستثير غناء الراعيات – وهو أشبه بأغانى القياشناقا – شعور الحب البشرى فى قلب الناسك ، إنه حب أقوى وأخلد من حياته ، وهنا يستغل طاغور فكرة التناسخ :

«أظن مثل هذه الليلة قد جاءتنى مرة واحدة من قبل فى جميع ولاداتى . كان كأسها عندئذ يفيض بالحب والموسيقى ، وجلست مع أحدٍ أرى صورة وجهه فى تلك النجمة المسائية الغاربة – ولكن أين فتاتى الصغيرة بعينيها السوداوين الحزينتين الشكراوين بالدموع ؟ أهى هناك تجلس خارج كوخها ، ترقب تلك النجمة نفسها فى

(١) Ghosh Bengali Literature, 58

وحشة المساء المطبقة ؟ ولكن النجمة لابد ستغرب ، وتغمض عينيها فى الليل ، والدموع لابد سترقأ ، ويهدأ البكاء في النوم . لا ، لن أرجع . فلتتشكل أحلام العالم فى صورتها الخاصة ، فلن أعوق طريقها بخلق أوهام جديدة . سأرى ، وأفكر ، وأعلم» .

ونراه بعد ذلك يتحدث مع فتاة صغيرة ، ومع أم وطفلتيها ، ما أبعده عن الناسك الذى رأيناه فى أول المسرحية ، إذ يخاطب الفتاة برقة ، يسألها عن أبيها ، وأمها ، وتسأله الفتاة : هل تقرأ الكف ؟ أيمكنك أن تقرأ كفي وتخبرنى من أنا وماذا سأكون ؟ ويجيبها الناسك : «أظننى أستطيع أن أقرأ ، ولكننى لا أكاد أعرف معنى ما أقرؤه . سأعرفه يوماً» . وحين تهم الطفلة بالذهاب إلى أبيها يقول لها الناسك : «قربى رأسك منى يا طفلتى . دعينى أقبلك مباركًا قبل ذهابك» . ويسأل الأم عن أهل بيتها ، وكيف تقضى أيامها . ويرى صديقين يتبادلان كلمات الوداع . إنهما يحمدان أيام صحبتهما ولكنهما يعلمان أن كل تلاق إلى افتراق . وتهيج أشجان الناسك : «الليل يزداد ظلاماً ووحشة . إنه يجلس كامرأة مهجورة . هذه النجوم هى دموعها استحالت ناراً . آه يا طفلتى . لقد ملأ حزن قلبك الصغير ليالى حياتى كلها إلى الأبد بكآبته . لقد تركت يدك العزيزة الملاطفة لمستها فى هواء الليل . إنى أشعر بها على جبينى ؛ ندية بدموعك . يا حبيبتى ، إن صرخاتك التى تبعتنى وأنا أهرب قد تعلقت بقلبى وسأحملها إلى مماتى» .

ويسير الناسك فى طريق القرية وقد كسر عصاه وحطم وعاء الصدقة . «هذه السفينة العظيمة ، سفينة العالم التى تمخر فى بحر الزمن – فلتحملنى مرة أخرى . لأنضم مرة أخرى إلى الحجيج . أوه ! يا للأحمق الذى أراد أن يبحث عن السلامة فى سباحته وحيداً ، وترك نور الشمس والنجوم ليستهدى بضوء براعته ! الطائر يطير فى السماء لا ليذهب إلى الفراغ بل ليعود ثانية إلى هذه الأرض العظيمة – إننى حر ، حر من قيد «لا» الذى لا جسم له . أنا حر بين الأشياء والأشكال والغرض . المحدود هو اللامحدود حقًا ، والحب يعرف حقيقته . يا فتاتى ، أنت روح كل موجود – لن أستطيع أن أتركك أبداً» .

ولكن ما معنى عودة الناسك إلى الحياة الطبيعية ؟ إن الطبيعة نفسها لا تدرك أبداً ؛ لأن فيها دائماً شيئًا أسمى ، شيئًا سيظل أبداً فوق الإدراك . ماذا فعل الناسك حين صمم على العودة إلى فتاته ؟ إنه يسأل أهل القرية ، ولكن لا أحد يعرف . وأخيراً تدخل امرأة تحمل طفلاً :

«المـــرأة : حييت يا أبى . دع طفلى يلمس قدميك برأسه . إنه مريض . باركه يا أبى .

النـاسك : ولكنى يا ابنتى لم أعد ناسكا . لا تسخرى منى بتحيتك .

المـــرأة : إذن ، فمن أنت ؟ ماذا تعمل ؟

النـاسك : إننى أبحث .

المـــرأة : تبحث عمن ؟

النـاسك : أبحث عن عالمى الضائع لأسترجعه . أتعرفين ابنة راجو ؟ أين هى ؟

المـــرأة ابنة راجو ؟ لقد ماتت .

النـاسك : كلا ، إنها لا يمكن أن تموت . كلا ، كلا !

المـــرأة : ولكن ماذا يعنيك من موتها أيها الناسك ؟

النـاسك : إنه لا يعنينى وحدى . إن موتها موت لكل شىء .

المـــرأة : أنا لا أفهمك .

النـاسك : إنها لا يمكن أن تموت أبداً» .

هذه هى النهاية . لقد بقيت الفتاة «صدى» ، روحاً هارباً ، موجوداً وغير موجود .

وحب الناسك لها أى حب هو ؟ أهو حب الرجل أم حب الأب أم حب الصديق أم حب المولى ؟ إنه ذلك كله . حب شعراء الڤياشناڤا الذين قال شيخهم تشاتيانيا : «لن تعرف ما الحب إلا حين تعرف أن الرجل والمرأة غير مختلفين» .

إن مسرحية «انتقام الطبيعة» ليست مسرحية حسب المفهوم الغربى لهذا الفن . فالأساس الذى تقوم عليه المسرحية الغربية وهو الصراع الذى يصل إلى قمة وينتهى إلى نهاية فاجعة فى المأساة – هذا الصراع غير موجود فى مسرحية «انتقام الطبيعة» كما أنه غير موجود فى معظم مسرحيات طاغور ، فهناك فى مكانه تلك الحركة الناعمة السائلة التى تربط المحدود باللامحدود ، الجزئى بالمطلق . والخاتمة – كخواتيم معظم مسرحياته أيضاً – ليست بخاتمة مأساة ولا ملهاة ؛ لأن الموت ، فى نظر الهندى ، ليس بفاجعة . ولا يمكنك بعد ذلك كله أن تصف المسرحية بأنها رمزية بالمعنى الغربى أيضاً ؛ لأن الرمز بمعناه الغربى يقتضى تناقضاً بين المحسوس واللامحسوس ، وهنا لا تناقض ، بل تجاذب وروغان يكونان حركة مستمرة أشبه ببعض قطع الباليه .

معذرة أنا أيضًا كنت شابًا

تزوج طاغور «مارينالى – نيدبى» فى نفس العام الذى كتب فيه «انتقام الطبيعة» ؛ فكان هذا العام بداية مرحلة جديدة فى حياته .

إن الشاعر الذى فتح قلبه للطبيعة ، لم يلبث أن تنبه إلى أجمل ما فى الطبيعة : الإنسان . كانت مسرحية «انتقام الطبيعة» هى معالجته الدرامية لهذا الشعور ، وبعد أربع سنوات (١٨٨٧) ظهر له ديوان جديد : «خطوط ومسطحات» . وكانت أول قصيدة فى هذا الديوان عنوانها «الحياة» :

«لا أريد أن أموت فى هذا العالم الجميل .
أريد أن أحيا مع البشر .
فى ضوء الشمس ، فى هذه الحديقة المزهرة
وسط القلوب الحية دعنى أجد مكانًا .
على هذه الأرض تفيض الحياة دومًا .
كم فيها من فراق ولقاء وضحك فى بكاء –
دعنى أبنى بيتًا خالدًا .
بنسج أغانٍ من أفراح الناس وأحزانهم .
فإن لم أستطع فدعنى ما عشت أجد مكانًا فى وسطهم .
دعنى أزرع صباح مساء زهور أغانٍ جديدة لتقطفوها .
خذوا زهورى بوجه مبتسم .
فإن ذبلت – وا أسفاه ! – فاطرحوها بعيدًا» .

فى هذا الديوان يستمد الشاعر قصائده من المصدرين الخالدين للشعر الغنائى : الطبيعة والحب . ولكن أغنية الحب تسيطر على أنغام الطبيعة . وهكذا كانت دواوينه

الثلاثة التالية («الزورق الذهبى» ، «تشترا» ، «منية القلب») وجميعها ظهرت فى العقد التاسع ، حين كان طاغور بين الثلاثين والأربعين وهى التى ترجم الشاعر بنفسه - مختارات منها بعد ذلك إلى الإنجليزية ونشرها بعنوان «البستانى» . ولم يظهر «البستانى» فى الإنجليزية إلا بعد ظهور أغانى طاغور الدينية «جيتنجالى» ، ولذلك عجب كثير من قرائه الأوربيين حين وجدوا فى «البستانى» شاعراً دنيوياً يغنى بهجة الدنيا ، ولأحد هؤلاء القراء قال طاغور : «معذرة ، أنا أيضاً كنت شاباً !» .

والأغنية الثانية فى هذا الديوان ، أو هذه المجموعة ، تعطى نغمتها الأساسية :

«أيها الشاعر ! الليل يقترب ، وشعرك قد خطه الشيب .

هل تسمع فى وحدة تأملك رسالة العالم الآخر ؟

قال الشاعر :

إنه المساء ، وأنا أصغى لأن أحداً قد ينادى من القرية ، وإن كان الوقت قد تأخر .

أنا أرقب علّ قلبين شاردين يلتقيان ، وزوجين من العيون الظامئة يسألان شيئًا من الموسيقى لتكسر صمتهما وتتكلم بلسانهما .

من ينسج أغانيهما الحارة إن جلست على شاطئ الحياة أتأمل الموت والعالم الآخر ؟

نجمة السماء الباكرة تختفى .

ووهج محرقة جنازية يغنى رويداً رويداً على ضفة النهر الصامت .

بنات آوى تصيح معًا من فناء البيت المهجور فى ضوء القمر الذابل .

إن جاء عابر غادر بيته ليرقب الليل ويصغى حانى الرأس لتمتمة الظلام ، فمن يهمس فى أذنيه بأسرار الحياة إن أغلقت أبوابى وحاولت أن ألقى عنى قيود البشر ؟ لا بأس إن خط الشيب شعرى .

أنا دائمًا شاب كأنى من فى هذه القرية ، وشيخ كأسن من فيها .

بعضهم لهم بسمات حلوة ساذجة ، وبعضهم تلمع عيونهم بمكر .

بعضهم تفيض عيونهم بالدمع فى وضح النهار ، وبعضهم يسترون دموعهم فى الظلام .

كلهم محتاجون إلىّ ، ولا وقت عندى لأتأمل الحياة الآخرة .

أنا فى عمر كل واحد منهم ، فأى بأس إن خط الشيب شعرى ؟» .

هذا رد الشاعر بل «الناسك» الهندى .

وفى هذه المجموعة أغانٍ عدة تعبر عن إحساس الشاعر المباشر ، عن فرحه الجديد بالحياة ؛ يطغى حتى على إحساسه بالفن :

«يا حبيبتى ، فى يوم من الأيام أجرى شاعرك فى عقله ملحمة عظيمة .
وآسفاه لم أكن حريصًا ، فاصطدمت بخلاخيلك وضاعت .
تكسرت شظايا من أغانٍ ورقدت مبعثرة عند قدميك .
إن كانت آمالى فى مجدٍ خالد بعد الموت قد تحطمت ،
فاجعلينى خالدًا وأنا حىّ .
ولن أبكى خسارتى ولن ألومك» .

* * *

«لا يا أصدقائى ، لن أكون ناسكًا مهما تقولوا .
لن أكون ناسكًا إن أبت أن تأخذ العهد معى ...
لا يا أصدقائى ، لن أترك نارى ودارى وأعتزل فى الغابة ،
إن لم يرن فى ظلها المتجاوب الأصداء ضحك مرح ،
ولم ترفرف فى الهواء حاشية ملاءة معصفرة ؛
إن لم تجعل الهمسات الناعمة لسكونها عمقًا .
لن أكون ناسكًا» .

* * *

ولكن الشاعر كما رأينا تلميذ شعراء الڤياشناڤا ، أولئك الذين مزجوا الحب البشرى بالحب الإلهى ، فهو مثلهم حين يغنى أشواق الحب فإنما يغنى شوقًا لا يهدأ أبدًا ، لأنه شوق إلى محبوب أزلى لا يراه إلا لمحًا . حقًا إن حبه الأزلى المثالى لن يوجد إلا على الأرض ، ولكنه لن يوجد كاملاً أبدًا ، وسيظل فى نفسه أبدًا شىء لم يتحقق ، جوهرة من الحزن تضىء فى أعماق السرور نفسه :

«البهجة ضعيفة كقطرة ندى ، بينما تضحك تموت . أما الحزن فقوى باق . دعى الحب الحزين يستيقظ فى عينيك» .

* * *

«فى طريق الحلم ذهبت أبحث عن الحب الذى كان لى فى حياة ماضية .

كان بيتها فى آخر شارع مقفر .

وكان طاووسها المدلل ينعس فى مجلسه المرتفع ، والحمائم ساكنة فى ركنها .

وضعتْ مصباحها عند الباب ووقفتْ أمامى .

صعّدت عينيها الكبيرتين فى وجهى وسألتْ دون أن تتكلم

«أأنت بخير يا صديقى ؟»

حاولت أن أجيب ، ولكن لغتنا كانت قد ضاعت ونسيت .

فكرتُ وفكرت ، لكنْ أبى اسمانا أن يعودا إلى عقلى .

ولمعتْ الدموع فى عينيها ، ومدت إلى يمناها ، فتناولتها ووقفت صامتًا .

ارتعش مصباحنا فى نسمة المساء وانطفأ» .

من هذا الحزن الخفى الذى يتغلغل فى نشوة الحب ، كبحة صوت مطرب ، تأتى روعة تلك الأغانى الكثيرة فى مجموعة البستانى ، التى تستمد موسيقاها وطريقتها فى التصوير من أغنية الحب الشعبية . والأغانى التى تصور شعور المرأة تتعاقب هنا مع الأغانى التى تصور شعور الرجل ، فكأننا أمام حوار عاطفى يتجاوب فيه الصوتان وينسجمان :

«آه يا أمى ، الأمير الشاب سيمر ببابنا – كيف ألتفت إلى عملى هذا الصباح ؟
أرينى كيف أضفر شعرى . خبرينى أى ثوب ألبس .
لماذا تنظرين إلىّ وتتعجبين يا أمى ؟
أنا أعرف أنه لن ينظر مرة إلى شباكى ، أنا أعرف أنه سيغيب عن بصرى فى لمحة عين – نغمة الناى الخافتة ستجيئنى وحدها تنتحب من بعيد .
ولكن الأمير الشاب سيمر ببابنا ، وسألبس أحسن ما عندى لهذه اللحظة .
آه يا أمى ، لقد مر الأمير الشاب ببابنا ، وتلألأت شمس الصباح من عربته .
نزعت البرقع عن وجهى ، قطعت سلسلة العقيق من عنقى ورميتها فى طريقه .
لماذا تنظرين إلىّ وتتعجبين يا أمى ؟
أنا أعرف أنه لم يلتقط سلسلتى ، أنا أعرف أنها تحطمت تحت عجلاته وتركت بقعة حمراء على التراب ، ولا أحد يعرف ماذا كانت هديتى ولا لمن .
ولكن الأمير الشاب مر ببابنا ، ورميت الجوهرة من صدرى إلى طريقه» .

* * *

«عندما انطفأ المصباح جنب سريرى صحوت مع الطيور الباكرة .
جلست عند شباكى المفتوح وعلى شعرى المحلول إكليل زهر صابح .
وجاء المسافر الشاب على الطريق فى ضبابة الصبح الوردية .
على عنقه عقد لؤلؤ ، وأشعة الشمس تسقط على تاجه .
وقف أمام بابى وسألنى بصيحة مشتاقة : أين هى ؟
ولخجلى لم أقدر أن أقول : إنها أنا أيها المسافر الشاب ، إنها أنا .
«كان الغسق والمصباح غير مضاء .

وكنت أضفر شعرى بفتور .
وجاء المسافر الشاب على عربته فى وهج الشمس الغاربة .
جياده تنفث الزبد ، والتراب على ثوبه .
نزل عند بابى وسأل بصوت متعب : أين هى ؟
ولخجلى لم أقدر أن أقول : إنها أنا أيها المسافر المتعب ، إنها أنا .
هذه ليلة من ليالى نيسان ، والمصباح مشتعل فى حجرتى .
نسيم الجنوب يهب ناعمًا ، والببغاء الثرثارة تنام فى قفصها .
مئزرى فى لون رقبة الطاووس ، وملاءتى خضراء كالحشيش الغض .
إننى أجلس على الأرض قرب الشباك وأنظر إلى الطريق الخالى .
ولا أزال أتمتم فى الليل المظلم .
إنها أنا أيها المسافر اليائس ، إنها أنا» .

* * *

«الطائر الأصفر يغنى فى شجرتهم ويجعل قلبى يرقص فرحًا
كلانا نعيش فى قرية واحدة ، وهذا كل سعدنا .
حَمَلاها المدللان يأتيان ليرعيا فى ظل أشجار حديقتنا .
وإذا شردا فى حقل شعيرنا أحملهما بين ذراعى .
اسم قريتنا خانجانا . ونهرنا يسمونه أنجانا .
واسمى معروف للقرية كلها ، واسم حبيبتى رانجانا ..
الحارة التى تصل إلى بيتهم تتعطر فى الربيع بأزهار المنجة
وعندما ينضج بذر كتانهم للحصاد يزهر تيلنا .
والنجوم التى تبتسم لكوخهم تبعث إلينا نظرتها اللامعة .

والمطر الذى يملأ حوضهم يُضحك غابتنا .
اسم قريتنا خانجانا ، ونهرنا يسمونه أنجانا .
واسمى معروف للقرية كلها ، واسمى حبيبتى رانجانا» .

* * *

«لماذا تجلسين هناك تخشخشين بخلاخيلك لاعبة ؟
املئى جرتك ، آن أن تعودى إلى الدار .
لماذا تحركين الماء بيديك وتلمحين الطريق تبحثين عن أحدٍ لاعبة ؟
املئى جرتك وعودى إلى الدار .
ساعات الصباح مرت والماء الأسمر يجرى .
والأمواج تضحك وتتهامس لاعبة .
السحب الشاردة تجمعت على حافة السماء فوق تلك الهضبة .
إنها تتلكأ وتنظر إلى وجهك وتبتسم لاعبة .
املئى جرتك وعودى إلى الدار» .

* * *

ولكن رابندرانات لم يكن فى هذه الفترة من حياته «بستانى الحب» وحسب . لقد وافقت السنوات الأولى من زواجه يقظة الشعور القومى فى بلاده ، ومع أن أول سكرتير للمؤتمر الوطنى الهندى الذى اجتمع لأول مرة سنة ١٨٨٥ كان رجلاً إنجليزياً ، ومع أن هذا المؤتمر قد عقد بالاتفاق مع سلطات الاستعمار ، فإنه لم يلبث أن حمل لواء الحركة الوطنية . وشاركت أسرة رابندرانات فى هذه الحركة مشاركة كبيرة وخصوصاً أخوه جويتيرندرانات ؛ فقد تبنى حركة الاستقلال الاقتصادى وعمل على تأسيس صناعة هندية وطنية ، واشترى سفينة تجارية كانت تنقل المسافرين بين ثغرى باريسال وكهولنا ، وكان معظم ركابها بنغاليين وطنيين لا يدفعون أجراً . لقد كانت الحركة الوطنية فى مبدأ أمرها تغلب عليها العاطفية وتفتقر إلى شمول النظرة وصلابة التفكير ، وبينما كان جويتيرندرانات مشتغلاً بهذه المشروعات العملية كانت مقالات رابندرانات

فى الصحف تؤكد ضرورة إيقاظ الثقة فى نفوس الشعب ، وتشجيع الصناعات الريفية الوطنية ، والعناية بتعليم اللغة القومية . كان الشباب البنغالى يستمع لصوته ، ولعل أهم ركن فى دعوته كان إصلاح المجتمع البنغالى نفسه ، فقد أكد لمواطنيه أن حبهم للحرية يجب أن يكون بناء ، وأن هذا الحب لا يتفق مع نظام الطوائف الهندى الذى يجعل بعض إخوتهم وأخواتهم منبوذين .

إن الشاعر الغنائى الذى لم يعرف الصراع الباطنى لأن دينه إنسانى يلتقى فيه المثال والواقع ، السماء والأرض - قد عرف الصراع من أجل قيمة الإنسان ، وضد أعداء الإنسان . وفى هذا الصراع كان يسير على آثار أبيه دفندرانات ، وكان الإصلاح الدينى يعنى بالنسبة إليه الشىء الكثير ، يعنى تحرير الحياة من ظلام الحقد وكثافة الجهل اللذين يتمثلان فى عبودية الإنسان للصنم . فإذا كانت الفكرة التى دارت حولها جميع كتابات طاغور - كما قال - هى وجود اللامحدود فى المحدود ، وإذا كانت هذه الفكرة قد سيطرت على شعره الغنائى كله وملأته بحب متسام للحياة ، وسيطرت على معظم شعره المسرحى ونفثت فيه حركة سيالة تقوم مقام الصراع ، فإن هناك فكرة أخرى بنيت على تلك الأولى وهى أن الإنسان قادر على الكمال الروحى بطبعه ، ففى قلبه وعقله جوهر الحق اللامحدود ، ولكى يضىء هذا الجوهر يجب ألا يخضع لشىء يعارضه سواء أكان هذا الشىء صنماً أم آلة .

وهنا يصبح طاغور أقرب ما يكون إلى الشعور بالصراع . وسنرى فيما بعد كيف كانت نظرته إلى الصراع السياسى تعبيراً عملياً عن شعوره بالصراع الإنسانى واعترافه به . أما الآن فحسبنا أن نشير إلى تجسيمه لهذا الشعور فى عمل فنى ، وهو مسرحيته «التضحية» .

يمكننا أن نعد «التضحية» مناظرة «لانتقام الطبيعة» من حيث إنهما تعبران معاً - كل من زاويتها - عن نظرة الشاعر إلى الحياة . «فانتقام الطبيعة» تعبر عن واقعيته المتسامية ، عن حبه للأرض ، الذى يخفى فى طياته حباً وحنيناً لشىء فوق الأرض . ومن هذا الشعور تنبع غنائيته الرقيقة الحالمة . و «التضحية» تعبر عن مثاليته المجاهدة ، عن إيجابية الحق والخير والجمال فى شخصيته ، وإلى هذا الجانب الأصلب من شخصيته يرجع الكثير من كتاباته السياسية والاجتماعية ، كما يرجع جهاده العملى الدائب فى سبيل السلام . ومما يسترعى النظر أنه كتب «التضحية» ثلاث مرات . كتبها أول مرة «رواية» بعنوان «الملك القديس» سنة ١٨٨٧ ، ثم كتبها مسرحية بعنوانها هذا «التضحية» سنة ١٨٩٠ ، ثم ترجمها إلى الإنجليزية سنة ١٩١٧ وأهداها إلى الكتاب

الذين وقعوا على بيان من أجل السلام : «إلى الأبطال الذين قاموا يدافعون عن السلام حين طالبت إلهة الحرب بضحايا بشرية» .

فى المنظر الأول من هذه المسرحية نرى الملكة «جواناڤاتى» فى معبد الإلهة «كالى» وقد جاءت لتقدم القرابين من الزهور والحيوانات إلى الإلهة القاسية علّها تنعم عليها بولد . إنها تخاطب الإلهة قائلة : «هل أغضبتك أيتها الأم المخوفة ؟ أنت تمنحين الولد للشحاذة التى تبيعهم لتعيش ، وللعاهرة التى تقتلهم لتدفع عن نفسها العار ، وهأنذا - أنا الملكة والدنيا عند قدمىّ - أتمنى ولا أنال لمسة الرضيع لصدرى ، نبض حياة داخل حياتى أعز من حياتى . أى ذنب جنيت يا أماه لأستحق هذا النفى من جنة الأمهات ؟» .

ويجيبها راجوپاتى كاهن الآلهة : «إن أمنا كلها نزوات ، لا تعرف قانونًا ، أفراحنا وأحزاننا بدوات فى عقلها . اصبرى يا ابنتى فاليوم سنقدم إليها ضحايا غير عادية باسم لنترضاها» .

ويخرجان ليستعدا لتلقى ضحايا الملكة التى تساق إلى المعبد ويدخل الملك «جوڤندا» ومعه خادم المعبد «چيسنج» وفتاة شحاذة «أپارنا» . والفتاة تشكو إلى الملك أن عنزها الصغير أخذ منها ليذبح فى المعبد . ويجيب الخادم الفتى : «أيها الملك ، أنى لنا أن نعلم من أين يجمع الخدم قرابيننا اليومية ؟ ولكنْ لم هذا البكاء يا طفلتى ؟ أيجمل بك أن تذرفى الدموع على ما أخذته الأم نفسها ؟» .

فتصيح الفتاة الشحاذة : «الأم ! إننى أنا أمه . إذا تأخرت فى العودة إلى كوخى يرفض عشبه ويمأمىء وعيناه على الطريق ؛ فأحمله على ذراعى حين أعود وأشاطره طعامى . إنه لا يعرف أمًا غيرى» .

والفتى طيب القلب . فهو يقول : «مولاى ، لو استطعت أن أرد الحياة إلى العنز بتضحية جزء من حياتى لفعلت ذلك مسرورًا . ولكن كيف أرد ما أخذته الأم نفسها ؟» .

إن الفتاة بعاطفتها الإنسانية السانجة تهز قلب الملك والفتى . ويخاطب الفتى معبوده قائلاً : «لقد خدمتك منذ طفولتى أيتها الأم كالى ، ولكنى لا أفهمك . هل الشفقة من نصيب البشر الضعفاء وحدهم دون الآلهة ؟ تعالى معى يا طفلتى ، دعينى أبذل ما أستطيع من أجلك . يجب أن يأتى العون من الإنسان حين تضن به الآلهة» .

ويدخل راجوپاتى كاهن الإلهة ومعه ناكشاترا شقيق الملك ونابان راى قائد جنده وجماعة من الحاشية ، فيعلن إليهم الملك أنه ينهى عن إراقة الدماء فى المعبد منذ اليوم .

وهنا يبدأ الصراع بين الملك والكاهن . والكاهن يسأله «أهو حلم !» فيجيب الملك : «ليس حلمًا يا أبى . إنه اليقظة . لقد جاءتنى الأم فى صورة بنت صغيرة وقالت لى إنها لا تطيق الدماء» . فيرد الكاهن : «لقد كانت تشرب الدماء منذ أحقاب . فمن أين جاءت هذه الكراهية فجأة ؟» فيجيب الملك : «لا ، إنها لم تشرب الدماء قط ، لقد كانت تشيح بوجهها أبداً . «فيحذره الكاهن : «فكر وتدبر أمرك . لا سلطان لك لتغير القوانين التى نزلت بها الشرائع» . ويجيب جوفيندا : «كلمة الله فوق كل قانون» .

لقد نشب الصراع ولم يبق لأحد منهما سبيل للرجوع . الملك يصدع بأمر العقل والقلب ، والكاهن يدافع عن الشرائع . وتميل الحاشية كلها إلى رأى الكاهن ، وتغضب الملكة لأن ضحاياها منعت من المعبد ، ويعنف الكاهن بالملك وتعنف الملكة بالملك ، ولكنه صامد لا يتزحزح ، يبدى لزوجته رقة وحنواً ، ولكنه يرفض ضراعتها له أن يعدل عن أمره : «ليس من حق البرهمى أن يهدر الخير الأبدى . إن دم الخلق ليس قرباناً للآلهة . ومن حق الملك والفلاح على السواء أن يدافعا عن الحق والعدل» .

ويبعث الكاهن غلامه «جيسنج» إلى ناكشاترا شقيق الملك ، ويزعن له أن الإلهة أوحت إليه فى حلم أنه سيصبح ملكاً بعد أسبوع . ويضحك ناكشاترا من قوله ، ولكنه لا يلبث أن يسأله : «ولكن خبرنى كيف يكون ذلك ؟» فيخبره أن الإلهة ظامئة إلى دم ملكى ، ويوحى إليه أنه إن لم يقتل أخاه فسيموت هو نفسه لا محالة . ويثور جيسنج حين يسمع ذلك : «أهذا أمرك أيتها الأم الرحيمة ! تطلبين إلى الأخ أن يقتل أخاه ؟ سيدى ، كيف استطعت أن تقول إن هذه رغبة الأم ؟» فيجيب الكاهن : «لم يكن هناك غير هذه الوسيلة لأخدم إلهتى .. «فيصيح الفتى : «يا للخطيئة !» .

الكاهن : ماذا تعلم أنت عن الخطيئة ؟

الفتى : ما علمتنيه .

الكاهن : إذن فتعال وتعلم درسك ثانية منى . الخطيئة لا معنى لها فى الواقع . القتل هو مجرد قتل . ليس خطيئة ولا شيئًا آخر . ألا تعلم أن تراب هذه الأرض من مجازر بغير عد ؟ القتل فى الغابة وفى مساكن الناس وفى أعشاش الطيور وفى جحور الحشرات . العالم لا يكف عن القتل . والإلهة العظيمة كالى واقفة ولسانها الظمآن يتدلى من فمها وكاسها بيدها يفيض فيه دم الحياة الأحمر من العالم كرحيق عناقيد عنب معصورة .

الفــــتى : كفى يا سيدى . هل الحب إذن كذبة ، والرحمة سخرية ، والحقيقة الوحيدة منذ الأزل هى شهوة التدمير ؟ أما كانت جديرة أن تدمر نفسها منذ بعيد ؟ إنك تعبث بقلبى يا سيدى . الأم الظامئة إلى حبنا تتهمها بحب الدماء ! .

الكـاهـن : إذن دعهم يوقفوا التضحية فى المعبد .

الفــــتى : أجل ، فلتوقف – لا لا ، سيدى ، أنت أدرى بما هو حق وما هو باطل . قوانين القلب ليست قوانين الشريعة . العيون لا تستطيع أن ترى بنورها هى ، بل يجب أن يأتها النور من خارج . غفرانك سيدى ، اغفر لى جهلى . أخبرنى يا أبى ، أصحيح أن الآلهة تريد دمًا ملكيًا ؟

الكـاهـن : يا للأسف ! هل فقدت إيمانك بى يا ولدى ؟

الفــــتى : إن عالمى ينهض على إيمانى بك . إن كان لابد للآلهة من دم ملكى فلأحضره إليها . لن أدع الأخ يقتل أخاه .

الكـاهـن : ولكننى ربيتك يا ولدى منذ كنت طفلاً ، وأصبحت حبيبًا إلى قلبى . ولن أستطيع احتمال فقدك .

الفــــتى : لن أجعل حبك لى ملوثًا بالإثم . أحلّ الأمير ناكشاترا من وعده» .

ولكن الكاهن يطلب إرجاء ذلك إلى الغد . ويجفل الأمير من تنفيذ ما أوحى إليه الكاهن ، وتلقاه الملكة فتزين له قتل الطفل «دروڤا» الذى تربى فى حجر الملك ، فهو أعز عليه من نفسه ، وسيموت بدلاً منه . وتقول له قبل أن يذهب : «ولكن لا تنس أن تقربه باسمى !» .

ويلقى چيسنج الفتاة الشحاذة أپارنا فى المعبد ، فيقول لها : «أپارنا ! إنهم يطردونك من المعبد ولكنك تعودين مرة بعد مرة . فأنت حق والحق لا يمكن إبعاده . نحن نقيم هياكل الزور فى معبدنا ونحيطها بعبادتنا ، ولكنها ليست هناك أبداً . لا تتركينى يا أپارنا . اجلسى بجانبى . لماذا أنت حزينة يا حبيبتى ؟ هل فقدت إلهًا لم يعد إلها ؟ فلنكفر بالآلهة فى شجاعة وليقترب كلانا من صاحبه . إنهم يريدون دمنا ، ولهذا هبطوا إلى تراب أرضنا وتركوا بهاء السماء . فليس فى سمائهم رجال ولا مخلوقات يمكن أن تتألم . لا يا فتاتى ، إن الآلهة غير موجودة .

أپـــارنـــا : إذن اترك هذا المعبد وتعال معى .

چيـسنج : أترك هذا المعبد ؟ نعم ، سأتركه . وأسفاه يا أپارنا ، يجب أن أتركه . غير أنى لا أستطيع تركه قبل أن أوفى آخر دينى له ... ولكن دعينا من هذا . اقتربى منى يا حبيبتى . اهمسى فى أذنى شيئًا يفيض عن هذه الحياة بحلاوته ، ويغمر الموت نفسه» .

ما الذى يستبقى الفتى فى هذا المعبد ، على الرغم من أنه كفر بإلهته ؟ إننا نعرف ذلك من المنظر التالى ، حيث نرى راجوپاتى وناكشاترا يأتمران لقتل الطفل «دروڤا» ، ولكن الملك يعلم بأمرهما قبل أن تتم الجريمة ، فيقضى بنفى ناكشاترا ثمانى سنوات إلى أقصى حدود مملكته ، أما راجوپاتى فيضرع إليه ذليلاً أن يمهله إلى الغد . ثم يلقى الفتى جيسنج فيطلب إليه قتل الملك : «بالأمس كنت أستطيع أن آمرك . أما اليوم فلا أستطيع إلا أن أسألك إحسانًا . لقد مات فى ذلك النور الذى كان يمنحنى الحق أن أتحدى سلطان الملك . مسرجة الفخار يمكن أن تملأ وتشعل مرة بعد مرة ، ولكن النجمة التى تنطفىء تفقد إلى الأبد . أنا هذه النجمة المفقودة . أيام الحياة خيوط عنكبوت ، أصغر هبات الله ، ومع ذلك فقد اضطررت أن أسأل الملك يومًا واحدًا من تلك الأيام وأنا راكع على ركبتى . لا تدع هذا اليوم الواحد يمر عبثًا . اجعل حاجبيه الأسودين الكريهين يتضرجان بدم ملكى قبل أن ينقضى . لماذا لا تتكلم يا ولدى ؟ إن كنت قد نزلت عن مكانى سيدًا لك ، أليس من حقى أن أطلب طاعتك أبا ، وأنا الذى كنت لك أكثر من أب ، لأنى أب ليتيم ؟ ...

جـيـسنج : يا أبى ، لا تزد قلبى المصدوع عذابًا . إن كانت الإلهة ظمأى لدم ملكى فسآتيها به قبل أن يحل الليل . سأرد ديونى جميعها ، كل دانق منها . انتظر عودتى ، فلن أغيب .

ويناجى الكاهن إلهته وقد توهم أن النصر قريب . وإذا بچيسنج يأتى مندفعًا إلى الهيكل ويخاطب الصنم : «ألا بد لك من دم ملكى أيتها الأم العظيمة التى تغذو العالم بالحياة من درها ؟ إننى كشاترىٌ من طبقة ملكية . لقد جلس أجدادى على عروش ، ومن أخوالى ملوك . إن فىّ دمًا ملكيًا فخذيه واطفئى ظمأك إلى الأبد !» .

ويطعن نفسه فيسقط صريعًا . ويصرخ راجوپاتي : جيسنج ! أيها القاسي الكنود ! لقد ارتكبت أشد الجرائم سوادًا . إنك تقتل أباك ! جيسنج ، مغفرة يا حبيبي ! عد إلى قلبي ، يا كنز قلبي الوحيد ! دعني أموت بدلاً منك !» .

وتدخل أپارنا باحثة عن الفتى . فيناديها الكاهن : «تعالى يا أپارنا . تعالى يا طفلتي . ناديه بكل حبك . ناديه عله يعود إلى الحياة . خذيه إليك ، بعيدًا عني ، ولكن دعيه يعيش» .

وبينما تسقط أپارنا في الهيكل مغشيًا عليها يخاطب الكاهن إلهته : «رديه إليّ ، رديه إليّ ، رديه إليّ ! انظروا كيف تقف هناك ، الحجر الأبله ! صماء بكماء عمياء ، والعالم الحزين كله يبكي ببابها – وأنبل القلوب تحطم عند قدميها ! ردي إليّ فتاي ! أوه ، كل هذا باطل . صرخاتنا المرة تضلّ في الخواء ، الخواء الذي نحاول عبثًا أن نملأه بأصنام الوهم ! لتذهب ! لتذهب هذه الأوهام العاجزة التي تتشكل أصنامًا لتثقل عالمنا .

ويلقي بالصنم . وتناديه أپارنا «أبي !» فيجيبها : «يا طفلتي الحلوة ! أقلتها «أبي» ! أتوبخينني بهذا الاسم ؟ ابني الذي قتلته ترك لي هذا النداء الوحيد العزيز في صوتك الحلو .

أپارنا – أبي ، لنترك هذا المعبد . لنذهب من هنا .

راجوپاتي – تعالي يا ابنتي . تعالي يا أمي . لقد وجدتك .

أنت آخر هبة من جيسنج» .

* * *

هناك شبه قوي بين هذه المسرحية وبين تراجيدية «أنتيجونا» لسوفوكليس . ففي «أنتيجونا» أيضًا صراع بين ما يمليه القلب وبين الشرائع : بين أنتيجونا التي تصمم على دفن أخيها ؛ لأن ذلك آخر ما يستطيع الأحياء تقديمه للموتى من آيات الحب ، وبين الملك «كريون» الذي يصمم على أن يبقى هذا الأخ جثة طريحة ، جزر السباع وكل نسر قشعم ، لأنه مات خائنًا لوطنه . ولكريون ابن هو «هايمون» ، يحب أنتيجونا ، كما أن «جيسنج» في مسرحية طاغور يحب «أپارنا» ، وأمام عناد كريون يقتل هايمون نفسه بيده كما فعل «جيسنج» . هذه خيوط هامة مشتركة بين المسرحيتين . ومع ذلك فثم فرق

كبير ، ولا أعنى «مؤامرة القتل» فى مسرحية طاغور ، وارتباطها بشخصيات الملك والملكة والأمير ناكشاترا ، وهى شخصيات لا مقابل لها فى المسرحية الكلاسيكية اليونانية ، فهذا قد يعزى إلى ميل طاغور الرومنسى الذى جعله يتجه فى مسرحه إلى العقدة المتعددة الأطراف . ولكننى أعنى شيئًا هو فى نظرى أهم ، وأكاد أظنه ناشئًا عن اختلاف نظرة طاغور إلى الحياة عن النظرة التراجيدية اليونانية ، وهو اختلاف قد يشخص خصيصة هامة من خصائص النظرة الشرقية على العموم . ففى المسرحية الكلاسيكية اليونانية نرى موقف كل من طرفى الصراع يصور بغاية ما يكون من الإقناع ، بحيث يصعب الحكم أيهما المصيب وأيهما المخطىء ، وفيم الخطأ . وعندما تقع الفاجعة تشعر أن سببها لا يكمن فى خطأ معين ، بقدر ما يكمن فى كون الإنسان إنسانًا . فالصراع الأساسى فى التراجيدية اليونانية هو الصراع بين الإنسان والقدر . أما فى تراجيدية طاغور فنحن لا نشك فى أن الملك على حق وأن الكاهن على باطل ، ومع ذلك فالصراع بينهما يستمر ؛ لأن فى الإنسان نزعات الخير والشر جميعًا ، فالصراع هنا صراع بين الإنسان ونفسه ، ولهذا يتركز فى الفتى «چيسنج» أكثر مما يتركز صراع «أنتيجونا» سوفوكليس فى الفتى هايمون . إن مسرحية طاغور أقل حتمية وأكثر تفاؤلاً من مسرحية سوفوكليس .

القصّاص

بعد زواج رابندرانات بقليل رأى والده أن يكل إليه الإشراف على بعض ممتلكات الأسرة في «شيلايدا» على ضفاف الكنج . وكان حلم رابندرانات أن يسبح فى أرجاء الهند كما كان يفعل الحجاج القدماء ، ليعرف حياة الشعب من قريب ، فلم يسر كثيراً بالمهمة التى أسندها إليه أبوه ، وقبل أن يسافر إلى شيلايدا قام برحلته الثانية إلى أوربا ، فزار إيطاليا وفرنسا وإنجلترا .

على أنه لم يلبث أن حمد المقام فى شيلايدا – وهل نتوقع غير ذلك من شاعر أحب الطبيعة والناس هذا الحب العظيم ؟ – فقد وجد فى الريف متعة وخبرة ، وأنتج فيه كثيراً من أفضل إنتاجه . أتيح له أن يستشعر الجمال المتغير فى الطبيعة الريفية : صيفها وشتائها وأمطارها وفيضاناتها ، ووصف ذلك كله وصفاً حياً فيه طرافة التجربة المباشرة العميقة . وخالط الفلاحين وأحبهم حباً عميقاً : «هؤلاء الأطفال الكبار المساكين ، أبناء الله» ، واحترم عملهم وأقام الأسواق لإحياء الصناعات الهندية القديمة ، وساعد فى تنشيط التعاون الزراعى الذى كان بادئاً فى البنغال . وفى «شيلايدا» كتب شعره الغنائى الذى جمع بعضه فى «البستانى» ، كما كتب مسرحيتين من أجود مسرحياته : «تشترا» و «الملك والملكة» ، على أن قصصه القصيرة التى كتبها فى هذه الفترة تستحق وقفة خاصة .

فمن بين دارسى الأدب البنغالى من يرون أن أحسن ما كتب طاغور هو هذه القصص القصيرة ، لا الأغانى ولا المسرحيات . وفى هذا القول شىء كثير من المبالغة ، ومع ذلك فإن بعض قصصه القصيرة يرتفع إلى مرتبة فنية تعادل أجود ما كُتب فى هذا الفن .

لقد كان الإحساس «بالصنعة» هو أبعد الأشياء عن طبيعة طاغور ، فهو شاعر رومانسى متدفق ، يطير خياله مع النغم ، ولهذا يأخذ عليه بعض النقاد الجدد أن شعره متفاوت ، فمرة يرتفع ببساطته وطبيعيته إلى قمة الغنائية ، ومرة ينزل إلى تكرار سهل لحالات وجدانية سهلة . وقصص طاغور تضارع شعره فى السهولة ، فأنت لا تشعر أن القاص يتوقف مرة ليفكر كيف يقول لك ما يريد أن يقول . إنه مسترسل مستمتع بما يقصه ، تغلب عليه الدعابة ، وقد تخطر له فكرة أو حكمة ، ولكنها تأتيه فى صورة تحس من ابتكارها نفسه بمقدار ما فيها من طبيعية : «بعد أيام قليلة التقى

الرجل والمرأة . عندما ينقسم حجر يمكن وصله ثانية بسهولة وإحكام . ولكن الإنسان كائن حي ، في كل لحظة يطرأ عليه اختلاف قليل ، هو متغير أبداً ، وعندما يفترق الناس لا يمكن ضمهم بعد انفصال طويل ليعودوا كما كانوا من قبل» .

وهكذا يبدو أن طاغور في قصصه كان متأثرا بطبيعته الخاصة أكثر من تأثره بأي نوع من القصص البنغالي أو الأوربي السابق وإن كان كثير من الكتاب قد أشاروا إلى إفادته من فن «الكاثا» أو الحكاية الشعبية ، كما أن في بعض قصصه مشابهات من فن تورجنيف أو إدجار ألان پو : تلك القدرة الممتازة على بث الحياة في الطبيعة وإشراكها في الموقف القصصي ، وذلك التلذذ بالإلغاز وإثارة الانفعال وخلق جو المكان . ولكن ذلك كله يذوب في شعور القاص بحكايته ، وطريقته الخاصة في قصها ، وهي طريقة تعتمد «التكنيك» البسيط في البدء بتقديم الشخصية ثم عرض الحدث ، وقد يكون الحدث قصيراً نسبياً ، وقد يمتد سنين .

ومع أن طاغور يستمد معظم قصصه القصيرة من الحياة البنغالية المعاصرة ، فإنه لم يكن يميل إلى إعطاء صور «واقعية» من هذه الحياة ، بل كانت مشاعره وآراؤه واضحة فيها جميعا . وفي ذلك الوقت كان لطاغور مواقف محددة من المشكلات الاجتماعية في بلاده : من نظام الطبقات ، وحقوق المرأة ، وتعدد الزوجات . إلى جانب موقفه الواضح الصريح في مناهضة الاستعمار ، وكان يعبر عن هذه المواقف كلها في ثنايا حكاياته أو في موضوعاتها الأساسية ، لا يتعمد ذلك ولكنه لا يتجنبه أيضاً ، ولا يحشو تعبيره بالخطابية ، ولكنه لا يلزمه حدود «الموضوعية» .

ولعل أوضح تصوير لمذهب طاغور في القصة هو ما يحدثنا به في مقدمة قصته «يحكى أن ملكًا» :

«هناك مثل إنجليزي يقول : لا تسألني فأكذبك . وطفل السابعة الذي يستمع إلى حكاية خرافية يفهم ذلك جيداً . فهو يمتنع عن السؤال بينما تروى القصة . وبذلك يبقى زيفها الجميل الخالص عارياً كله ، بريئًا كطفل رضيع ، شفافًا كالصدق نفسه ، صافياً كنبع ضاحك . ولكن الكذب الثقيل المشوب بالعلم عند أصحابنا المحدثين يجب أن يغلف صفته الحقيقية ويخفيها . وإذا اكتشفت أقل ثغرة من الخداع في موضع ما فإن القارئ يعرض باشمئزاز متأفف ، وتحيق الخيبة بالكاتب .

«عندما كنا أطفالاً كنا نفهم كل الأشياء الحلوة . وكنا نستخلص حلاوات القصة الخرافية بعلم لا يخطىء ، خاص بنا . لم نكن نبالي قط بمثل هذه الأشياء غير المفيدة

التى تسمى المعرفة . لم نكن نبالى إلا بالحقيقة . وكانت قلوبنا الصغيرة السانجة تعرف جيداً أين قصر الحقيقة البلورى وكيف تصل إليه» .

لهذا نجد طاغور فى قصصه القصيرة - كما نجده فى شعره - يتوخى البساطة ويجعلها أسلوبه . وقلما يلجأ إلى شىء من أساليب التشويق غير اهتمامه بما يكتب ، وقلما يحاول أن يخفى نفسه عن القارىء ، ولكن ذلك لا يجعله يلبس ثوب المعلم أو الخطيب ، لأن الحقيقة الحية فى نظره لا تدرك بالإقناع الذهنى وحده ، ولأن الخطابية نوع من الاستعلاء الذى تنفر منه طبيعته . فهو يقص أولا للذة القصص ، ولأن فى القصص حقيقة أصفى من المعرفة ، ولهذا لا يحجم عن اتباع طريقة السرد فى الجانب الأكبر من قصته . فالكاتب القصصى الذى يتجنب طريقة السرد يفعل ذلك لشعوره بغرابة موقفه من ناحية - هو غير مستريح إلى أن يقف موقف الراوية لشىء يعلم ، ويعلم قارئه مقدماً أنه لم يحدث - ولرغبته فى إبعاد نفسه عن الموضوع من ناحية أخرى ، ولكن طاغور لم يكن يشعر بالقلق من موقف القاص ، ولم يكن يحاول الابتعاد عن موضوعه ؛ لأنه لم يكن يشعر - بادىء ذى بدء - بأن الموضوع يفرض نفسه عليه ، ولا بأنه يفرض نفسه على الموضوع .

التفاهم المستمر الذى كان طاغور يستشعره بينه وبين الكون كله هو الذى يجعل لفنه فى القصة القصيرة تلك السهولة الطبيعية ؛ فنشعر أمامها بنعومة الخطوط والألوان أكثر مما نشعر برسوخ الكتل : ولعل ذلك هو ما يجعل بعض قصصه تبدو وكأنها تريد أن تروغ من أيدينا وذاكرتنا ، فهى لا تجهنا بإحساس قوى يفرض نفسه علينا كما فرض نفسه على الكاتب ، ولا تنهض بكيان مستقل يمثل أمامنا مغرياً أو مهدداً . ولكنه كثيراً ما يصل ببساطة إلى درجة من التناغم تجعل قصصه أشبه بألحان موسيقية ، تأثيرها فى النفس أدنى إلى السرور ولو كان طابعها الحزن .

من هذه القصص الممتازة قصته «أعيان نايا نچور» . يبدؤها طاغور على عادته بطريقة السرد ، معرفاً بشخصيته الرئيسية :

«فى قديم الزمان كانت أسرة (بابو) فى نايا نچور من ملاك الأراضى المشهورين . وقد عرف عنهم بذخ الأمراء . فربما قصوا حواشى الحرير الموصلى ؛ لأنها تحتك بجلدهم . وربما أنفقوا عدة آلاف من الروبيات على عرس قطة . ويقال إنهم فى إحدى المناسبات الهامة أرادوا أن يقلبوا الليل نهاراً فأشعلوا مصابيح لا تحصى وأمطروا من السماء خيوطاً من الفضة لتحاكى ضوء الشمس . كانت هذه الأيام قبل الطوفان . ثم جاء

الطوفان . فلم يكن ممكنًا أن تستمر سلسلة آل بابو القدماء بترفهم الملوكى زمنًا طويلاً . لقد كانوا كمصباح أشعلت فيه فتائل كثيرة ، فتوهج زيته مسرعًا وانطفأ النور .

«وجارنا كايلاس بابو هوالبقية الباقية من هذا المجد البائد . فقبل أن يكبر كانت أسرته قد كادت تصل إلى الحضيض ، وعندما مات أبوه تألق البذخ مرة واحدة فى جنازة الرجل ثم كان الإفلاس . فبيعت الأرض لسداد الدين ، ولم يكن المال القليل الباقى كافيًا للمحافظة على أبهة الأسرة الماضية» .

وهكذا اضطر سليل المجد القديم أن ينتقل إلى كلكتا ليعيش عيشة متواضعة . وكان له ابن واحد مات وخلف بنتا . وعاشت البنت مع جدها فى المنزل الصغير ، حيث كان يخدمهما خادم عجوز ظل مخلصًا للأسرة .

ولا يخفى راوى القصة كرهه لكيلاس بابو . ويعلل ذلك بأن أسرته على النقيض من أسرة كيلاس . فأبوه قد كسب ثروة من عرق جبينه ، ولهذا فقد نشأ الابن يكره التظاهر ويعرف قيمة المال . ونعرف أن الراوى شاب قد نال قسطًا طيبًا من التعليم الحديث ، وهو يحسب أن ما ناله من التعليم وما ينتظره من الثراء لا يرفعه كثيراً فى نظر كيلاس بابو . ولكنه يلاحظ أن أحداً من جيران الشيخ ومعارفه لم يكن يشاطره حنقه على سليل المجد القديم . والواقع أن الرجل كان من أبعد الناس عن إيذاء الناس . فهو دائمًا ودود مهذب ، يشارك الناس فى حفلاتهم وأعيادهم ، ويبذل ابتسامته السمحة للصغير والكبير ، ويبدى السرور كلما لقى أحداً من أصدقائه ، ويسأل عن الأسرة والجيران بأسمائهم . وكان راوى القصة يلمح ما فى ذلك كله من ادعاء العظمة ، ويهزأ من عناية الشيخ بملابسه ومظهره على الرغم من فقره :

«ومع أن كيلاس بابو – كما قلت – كان قد فقد كل أرضه ، فقد بقيت له بعض مخلفات الأسرة . فكان هناك دورق فضى لرش الماء المعطر ، وعلبة مشغولة لماء الورد ، وصينية ذهبية صغيرة ، وشال ثمين عتيق ، وثوب التشريفة ذو الطراز القديم ، والعمامة الموروثة عن الأسلاف . وكان قد أنقذ هذه الأشياء بصعوبة شديدة من بين مخالب المرابين . وكان يبرزها فى كل فرصة مناسبة ، ويحاول بذلك إنقاذ مجد أعيان نايا نجور الذى طبق الآفاق . ومع أنه كان فى صميم قلبه أشد الناس تواضعًا فقد كان فى أحاديثه اليومية يرى واجبًا مقدسًا عليه نحو نبل محتده أن يطلق العنان لكبريائه العائلى ، وكان أصدقاؤه يشجعون هذه الخصلة فيه إذ يقابلونها بالعطف والرضى ، وكانوا يجدون فى ذلك سروراً كبيراً» .

كان الجيران يسمونه الجد ، ويتوافدون إلى منزله . ولكيلا يكلفوه شيئًا كان الواحد منهم ربما أحضر معه تبغًا ، ويقول : «يا جدى ، لقد جاءنى هذا الصباح بعض التبغ من «جايا» ، أرجو أن تقبله ، ولعل مذاقه يعجبك» .

فيأخذه الجد ويقول إنه ممتاز . ثم يسترسل في قصة عن نوع فاخر من التبغ كانوا يدخنونه قديماً في نايانچور ، وكان ثمن الأوقية منه جنيهًا . وكان من عادته أن يقول بعد ذلك : «لعل بعضكم يحب أن يذوقه الآن . فقد بقى لدى بعض منه ، ويمكننى أن أحضره لكم على الفور» .

ولكن الحاضرين كانوا يعلمون جميعًا أن ذلك التبغ إن طلب فلابد أن يكون مفتاح الصوان مفقوداً ، أو يكون الخادم العجوز «جانيش» قد نقل التبغ من مكانه .

وعندما كان الضيوف يقومون لينصرفوا ، كان الجد يرافقهم إلى الباب ، ويسألهم ، عرضاً ، متى يأتون جميعًا ليتغدوا معه .

فيقول أحدهم بأدب : انتظر قليلاً يا جدى . سنحدد يومًا فيما بعد .

فيجيب الجد : حسنًا ، حسنًا . يحسن بنا أن ننتظر حتى تأتى الأمطار . فالجو شديد الحرارة فى هذه الأيام ، والغداء الفاخر الذى أريد أن أقدمه إليكم لابد أن يقلب معدتنا فى مثل هذا الطقس .

ولكن عندما تأتى الأمطار يحرص كل واحد ألا يذكره بوعده ، وإذا ذكر هذا الموضوع فإن أحد الأصدقاء يلاحظ برفق أن الأمطار تجعل الانتقال صعبًا ، وأن الأفضل الانتظار حتى تنقطع . وهكذا دواليك .

إن أشنع الجرائم فى نظر الشباب هى أن يكون المرء غبيًا ، ولكن كايلاس بابو لم يكن غبيًا ، وكثيراً ما كان جيرانه يستشيرونه فى أمورهم العملية ، إلا أنه إذا جاء إلى سيرة أعيان نايا نچور فقد كان مستعداً لتصديق كل ما يلقيه الناس على مسامعه من مبالغات يريدون بها إدخال السرور على قلبه ، ولم يكن يخطر بباله قط – ولا فى الحلم – أن أحداً يمكن أن يشك فى هذه المعجزات .

على أن هناك سببًا آخر لذلك الكره الذى كان راوى القصة يستشعره نحو كايلاس بابو .

فقد كان فى سن الزواج . وكان فى استقامة خلقه وعلو تعليمه وثراء أبيه ما يجعل كثيراً من الأسر الطيبة فى البنغال تتمنى أن يصاهرها ، بل تعرض عليه بناتها .

وكان ذلك يسعده ويرضى كبرياءه ، وإن لم يجد فى فتاة من هذه الفتيات من تصلح أن تكون قرينته ، ومع أنه رأى حفيدة كايلاس بابو ولم يؤخذ بجمالها ولا تصور أنها تصلح له زوجة ، فقد غاظه من الشيخ أنه لم يعرضها عليه ، بل لقد سمع أنه قال لأصدقائه إن آل بابو لم يتمنوا نعمة قط ، وإنه لن يخرج على تقاليد الأسرة ولو بقيت الفتاة عانساً . كانت هذه العزة هى التى تحنق الفتى وتثير نقمته على الشيخ ، ولكنه لم يكن يجد سبيلاً للانتقام منه .

إلى أن اتفق يوماً فى مجلس من مجالس الشيخ أن زعم له موظف سابق أن نائب الحاكم دائم السؤال عنه ، وأنه كثيراً ما سمعه يقول إن البنغال كلها لم يكن فيها إلا عائلتان كريمتان حقًا : أمراء بوردوان وأعيان نايا نجور . وما كاد الشيخ يسمع هذه الكذبة حتى انشرح صدره ، وظل يردد القصة بعد ذلك ، وكان كلما رأى الموظف السابق يسأله عن نائب الحاكم وعقيلته وأطفاله .

ويرى الشاب الفرصة سانحة ، فينفرد بكايلاس بابو ذات يوم ويهمس له : أنه رأى نائب الحاكم أمس ، وأخبره أن كايلاس بابو يقيم الآن فى كلكتا ، وقد قرر الرجل أن يضرب صفحاً عن الرسميات ، وأن يزور الشيخ بنفسه اليوم .

وفى وقت الظهيرة ، والجيران إما نائمون أو مشغولون بأعمالهم ، وقفت عربة ذات جوادين أمام منزل كايلاس بابو ، ونزل خادمان بملابسهما الرسمية ، وصعدا السلم وأعلنا بصوت مرتفع : إن سيارة نائب الحاكم قد وصلت . وكان كايلاس بابو فى انتظاره بثياب التشريفة القديمة وعمامة أسلافه ، والخادم جانيش بجانبه يلبس أحسن حلل سيده لهذه المناسبة . فأسرع يستقبل ضيفه ، وألقى عليه خطبة ترحيب طنانة باللغة الأردية ، وحرص – بالطبع – على أن يعرض مخلفات الأسرة : الشال ، والصينية ، والدورق ، والصندوق المشغول .

وبعد دقائق ، لم ينطق فيها نائب الحاكم المزيف بحرف ، ولم يزد على هز رأسه ، نهض منصرفًا وتبعه الخادمان يحملان مخلفات الأسرة ، ووضعاها باحترام فى العربة . فلم يشك كايلاس بابو فى شيء ، وظن أن هذه هى عادة الحكام .

وكان الشاب يرقب ذلك كله من الحجرة المجاورة . وقد كاد جانباه ينشقان من الضحك المكتوم ، حتى إذا لم يجد بداً من الانطلاق أسرع إلى حجرة بعيدة وإذا بفتاة صغيرة جالسة فى ركن تبكى حتى ليوشك قلبها أن يتمزق . ولما رأته فى قهقهته الصاخبة نهضت غاضبة وعيناها الكبيرتان السوداوان تقذفان عينيه بمثل ومض البرق ،

فقالت وصوتها تخنقه الدموع : أخبرني ! بم أساء جدى إليك ؟ لماذا جئت تخدعه ؟ لماذا جئت هنا ، لماذا ...

«لم تستطع أن تزيد شيئًا . بل غطت وجهها بيديها وانفجرت باكية» .

واختفى ضحكي في لحظة . فلم يكن قد خطر لي قط أن في عملي هذا شيئًا غير دعابة ممتازة ، وهأنذا أجدني قد سببت أقسى الألم لذلك القلب الصغير البالغ الرقة . ونهض قبح قسوتي كله ليدينني . وتسللت من الحجرة في صمت ككلب مطرود .

«حتى الآن لم أكن أنظر إلى كسم ، حفيدة كيلاس بابو ، إلا على أنها سلعة تافهة في سوق الزواج ، تنتظر عبثًا أن تجتذب زوجًا . ولكنني اكتشفت الآن ، بهزة المفاجأة ، أن في ركن تلك الحجرة قلبًا إنسانيًا يخفق» .

ويقضي الفتى ليله مسهدًا ، ثم يأتي في الصباح حاملاً كل مخلفات آل بابو إلى مسكن كيلاس ، ليقدمها سرًا إلى الخادم جانيش . فيسمع صوت كسم تخاطب جدها برقة ، سائلة إياه أن يقص عليها ما حدث بينه وبين «الصاحب» . ويتألق وجه الشيخ زهوًا وهو يروي لها كل ما لم يقله الحاكم من ثناء على أعيان نايا نجور . والفتاة جالسة أمامه ، تتطلع إليه بانتباه ملؤه الغبطة .

«فتأثرت تأثرًا عميقًا ، وطفرت الدموع إلى عيني ، ووقفت هناك في الممر صامتًا بينما كان الجد ينهي قصته المزوقة عن زيارة (الصاحب) العجيبة ، وعندما غادر الحجرة أخيرًا حملت المسروقات ووضعتها عند قدمي الفتاة وخرجت دون أن أتكلم .

«ثم ذهبت مرة ثانية في ذلك اليوم لأزور كايلاس بابو نفسه . وكنت قد ألفت – طبقًا لعاداتنا الحديثة الكريهة – ألا أحيي ذلك الشيخ عندما أدخل الحجرة . ولكنني في ذلك اليوم انحنيت انحناءة عميقة ولمست قدميه . ولست أشك في أن الشيخ ظن زيارة الصاحب لداره هي السبب فيما جد من أدبي ؛ فقد سر له سرورًا عظيمًا ، ولمعت عيناه بصرامة ملؤها الطيبة .

«وتوافد أصدقاؤه وراح يروي لهم بإطناب قصة زيارة نائب الحاكم ، مضيفًا إليها تحليات جديدة مغرقة في الخيال . لقد أصبحت الزيارة ملحمة من حيث النوع والطول أيضًا .

«وعندما انصرف الزوار الآخرون تقدمت إلى الشيخ بخطبتي في تواضع شديد . فقلت له إنني وإن كنت لا أراني قط جديرًا بمصاهرة مثل هذه الأسرة العريقة فإنني ... الخ الخ .

«وعندما أوضحت غرضي للشيخ عانقني وانفجر متهللاً . قال : إنني رجل فقير ، وما كنت أتوقع قط مثل هذا الحظ العظيم .

«كانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة – طوال حياته – التي اعترف فيها كايلاس بابو بفقره . كما كانت المرة الأولى والأخيرة – طوال حياته – التي نسى فيها ولو للحظة واحدة عزة أعيان نايا نجور» .

* * *

وفي قصة أخرى لطاغور – قصة «الكابلي» – يقدم لنا راوى القصة شخصية بائع جوال ، من كابل ، نشأت بينه وبين ابنة الراوى ذات الخمس سنين صداقة عجيبة ، فكان دائم الجلوس معها أمام المنزل يلاعبها ويضاحكها ، بعد أن ضمن رضاها عنه بما كان يقدمه لها من حلوى لا يتقاضى عنها ثمنًا . وكانت زوجة الراوى – طبقًا لمعتقدات طبقتها – ترى مسلك ذلك البائع مريبًا ، وتخشى أن يكون من لصوص الأطفال . ولكن زوجها – راوى القصة – كان أكثر تحرراً ، فلم يمنع هذه العلاقة الحميمة بين ابنته الصغيرة وبين البائع العملاق .

وكان من عادة البائع – رحمان – أن يسافر إلى كابل في يناير من كل عام ليزور أسرته ، فكان يقضي هذا الشهر مشغولاً بجمع ماله من ديون عند زبائنه ، قبل سفره . إلا أنه كان يجد دائماً بعض الوقت ليقضيه مع صديقته الصغيرة «ميني» حتى كان يوم تنبه فيه الراوى وابنته إلى صوت ضجة في الشارع وإذا برحمان بين شرطيين يقودانه مقيد اليدين ، وثياب رحمان ملوثة بالدم ، وفي يد أحد الشرطيين سكين ، وحولهم جمهور متطلع . ويسأل الراوى عن القصة فيعلم أن أحد زبائن رحمان أنكر دينًا له عنده ، فاغتاظ رحمان وطعنه بسكين .

ويُحكم على رحمان بالسجن بضع سنوات . وتنسى ميني صديقها القديم . وتكبر ، وتبلغ سن الزواج ، وهذا يوم زفافها . وفي صباح ذلك اليوم ، وضجة الاحتفال على قدم وساق ، يدخل رحمان الكابلي .

«لم أعرفه أول الأمر . لا حقيبة ، ولا شعر طويل . إلا تلك القوة التي كانت له . ولكنه ابتسم . فعرفته ثانية . سألته :

– من أين جئت يا رحمان ؟

قال : خرجت من السجن مساء البارحة .

«وصدمت الكلمات أننى . فلم أكن قد تكلمت من قبل مع رجل جرح أخًا له . وانقبض قلبى حين أدركت ذلك ، فقد ظننت أن اليوم يكون أسعد فألاً لو لم يظهر .

«قلت هناك حفلة تقام ، وأنا مشغول . ألا تستطيع أن تمر فى يوم آخر ؟

«فتحول مسرعًا ليذهب ، ولكنه حين وصل إلى الباب تردد ثم قال : ألا أستطيع – يا سيدى – أن أرى الصغيرة لحظة ؟

« لقد كان يعتقد أن مينى لا تزال كما هى ، كان يتخيل أنها ستجرى إليه كعادتها ، منادية : يا كابلى ! وكان يتخيل أيضًا أنهما سيضحكان ويتحدثان معًا كعادتهما . بل إنه – إحياء لذكرى الأيام الماضية – جاء بشئ من اللوز والزبيب والعنب ملفوف فى ورقة ، وقد حصل عليه بطريقة ما من أحد مواطنيه ، فإن رأس ماله الصغير كان قد تبدد .

« قلت ثانية : هناك حفلة فى المنزل ، ولن يكون فى مقدورك أن ترى أحدًا اليوم .

« ونكس الرجل رأسه . ونظر إلىّ متأملاً لحظة ، ثم قال : « طاب صباحك » وخرج .

« وشعرت بأسف شديد ، وهممت أن أناديه ليرجع ، ولكنى وجدته يعود من تلقاء نفسه . واقترب منى ومد يده بهديته قائلاً : « لقد أحضرت هذه الأشياء للصغيرة يا سيدى . فهلا تعطيها لها ؟

فأخذتها وأردت أن أنقده الثمن ، ولكنه أمسك بيدى وقال : أنت رجل طيب يا سيدى ، اذكرنى بخير . لا تعطنى نقودًا ! أنت لك بنت صغيرة ، وأنا أيضًا عندى مثلها فى بيتى . إننى أفكر فيها وأحضر الفاكهة لابنتك ، لا من أجل ربح .

« قال ذلك ووضع يده داخل ثوبه الكبير الفضفاض ، وأخرج ورقة صغيرة متسخة بسطها على مكتبى وأزال تجعداتها بعناية كبيرة لم تكن صورة ولم تكن رسمًا . إنما كانت أثر يد صغيرة ملطخة بالحبر وضعت مبسوطة على الورقة . كان يحمل لمسة يد ابنته هذه على قلبه دائمًا وهو يجئ سنة بعد سنة إلى كلكتا ليبيع بضائعه فى شوارعها » .

ويستبقى الراوى زائره ، ويبعث فى طلب ابنته ، فتأتى فى ثوب الزفاف ، وينظر إليها الكابلى كالمذهول ، ثم يستعيد ضحكه القديم معها ، فيسألها باسمًا : يا عروس ، أتذهبين الآن إلى بيت حميك ؟

ولكنها تحمر خجلاً ، وعندما تذهب يصعّد رحمان زفرة عميقة ويجلس على الأرض ، فقد تذكر فجأة أن ابنته لابد قد كبرت هى الأخرى ، وعليه الآن أن ينشئ معها صداقة جديدة . لاشك أنه لن يجدها كما تركها منذ ثمانية أعوام .

« كانت موسيقى العرس تعزف ، وشمس الخريف اللطيفة تتدفق حولنا ، ولكن رحمان كان جالساً على الأرض فى حارة صغيرة فى كلكتا ، وكان يرى أمامه جبال أفغانستان الجرداء .

« وأخرجتُ ورقة مالية وأعطيته إياها ، قائلاً : عد إلى ابنتك فى بلدك يارحمان ، وعسى أن تجلب سعادة لقائكما حظًا طيبًا لابنتى .

« وكان علىّ حين قدمت هذه الهدية أن أختصر بعض نفقات الحفلة . وكان علىّ أن أستغنى عن المصابيح الكهربائية ، والموسيقى العسكرية ، وسخطت سيدات المنزل لذلك ، ولكنى رأيت أن حفلة الزفاف تزداد ضياء بفكرة أنه فى أرض بعيدة يلتقى أب طال غيابه بابنته الوحيدة» .

وقد يطول هذا الفصل كثيراً لو حاولنا أن نعرض لنماذج متنوعة من فن طاغور فى القصة القصيرة . فالقصة القصيرة عنده متعددة الأشكال ، قد تتخذ شكلاً من شكل المسرحية من حيث التركيز والحركة ، وقد تتخذ شكل الحكاية التى تعتمد على العقدة ، ويلتقى فيها الواقعى بالخيالى ، والظاهر بالباطن . ولكنه ، كما رأينا ، يصل أحيانًا فى بناء القصة القصيرة إلى أحسن ما يصل إليه كتابنا العالميون ، وهو دائمًا القاص الذى يحب حكايته ، ويعبر ، من خلالها ، عن حبه للحياة والأحياء .

الله والأطفال

عاد الأب من الجنازة .

وكان ابنه ذو السابعة واقفًا أمام النافذة ، وعيناه مفتوحتان ، وتعويذة ذهبية تتدلى من عنقه . ورأسه ممتلئ بأفكار أكبر من أن يفهمها سنه .

أخذه أبوه فى ذراعيه وسأل الصبى : أين أمى ؟

فأجاب أبوه وهو يشير إلى السماء : فى السماء .

«وبالليل تأوه الأب فى نعاسه ، وقد أجهده الحزن .

وكان مصباح معتم يشتعل قرب الباب ، وحرباء تطارد الحشرات على الحائط .

وتنبه الصبى من نومه ، وتحسس بيديه فراغ السرير ، وتسلل إلى الشرفة المكشوفة .

ورفع الصبى عينيه إلى السماء وتأمل طويلاً فى صمت . وأرسل عقله الحائر بعيداً فى الليل هذا السؤال : أين السماء ؟

ولم يأت جواب . وبدت النجوم كدموع لاهية لتلك الظلمة الجاهلة» .

«كنت أسير فى درب كساه العشب ، عندما سمعت أحدًا من ورائى فجأة يقول : انظر هل تعرفنى ؟

فالتفتُّ ونظرت إليها وقلت : لا أستطيع أن أذكر اسمك .

قالت : أنا أول حزن كبير صادفته فى شبابك .

وبدت عيناها كصبح لا يزال عالقًا به الندى .

ووقفتُ صامتًا برهة قبل أن أقول : هل أضعتِ كل ثقل دموعك ؟

فابتسمتْ ولم تقل شيئًا . وشعرت أن دموعها قد تعلمت على المدى لغة الابتسام .

همستْ : قلت مرة إنك سترعى حزنك إلى الأبد .

فاحمر وجهى وقلت : نعم ، غير أن السنين مضت ، ونسيت .

ثم أخذت يدها فى يدى وقلت : ولكنك تغيرت .

قالت : ما كان حزنًا مرة أصبح الآن سلامًا» .

(طاغور : الهرب)

* * *

لم يشعر طاغور بقرب الموت كما شعر به فى تلك السنوات التى استقبل بها العقد الخامس من عمره . كان أول هذه المصائب وأفدحها ، هو موت زوجته . وأعقبتها ابنته الكبرى ، وكانت مريضة بذات الرئة ، ثم أبوه ، ثم أصغر أبنائه .

وقد ذهب بعض النقاد الهنود إلى أن قصائده فى رثاء زوجته لا تعبر عن شاعرية قوية ؛ لأن ألم الشاعر لم يكن صراخًا ولا يأسًا ولا كلمات محرقة ، بل ألمًا عميقًا متأملاً يريد أن يقترب من معنى الموت ، من الله :

«عندما كانت على قيد الحياة .

كان - يارب - بوسعى أن أرد إليها كل ما تمنحينه من هبات .

أبدًا لن يزجع العهد .

ليلها الآن صباح .

يا إلهى قد ضممتها إليك .

وهداياى التى أعددتها من أجلها .

إنما أرفعها اليوم إلى أقدامك .

فخطاياى إليها .

وذنوبى

منك أرجو اليوم غفرانًا لها .

وزهور الشكر والحب

التى لا تستطيع اليوم أن تأخذها .

إنما أرفعها اليوم إليك

يا إلهى

وهى من أعنى بها» .

كانت هذه هى نغمة قصائده الأولى بعد وفاة زوجته ، وهى التى ضمها ديوانه «ذكرى» ، ولم يفارقه حزنه الكبير قط ، ولكنه ذاب مع الزمن فى عاطفته الدينية العميقة ، كما تشهد المقطوعتان اللتان صدرنا بهما هذا الفصل ، وهما من مقطوعات ديوانه «الهارب» الذى صدر سنة ١٩١٨ ؛ أى بعد وفاة زوجته بأكثر من خمسة عشر يوماً . وقد ماتت زوجته وأطفاله – بعد – صغار ، فأراد أن يكون لهم أمًا وأبًا ، وازدادت عاطفته نحوهم – وهو الأب الرحيم – عمقًا وحنوًا ، وقد كان فى طبعه حب للطفولة – وما أقرب الطفولة من الشعر – فنظم ديوانًا كاملاً عن الأطفال : «الهلال» . وفى هذا الديوان الفريد فى آداب العالم ينخلع الشاعر من دنيا الكبار ليعيش مع الأطفال فى حبهم وخيالهم ولعبهم . والطفل عنده يوشك أن يكون رمزًا للحياة الخالدة ، فهو يحب الأطفال بما يشبه التقديس ، يقول فى قصيدته «البداية» على لسان أم تخاطب ابنها حين سألها : «من أين أتيت ؟» :

«أنت محبوب السماء ، توأم نور الصباح ، طفوت على تيار حياة هذا العالم ثم رسوت على قلبى .

«حين أنظر إلى وجهك يغمرنى سر : أنت يا من تنتمى للكل أصبحت لى .

«مخافة أن أفقدك أضمك إلى قلبى . أى سحرٍ صاد كنز العالم فى ذراعى النحيلتين ؟» .

وكل حكمة الكبار أمام جمال الطفولة بلاهة وعىّ ، وكل كدهم أمام لعب الأطفال بهرج زائف :

«أيها الطفل ، ما أسعدك وأنت جالس فى التراب ، تلعب بغصن مكسور طول الصباح !

أنا أبتسم للعبك بتلك القطعة الصغيرة من غصن مكسور .

أنا عاكف على حساباتى ، أمضى الساعات أجمع أرقامًا .

«لعلك تلمحنى وتفكر : ما أسخفها لعبة تضيع فيها الصباح !

أيها الطفل ، لقد نسيت فن الاستغراق فى العصى وفطائر الطين .

أنا أبحث عن لعب غالية ، وأجمع قطع الذهب والفضة .

أنت تخلق ألعابًا سارة بأى شىء تجده ، وأنا أضيع .

وقتى وجهدى فى أشياء لن أنالها أبداً .

فى زورقى الهزيل أصارع لأعبر بحر الرغبة ، وأنسى أننى أنا أيضًا ألعب لعبة» .

ومع وحدة موضوع الديوان ، فإن فيه من التنوع ما يحمل القارئ بين قصائده دون أن يفتر اهتمامه . فمرة يصور الشاعر نظرة الرجل للطفل ، ومرة نظرة الأم للطفل ، ومرة نظرة الطفل للأم ، ومرة نظرة الطفل للأشياء . والقصيدة الأخيرة فى الديوان «الصفقة الأخيرة» أشبه ببلورة صافية تجمع فيها إحساس الشاعر نحو الطفولة .

«صحت وأنا أسير فى الصباح على الطريق المرصوف بالحجارة : تعال استأجرنى !

فجاء الملك فى عربته وسيفه بيده .

وأمسك بيدى وقال : سأستأجرك بسلطانى .

ولكن سلطانه كان صفراً فى الحساب ، وانطلق فى عربته

«فى حرارة الظهيرة وقفت المنازل مغلقة الأبواب .

وسرت فى الحارة المعوجة على غير هدى .

وجاء شيخ بحقيبة ذهب .

وفكر ثم قال : سأستأجرك بمالى .

ووزن نقوده واحداً واحداً ، ولكنى انصرفت عنه .

«كان المساء ، وسياج الحديقة قد تفتحت أزهاره .

وبرزت الغادة الحسناء وقالت : سأستأجرك بابتسامة .

وشحبت ابتسامتها وذابت فى دموع ، ورجعت هى وحدها إلى الظلام .

«كانت الشمس تطلع على الرمل ، وأمواج البحر تنكسر بدداً .

وجلس طفل يلعب بمحارته :

رفع رأسه وبدا كأنه عرفنى . وقال : أنا أستأجرك بلا شىء .

ومنذ ذلك الحين جعلتنى تلك الصفقة التى عقدت فى لعب أطفال رجلاً حراً» .

لم يقدم طاغور الأب هديته إلى أطفال العالم بهذا الديوان فحسب ، فقبيل وفاة زوجته كان قد غادر «شيلايدا» وأقام بموافقة أبيه فى «شانتينيكيتان» (مرفأ السلام) : ذلك المكان العامر بالذكريات ، وهناك بدأ ينفذ فكرة جديدة فى التربية ، وحين يتحدث طاغور عن هذه الفكرة يقول - فى بساطة - إنها كانت أشبه ببذرة ، والمرء لا يحدد البذرة التى تبدأ فى الإنبات ، ولكنه يرد منشأ الفكرة إلى أيام طفولته التى قضاها فى المدرسة .

لقد رأينا أن طفولة طاغور فى المدرسة كانت وديعة فى أيدى معلمين قساة ، وأنه تلقى أفضل تعليمه على يدى أبيه ، بين أحضان الطبيعة فى «شانتينيكيتان» وعلى سفوح الهملايا . وقد جعله ذلك يفكر فى نظام التعليم الذى اقتبسته الهند من الغرب ، ومع أنه فى ثورته على هذا النظام التقليدى الصارم كان متفقاً مع كثير من المربين الغربيين ، فقد انفرد عنهم باتجاه خاص يتجلى فيه أثر النظرة الشرقية إلى الحياة .

لقد رأينا طاغور فى إحدى قصصه القصيرة ، يفرق بين «الحقائق» و «الوقائع» . وهذه التفرقة نفسها هى أساس نظرته إلى التربية . فالغرض من التربية فى نظره ، هو «أن نقدم للإنسان الحقيقة فى وحدتها الكلية» . والنظام التقليدى للمدرسة يفصل الطفل عن هذه الحقيقة الكلية ويقدم إليه ، عوضاً عنها ، حزمة من «المعلومات» . فهو يحرمه من الأرض ليعلمه الجغرافيا ، وينزع منه اللغة ليعلمه النحو ، وبدلاً من أن يروى ظمأه إلى الملاحم يقدم قوائم من الوقائع والتواريخ . إن الحقيقة الكلية وحدة تلتقى فيها كل العناصر التى يتألف منها الكائن البشرى : عناصر العقل والمادة والروح ، ولكن

المدرسة تفصل هذه العناصر عن بعضها البعض ، ولا تعنى إلا بالعقل والمادة ، أما الروح فليس لها من هذه التربية المدرسية نصيب .

وفى هذه النقطة الأخيرة يظهر الفرق واضحًا بين طاغور وبين مربى الغرب . ففروبيل وبستالوتسى وغيرهما من مربى الغرب قد قرروا مبدأ الحرية فى التربية الحديثة ، وأصبحت القاعدة المقررة عند المربين الغربيين اليوم هى مسايرة ميول الطفل واستعداداته ، والاعتراف بالفروق الفردية بين الأطفال ، وإدخال نوع من الوحدة بين مناهج المواد الدراسية المختلفة . ولكن هذه الوحدة لم تتجاوز مواد الدراسة إلى المتعلم نفسه ، فالتربية عندهم لا تكاد تعترف بوجود عالم روحى له صلة بالعالم المادى . إن التربية الحديثة ليست إلا مظهراً من مظاهر «مذهب الحرية» الذى كان أساس الحضارة الأوربية فى القرن التاسع عشر ، وقد قام مذهب الحرية على إعطاء أكبر قيمة للإنسان الفرد ، ولكنه رفعه فوق مجتمعه وفصله عن الكون الذى هو جزء منه .

إن التعليم عن طريق الخبرة هدف فى حد ذاته عند التربية الغربية الحديثة . ولكنه عند طاغور وسيلة إلى هدف أكبر وهو ارتباط الإنسان بعالمه برباط الحب . وهذا الارتباط معناه أن تكون المدرسة فى الوقت نفسه مؤسسة دينية . ولكن أى نوع من المؤسسة الدينية ؟ إنها لا تتدخل بحال فى عقائد الدين ، بل تعتمد على ربط الناشىء بالطبيعة حيث يشعر دائمًا بوجود الله . ولهذا اتخذ طاغور نموذج مدرسته من «الأشرم» الهندى القديم . وبعض الكتاب الغربيين يسمون «الأشرم» «مدرسة الغابة» ، ولكن طاغور يصفه بأنه محلة فى الغاية ، ليست بمدرسة ولا دير ، يقيم فيها الرجل الحكيم مع أسرته ، ومع أن ساكن «الأشرم» ينقطع لله ، ويبتعد عن المجتمع ، فإن «الأشرم» يظل بالنسبة للمجتمع كالشمس بالنسبة للكواكب السيارة ، فهو مصدر للحياة والنور ، وهناك ينشأ الفتيان فى جو حىٍّ ، طامح إلى الحياة الأبدية ، يرعون قطعان الماشية ، ويحتطبون ، ويقطفون الثمار ، ويتعودون الرحمة بكل مخلوقات الله ، وتزكو أرواحهم فى ظل أرواح أساتذتهم .

هكذا بدأ طاغور مدرسته الصغيرة فى «شانتينيكيتان» سنة ١٩٠١ باثنين أو ثلاثة من الصبية ، ويحدثنا عن هذه البداية فيقول : «لم يكن أحد يتوقع منى مثل هذا العمل ، فقد أمضيت معظم حياتى ، حتى ذلك الحين ، فى الكتابة ، وخصوصاً كتابة الأشعار .. فكان المظنون أن الأمر لا يعدو أن يكون بدعة من بدع الغرور ، وآية من آيات عدم الخبرة» . ولكن مدرسة طاغور أصبحت تضم ثمانية عشر طالباً بعد سنتين ، ثم ستين بعد أربع سنوات ، وفى سنة ١٩١٥ كان فيها مائتان من الطلاب .

ولكن هل نقيس نجاح طاغور بعدد الطلاب ! ما أبعد هذا المقياس عن طبيعة تجربته ! الأولى أن تنظر كيف استطاع تطبيق فكرته على نظام العمل فى المدرسة وعلاقة الأساتذة بالطلاب . ولنسمع وصف ابتداء اليوم المدرسى من أحد تلاميذ رابندرانات :

«فى البكور ، حوالى الساعة الرابعة والنصف ، تطوف جوقة من التلاميذ فى أرجاء المدرسة ، يغنون الأغانى ، وينبهون النائمين لجمال الفجر الطالع وهدوئه . ولا يكاد الأولاد يستيقظون حتى يأخذوا فى تنظيف حجراتهم بأنفسهم ، فقد عُلموا منذ البدء ألا يحتقروا عملاً يدوياً مهما يكن ، بل أن يستقلوا بأمورهم دون مساعدة من الخدم بقدر ما يستطيعون . وعليهم جميعاً بعد ذلك أن يمارسوا بعض التمرينات الرياضية فى الهواء الطلق ، يعقبها حمام الصباح ، ثم ينفرد كل منهم بنفسه فى تأمل هادئ مدة ربع ساعة» .

ولنسمع بقية الوصف من أحد زائرى المدرسة :

«فى الساعة السادسة صباحاً سمعنا صوت ناقوس شجى النغمات أغرانا بالتطلع ، وكان بيت الضيوف الذى نزلنا به يتوسط حديقة ريفية ، انتشرت بين أشجارها بضعة منازل مستقلة من أبسط طراز . وكان الأطفال يخرجون منها ، كل بحصيرته ، ليتخذ مجلساً تحت شجرة منعزلة ؛ حيث يقضى الخمس عشرة دقيقة من التأمل التى تلى ذلك . كان ثمة ما يمس النفس مساً عجيباً فى منظر هذه الشخوص الصغيرة بلباسهم الأبيض ، يرصعون المنظر كله ، وكل منهم تحت شجرته المستقلة . ثم يدق الناقوس ثانية ، فيتحركون بخشوع صفوفاً إلى معبد المدرسة» .

وبعد الفطور تقام صلاة قصيرة ، فيجتمع الأولاد وينشدون هذا الدعاء من «الأوپانيشاد» :

«أنت أبونا . أرشدنا لنعرف أبوتك . لا تعاقبنا . أرشدنا لنسجد مخلصين .

«يارب ! ياأبانا ! كفر عنا كل خطايانا ، وامنحنا ما هو خير .

«نسجد لمن فيه السعادة .

«نسجد لمن فيه الخير .

«نسجد لمن يؤتى السعادة .

«نسجد لمن يؤتى الخير .

«نسجد لمن هو الخير .

«نسجد لمن هو الخير الأسمى .

«شانتى شانتى شانتى هارى أم» .

وتستمر دروس الصباح من الساعة الثامنة حتى الحادية عشرة والنصف ، وعند اعتدال الطقس تقام الدروس كلها في الهواء الطلق ، فتجتمع الصفوف المختلفة تحت أشجار متعددة في الحديقة ، وإذا كانت ثمة كتابة فإن كل صبي يأخذ معه حصيرته ومحبرته وورقًا وقلمًا .

ويتناولون غداءهم في الساعة الثانية عشرة ، وينتهي الشطر الأكبر من عمل المدرسة في الصباح ؛ لأن جو الهند شديد الحرارة بعد الظهر ؛ فلا يبقى عليهم إلا أن يستذكروا دروسهم ، وبعد تناول العشاء يشتركون في الألعاب ويمارسون أعمال الفلاحة . وبدلاً من الاشتراك في الألعاب يذهب بعض كبار الأولاد إلى القرى المجاورة ليقوموا بتعليم أبناء الفلاحين . وبعد الألعاب يأتي حمام المساء ، ثم التأمل ، وإنشاد دعاء سنسكريتي قبل وجبة الطعام الأخيرة ، وتعقب تناول الطعام ساعة من القصص والتمثيل والغناء ونحوها . ولا يشترك التلاميذ الكبار الذين يستعدون للشهادة الثانوية في هذا الوقت الممتع ، فهم محتاجون إلى مزيد من العمل ، ولكن السهر غير مسموح به .

«وبعد انتهاء عمل اليوم يأوون إلى الفراش في الساعة التاسعة والنصف ، وتطوف جوقة من الأولاد بالمدرسة مرة ثانية ، يغنون أغاني المساء . إنهم يبدأون أيامهم بالأغاني ويختمونها بالأغاني» .

وفي إدارة المدرسة اقتبس طاغور نظام «القادة» الذي رآه مطبقًا في بعض المدارس الأمريكية . فالتلاميذ ينتخبون قائدًا للمدرسة كل أسبوع يتولى الإشراف على النظام ، ويليه مساعدون منتخبون أيضًا ، يشرف كل منهم على مجموعة من ستة أولاد أو سبعة . وفي كل ليلة تعقد شبه محكمة تنظر في المخالفات التي تقع من أي عضو من أعضاء المدرسة ، ولا ينظر المدرسون إلا في القضايا الخطيرة وهي نادرة الحدوث .

على أن هذا كله لا يكشف عن روح المدرسة قدر ما تكشف عنها تلك العلاقة الحميمة بين التلاميذ والأساتذة ، التي كان رابندارنات نفسه أنموذجًا لها . فمع أنه لم يكن يشارك مشاركة منتظمة في العمل اليومي للمدرسة ، فقد كان يلقي أحيانًا بعض الدروس في الأدب والموسيقى ، كما كان يشجع التلاميذ على أن يعرضوا عليه أعمالهم الفنية في الرسم والشعر (وكان رسامًا ، كما كان شاعرًا وموسيقيًا) ويشترك معهم في تمثيل مسرحياته .

فالشئ العجيب الذي نلاحظه في هذه المدرسة – وهو شئ ما كان ليخطر ببال مرب غير فنان – هو أن الطلاقة لم تكن تميز نشاط التلاميذ فحسب بل نشاط الأساتذة أيضًا . ذلك أن الفكرة المستقرة في أعماق التربية الطاغورية هي أن الطفولة شئ رائع ، وأن في نفس الطفل من الغنى ما يجعله مستعداً لتقبل «الحقائق» من الكبار، إذا كان

الكبار أنفسهم قد استبقوا من ثراء الطفولة هذا الحب للحقائق ولم يتركوا نفوسهم تضمر ضموراً تاماً فى قوالب العادات . إن طاغور المربى هو هو طاغور قصاص الطفولة وشاعر «الهلال» .

ها هو ذا يتحدث عن أحد أساتذة مدرسته فيقول :

« من حسن حظى أن طالباً لامعاً كان يستعد لامتحان البكالوريوس . واسمه ساتيش تشاندرا روى ، اهتم اهتماماً شديداً بمدرستى ، ووهب حياته لتحقيق فكرتها . ولم يكن يتجاوز التاسعة عشرة من عمره . ولكن روحه بمواهبها السخية كانت تعيش فى عالم من الأفكار . وكان كل جميل وعظيم فى الطبيعة وفى الروح الإنسانية يجد فيها صدى قوياً . ولا شك أنه لو عاش لاحتل مكانة بين الشعراء الخالدين فى الأدب العالمى ، ولكنه مات وهو فى سن العشرين ، ولم تستمر الخدمات التى قدمها إلى مدرستنا إلا عاماً قصيراً . لم يكن التلاميذ يشعرون معه قط بأنهم محبوسون بين جدران صف ، فقد كان يبدو لهم أنه واصلٌ إلى كل شئ . كانوا يتبعونه إلى الغابة فى الربيع حين تزهر أشجار «السال» ، ويسمعونه ينشد بانفعال عميق قصائده المحببة . وكان روى يقرأ لهم من شكسبير بل من برووننج أيضاً - فقد كان شديد الإعجاب ببرونج - ويفسر لهم الشعر بالبنغالية فى بيان رائع . ولم يكن يشك قط فى قدرة الصبية على الفهم . كان يروى لهم ويقرأ عليهم الأشياء التى تعجبه هو نفسه ، عالماً حق العلم أنه ليس من الضرورى أن يفهم الأطفال كل شئ حرفياً وبالتفصيل ، ولكن يجب أن تستيقظ أرواحهم . وكان ينجح دائماً فى إيقاظها » .

وفى شانتينيكيتان كتب طاغور مسرحياته «شرادوستاب» (عيد الخريف - ١٩٠٨ و١٩٢٢) ، «الراجا» (١٩١٠) و «أشالاياتان» (الحص الحصين) و «مكتب البريد» (١٩١٢) و «فالجونى» (عيد الربيع - ١٩١٥ و ١٩٢٢) و «بارشامنجال» (عيد الأمطار ١٩٢٢) و «شيشارشان» (الأمطار الأخيرة ١٩٢٥) واشترك فى تمثيل بعضها مع طلاب المدرسة .

وفى شانتينيكيتان كتب طاغور معظم الأغانى التى ضمها أشهر دواوينه «جيتنجالى» (باقة الأغانى) بين سنتى ١٩٠٩ و ١٩١٠ ، وكان الأطفال يتغنون بها فى أوقات فراغهم «وهم يجلسون جماعات فى الليالى المقمرة ، أو فى أيام يولية تحت السحب الداكنة الواعدة بالمطر» .

فى «باقة الأغانى» تصل عاطفة طاغور الدينية إلى ذروتها ، كما يصل فنه الشعرى إلى غاية اكتماله . وبهذا الديوان عرف العالم الغربى طاغور لأول مرة ، فلم تكن قد ظهرت له قبل ذلك باللغة الإنجليزية إلا قصائد قليلة نشرت فى مجلة «مودرن ريڤو»

التى كانت تصدر بالإنجليزية فى كلكتا . وفى سنة ١٩١٢ عزم طاغور على أن يقوم برحلة طويلة إلى أوربا وأمريكا ، وكانت معه المخطوطة الإنجليزية من «باقة الأغانى» وقد ترجمها فى فترة من فترات المرض ، حين منعه الطبيب من القيام بأى عمل مرهق . وفى لندن نزل الشاعر ضيفاً على صديق إنجليزى (السير وليم روتنشتين) كان قد قابله فى الهند ، وقرأ ما ترجم هناك من أشعاره . وقدم روتنشتين مخطوطة «باقة الأغانى» إلى الشاعر الأيرلندى و. ب. ييتس أكبر شعراء زمانه فى اللغة الإنجليزية ، فاقترح إصلاحات طفيفة فى بعض مواضع منها ، وكتب مقدمة للديوان ، وقامت «جمعية الهند» فى لندن بطبع عدد محدود من النسخ وزعت على أعضائها فى سنة ١٩١٢ . وفى السنة نفسها زار طاغور الولايات المتحدة الأمريكية واستأذنته محررة مجلة «الشعر» التى تصدر فى شيكاغو فى نشر ست من قصائد «باقة الأغانى» .

والواقع أن «باقة الأغانى» الإنجليزية تضم منتخبات من ثلاثة من دواوين طاغور البنغالية : «نايبديا» (قرابين ، ١٩٠٢) ، و «خيا» (العبور ، ١٩٠٥) و «باقة الأغانى» . وقد عرف الديوان بعنوانه البنغالى «جيتنچالى» ، وذاعت شهرته فى جميع أرجاء العالم ، ومنح الشاعر جائزة نوبل سنة ١٩١٣ ، ولقب «سير» سنة ١٩١٤ .

لقد كان تأثير «جيتنچالى» عجيباً فى قرائه الأوربيين . فهذا الديوان لا يشبه شيئاً مما عرفوه من الشعر الأوربى ، ومع ذلك فهو لا يتسم بغرابة ما . لقد عزف طاغور على قيثارة الشعر الڤياشناڤى الصوفى ، ولكنه تخلص من الموضوع الأسطورى الذى استبقاه هذا الشعر حين جعل محوره غرام رادا وكريشنا ، فجعل طاغور شعره غنائياً خالصاً ، يعبر عن أشواق النفس إلى الاتحاد بالله – أشواق ملؤها الرقة والخضوع ، حتى ليجد طاغور فى التعبير بلسان المرأة وعواطفها أنسب قالب للتعبير عن هذه الأشواق فى معظم الأحيان ، ويعينه على ذلك فهمه الغريزى للمرأة ، وذكريات طفولته ؛ إذ كان يجد عالم المرأة مشبعاً بالسحر ، وأغانى الشعراء الڤياشناڤيين التى كانت تفتن فى وصف مشاعر «رادا» نحو حبيبها «كريشنا» .

ولعل أشهر ترجمة أوربية لجيتنچالى الإنجليزية هى تلك الترجمة التى قام بها الكاتب الفرنسى الكبير أندريه جيد . ويلاحظ جيد فى مقدمة هذه الترجمة أن من الأفكار التى تتردد كثيراً فى الديوان فكرة الانتظار ، كما فى القصيدة الحادية والأربعين :

«أين تقف خلفهم جميعًا يا حبيبى مختبئًا بين الظلال ؟ هم يدفعونك ويخلفونك على الطريق المترب ولا يحسبونك شيئًا وأنا أنتظر هنا الساعات الطوال وقد وضعت قرابينى لك ، بينما يأتى العابرون ويأخذون زهورى واحدة بعد واحدة ، حتى أوشكت سلتى أن تخلو .

«مر الصباح ، ومر الظهر ، وفى عتمة المساء يثقل النعاس عينى . والرجال العائدون إلى بيوتهم يلمحوننى ويبتسمون ويملأوننى خجلاً . وأنا أجلس كبنت شحاذة ، أستر وجهى بطرف ثوبى ، وعندما يسألوننى ماذا أريد أغض طرفى ولا أجيب .

«أوه ، كيف أقول لهم إنى إياك أنتظر ، وإنك وعدتنى أن تجىء ؛ كيف يطاوعنى خجلى حتى أقول لهم إنى أعددت لبائنتى هذا الفقر ؟ آه ، إننى أهدهد هذه الكبرياء فى دخيلة قلبى .

«أنا أجلس على العشب وأتأمل السماء وأحلم ببهاء قدومك فجأة - كل الأنوار تتوهج ، والأعلام الذهبية ترفرف على عربتك ، والواقفون على جانب الطريق يفغرون أفواههم حين يرونك تنزل عن كرسيك لترفعنى من التراب وتجلس بجانبك هذه البنت الشحاذة ، وهى ترتعد من الخجل والزهو ، كلبلابة فى نسيم الصيف .

«ولكن الوقت يمضى ولا صوت لعجلات عربتك ، وتمر مواكب كثيرة بضجيج وصياح وأبهة . أأنت وحدك الذى تريد أن تقف فى الظلال صامتًا متواريًا خلفهم جميعًا ، وأنا التى يجب أن تنتظر وتبكى وتذيب قلبها فى شوق ضائع ؟» .

كثيراً ما قارن دارسو طاغور بين نغمات الحب الإلهى فى «جيتنچالى» ونغمات الحب البشرى فى «البستانى» . إن البستانى عامر ببهجة الحواس ، ومع ذلك فهناك نغمة أساسية من الشوق والانتظار تنتظم الديوانين معًا ، وليس هذا بمستغرب من تلميذ الشعراء الڤياشناڤيين الذين رأوا الحب البشرى معبراً إلى الحب الإلهى ، وقد كانت فلسفة طاغور كلها قائمة على الحب ، فبينما تسيطر «الضرورة» على المناطق الدنيا من الحياة والنفس ، يكون الحب هو قانون النفس العليا التى تعانق الوجوه كله . وفى الحب تلتقى الحرية والعبودية ، أو على الأصح لا يكون لإحدى هاتين الكلمتين معنى ، لأن الحب معناه أن نختار الارتباط بالمحبوب . ومعرفة الله إنما تكون عن طريق الحب ، لأن المعرفة الحقيقية لا ضرورة فيها ولا إلزام ، وإنما تكون بأن يدرك الإنسان وجوده

فى العالم ، ووجود العالم فيه . ولهذا نجد فى أشعار طاغور كثيراً صورة الضيف المنتظر ، رمزاً لفكرة الله ، فهذه الفكرة لا تفرض نفسها علينا فرضاً بل تدخل إلى قلوبنا حين نكون مستعدين لاستقبالها . وشوقنا إليها قبل أن نلقاها واحتفاؤنا بلقياها حين تتجلى لنا شبيهان بشوق المحب إلى لقاء حبيبه واحتفائه به .

وفكرة «الانتظار» هى الفكرة التى تعبر عنها مسرحية من أشهر مسرحيات طاغور فى العالم الغربى : «مكتب البريد» (١٩١٢) . فبطل هذه المسرحية طفل مريض ، «أمل» ، يجبره الطبيب وعمه الذى يكفله على أن يلزم حجرته ، ولكن خياله يذهب بعيداً ، وراء الهضبة ، ووراء النهر ، وهو من نافذة حجرته يستوقف العابرين ، ويكسب قلوبهم بأسئلته التى تنبع من نقاء روحه . ويعرف من الحارس أن البناء المواجه الذى ترفرف عليه الأعلام هو مكتب البريد الجديد ، وأن هذا المكتب هو مكتب الملك ، فيسأل : «هل تأتى الرسائل من الملك إلى مكتبه هنا ؟» فيجيبه الحارس : «طبعاً . قد تأتى رسالة لك فى يوم من الأيام» . ويتعلق الطفل بهذا الأمل ، ومع أن شيخ البلد يسخر من زعمه هذا ، فإن رسول الملك يأتى والطفل على فراش المرض ، ليعلن أن الملك قادم بنفسه .

* * *

عندما كان طاغور فى الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا فى عامى ١٩١٢ و١٩١٣ ألقى عدداً من المحاضرات أوضح فيها لمستمعيه الغربيين جوهر النظرة الهندية إلى الحياة كما يراه . إن هذه النظرة تقوم على الوفاق والتناغم بين الإنسان وعالمه ، لا على الحرب بينه وبين هذا العالم . والمثل الأعلى للإنسان الهندى هو إدراك الكون أو تحقيق نفسه فى الكون وتحقيق الكون فيه ، لا «الاستحواذ» والسيطرة . لقد كان طاغور يبشر بهذه الرسالة فى الوقت الذى كانت الأسلحة تكدس فيه استعداداً لحرب عالمية رهيبة . ولم يفتنه مظهر الحضارة الغربية . بل على العكس ، لقد ضاق بما فيها من صراع مستمر ، وكان – وبلاده مستعمرة لإنجلترا – يؤثر فيمن عرفوه من الإنجليز أعمق التأثير بجلال شخصيته الهندية .

وقد وقف طاغور الجانب الأكبر من نشاطه ، منذ ذلك الحين ، على مكافحة الحروب والسعى إلى التفاهم بين الشعوب . وما كان أشقها من رسالة على رجل لا تزال بلاده نفسها تجاهد جهادها العنيف المشروع للتخلص من قبضة الاستعمار ! .

الوطن والعالم

كان طاغور دائمًا مثاليًا فى وطنيته .

فقد رأيناه فى مقالاته السياسية الأولى يواجه مواطنيه بعيوب نظام الطوائف ، ويسعى لتوجيه الحركة الوطنية الناشئة وجهة بناءة ، بتشجيع الصناعات الوطنية ، والعناية بتعليم اللغة القومية ، وطوال حياته لم يفصل قط بين الحرية السياسية وبين حرية أبناء الشعب وحقهم فى الكرامة ، ولم ينظر قط إلى مستقبل الهند على أنه صورة من حاضر الدول الغربية التى أدت بها النعرة الوطنية والجشع المادى إلى اعتصار دماء الأبرياء . لقد كان يرى أن الحركة الوطنية يجب أن تقوم على «الحق» ، ولها أن تلجأ إلى القوة لتدافع عن الحق وتدعمه ، ولكن ليس لها أن تؤله القوة وحدها لتسعى إلى فرض «واقع» لا يطابق الحق . فتأليه القوة والاعتراف بالواقع ونسيان الحق هو ما جعل الحركات الوطنية فى البلاد الغربية وبالاً على العالم وعلى نفسها ، ويجب أن تتجنب الهند ذلك ، وأن تظل وفية لتراثها الروحى العريق حتى تكون وطنيتها بركة على أبناء شعبها وعلى العالم .

وبلاد مستعمرة مثل الهند حين تثور على مستعبديها فهى تثور للحق ، ولكن حين تريد طائفة أو طبقة من أهلها أن تفسر الوطنية تفسيراً يعطيها وحدها كل الحقوق ، ويرد الطوائف أو الطبقات الأخرى إلى عبودية أشد من عبودية الاستعمار ، فإن هذه الطائفة تسىء إلى الحركة الوطنية وإلى الهند ؛ لأنها تنحرف عن طريق الحق ، وتحول الحركة الوطنية إلى طغيان من نوع جديد .

وعندما تقوم الحركة الوطنية على الحق فإنها ستعرف أيضًا حقوق الشعوب الأخرى . ولن تتحول يومًا إلى طريق العدوان الذى سارت فيه القوميات الغربية ؛ لأنها قامت ، كغيرها من مظاهر الحضارة الغربية ، على الغلبة والقهر ، ولم تقم على التفاهم الوطيد بين الإنسان وعالمه . وقد يتساءل المرء : وما للوطنية الهندية و (للعدوان) ، ونحن نعلم أن الهند ، فى وقت طاغور على الأقل ، لم تكن بحيث يخشى أن يصدر منها عدوان ، وإنما كانت تطالب بحق مغتصب ؟ والجواب عن هذا السؤال يلفتنا إلى ملاحظتين عظيمتى الخطر حول موقف طاغور الوطنى :

الملاحظة الأولى : أن ثقته بقيمة الحضارة الهندية لم تتزعزع قط . فلم يكن ، على الرغم من ثقافته الإنجليزية العميقة ورحلاته الكثيرة إلى الغرب ، ممن يميلون إلى تقليد

الغرب فى كل شىء . ولذلك كان يرى أن موقف غلاة الوطنيين من الهنود الذين مالوا إلى تأليه القوة وتطبيق مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» هو فى حقيقته موقف غير وطنى ؛ لأنه يعنى التنازل عن روح الحضارة الهندية ونحن نجد مثل هذا الموقف عند غاندى . وإن كان غاندى يغلو إلى حد رفض كل ثمرات التفكير العلمى التى جاءت من الغرب فى صورة آلات ومخترعات . أما طاغور فيمكننا أن نقول إنه نظر إلى الموقف غير المتكافىء بين الهند ومستعمريها على أنه جانب من الصورة فحسب ، يقابله جانب آخر تبدو فيه عظمة الهند كاملة ، وهو جانب الفلسفة الهندية التى تقوم على الإيمان بالوحدة بين كل الموجودات ، ورأى أن هذا الجانب يقتضى تطهير الحركة الوطنية من الحقد ، فلا تستخدم القوة إلا حين تضطر إلى ذلك للدفاع عن قضية الحق ، دون غضب ولا كره .

والملاحظة الثانية : هى أن طاغور لم يكن مقيد النظرة بالحاضر ، بل كان يمد بصره إلى المستقبل ويدرك أن هذا المستقبل ليس ملكًا للدول الغربية وحدها ، بل هو ملك للهند وغير الهند من الأمم التى لم تزل مستضعفة فى زمنه . فإذا كانت الهند تسعى الآن للتخلص من الاستعمار فعليها ألا تنسى - وهى فى سعيها هذا - أن عالم الغد يجب أن يقوم على مبدأ الحق لا على مبدأ القوة والأمر الواقع .

لم يكن من اليسير أن تطبق هذه المبادىء عملاً . وقد اشتغل طاغور بالسياسة العملية فيما بين سنتى ١٩٠٥ و١٩٠٨ ، على أثر مشروع اللورد كرزون لتقسيم البنغال . فقد أثار هذا المشروع عاصفة من السخط فى أرجاء البلاد ، ونقل الحركة الوطنية إلى مرحلة جديدة من النشاط الثورى . وألقى طاغور بنفسه فى أتون المعركة ، وعقد الاجتماعات ، وخطب ، ونظَّم ، ونَظَم الأناشيد الوطنية التى تجاوبت بها أرجاء البنغال . وكانت خطته هى تحرير الشعب وتنظيمه ليكون قادراً على خوض المعركة . ففى إحدى خطبه يقول موجهًا الكلام إلى شباب الحركة الوطنية من الطلاب : «إن المهانين المحتقرين الذين تبلد إحساسهم عن أن يشعروا بالإهانة ونسوا حتى حقوق إنسانيتهم يجب أن يعرفوا معنى كلمة (أخى) . علموهم أن يكونوا أقوياء وأن يحموا أنفسهم ، فهذا هو الطريق الوحيد . ليكن كل واحد منكم مسئولاً عن قرية من القرى ولينظمها . علموا القرويين وأروهم كيف يظهرون قوة اتحادهم . ولا تنتظروا حتى الشكر من أولئك الذين تودون أن تمنحوهم حياتكم ، بل استعدوا لأنهم سيقاومونكم» .

ولكن التيار الذى أصبحت له الغلبة فى تلك المرحلة من الحركة الوطنية الهندية لم يكن تيار الوطنية التقدمية ، التى تقرن التحرر السياسى بمقاومة العصبية الطائفية

وتحرير الشعب من قيود الجهل والخرافة والرجعية ، وهو التيار الذى كان يمثله طاغور ، بل تيار الوطنية المحافظة التى أرادت أن تبنى الحركة القومية الهندية – وهى أكثر الحركات تقدمًا – على أشد التقاليد الاجتماعية رجعية وأوغل المعتقدات الدينية فى الخرافات ، واضطر طاغور أن ينسحب من ميدان النشاط السياسى فى هدوء ، ولكن السنوات التالية كانت من أحفل سنوات حياته بالإنتاج الأدبى .

وقد استرجع طاغور تجاربه السياسية حين كتب روايته الطويلة «البيت والعالم» (١٩١٦) ولعلها أشهر أعماله التى أرسى بها أساس الرواية الاجتماعية فى الأدب البنغالى ، وكانت أولاها «الحطام» (١٩٠٤) وأخراها «أربعة فصول» (١٩٣٦) . وهى تذكرنا بروايات تورجنيف التى يدير فيها قصة عاطفية على مسرح من الأحداث القومية ، ويقرن المواقف الشخصية بالمواقف السياسية والمناقشات الفكرية . ففى رواية «البيت والعالم» شخصيات ثلاث : الراجا «نيكهيل» وهو راجا تقدمى شاب يبذل جهده لمساعدة أبناء إقليمه ، فينشىء المدارس التى يتعلم فيها معظم التلاميذ بالمجان ، ويقيم الأسواق لتشجيع الصناعات الوطنية ، ويغرس فى كل فرد شعور الكرامة والحرية ، وينمى بين جميع الطوائف رابطة الأخوة والتسامح . وهو ينفق جانبًا كبيرًا من أمواله على الحركة الوطنية ، التى يتزعمها شاب آخر كان صديقًا له فى أثناء الدراسة وهو «سنديب» وسنديب مزيج غريب من البطل والنذل ، فهو وطنى متحمس إلا أنه لا يميز بين عاطفته الوطنية ورغباته الشخصية ، فهو يعلم أتباعه أن أبهة مظهره جزء من كرامة الحركة ، ويكاد يغوى زوجة نيكهيل «بيمالا» التى يتخيل حبه لها مقترنًا بمجده السياسى ، وخروجها على رابطة الزوجية مقترنًا بخروج بلاده من قيود الاستعباد ... وهو كذلك مزيج من أسوأ ما فى الثقافة الهندية والثقافة الغربية . فهو يقول عن نفسه إنه من عبدة «كالى» إلهة القسوة ، وهو يتخذ الغرب قدوة فى عبادة القوة والإيمان «بالواقع» والسخرية بالحق .

فى أحد مواقف الرواية يدور حوار بين الثلاثة ترويه بيمالا :

«وتعمد سنديب أن يبدأ مناقشة مع زوجى ... فبدأ يقول مستتيرًا :

– إذن فأنت لا تسلم بأن هناك مجالاً لمخاطبة الخيال فى العمل السياسى ؟

– إن للخيال مكانًا يا سنديب ، أسلم بذلك ، ولكنى لا أومن بإعطاء المجال كله للخيال . إننى أريد أن أعرف بلادى على حقيقتها الصريحة ، ولهذا أخاف أن أستخدم العبارات الوطنية المغناطيسية ، وأخجل من ذلك .

– ما تسميه أنت العبارات المغناطيسية أسميه أنا الحقيقة . فأنا أومن حقًا بأن بلادى هى إلهى . إننى أعبد الإنسانية ، والله يتجلى فى وطن الإنسان كما يتجلى فى الإنسان .

– إن كان هذا ما تعتقده حقًا فينبغى ألا يكون عندك فرق بين إنسان وإنسان ، ولا بين وطن ووطن ...

– كلا يا نيكهيل ، إن هذا كله ليس إلا المنطق الجاف . ألا تسلم بأن هناك شيئًا اسمه الشعور ؟

«فأجاب زوجى : أقول لك الحق يا سنديب ، إن شعورى هو الذى يثور كلما حاولت أن تجعل الظلم واجبًا ، والشر مثالاً أخلاقيًا . إن عجزى عن السرقة لا يرجع إلى قدراتى المنطقية بل إلى أنى أشعر باحترام لنفسى وحب للمثل العليا .

«كان باطنى فى ثورة ، وأخيراً لم أستطع أن أبقى صامتة ، فصحت : أليس تاريخ كل بلد سواء أكان إنجلترا أم فرنسا أم ألمانيا أم روسيا هو تاريخ سرقة من أجل بلادهم ؟

– هم مسئولون عن سرقاتهم ، وإنهم ليسألون عنها الآن ، فتاريخهم لم ينته بعد .

فقاطعنا سنديب بابو قائلاً : لماذا لا نحنو حنوهم على كل حال ؟ فلتملأ خزائن بلادنا بالبضائع المسروقة أولاً ثم لتمض القرون حتى نُسأل عنها مثل سائر البلاد إن كان لابد من ذلك ، ولكنى أسألك : أين نجد هذا «السؤال» فى التاريخ ؟

– عندما كانت روما تُسأل عن إثمها لم يكن أحد يعلم أنها تسأل ، ففى ذلك الوقت لم يكن يبدو أن لرخائها حدوداً . ألا ترى أمراً واحداً : أن حقائبهم السياسية تنقطع بالأكاذيب والخيانات وتكسر ظهورهم بأوزارها ؟» .

* * *

انسحب طاغور من ميدان النشاط السياسى ، وأقام فى «شانتينيكيتان» مدرسة الغابة التى أنشأها على نسق «الأشرم» القديم ، لتكون للمجتمع «كالشمس بالنسبة للكواكب السيارة مصدراً للحياة والنور» ؛ فهو لم يعتزل المجتمع حين اعتزل السياسة العملية ، بل أراد أن تكون مدرسته مثالاً للعمل الاجتماعى المخلص لمساعدة شعبه . ففى سنة ١٩١٤ أنشأ معهداً زراعيًا ملحقًا بشانتينيكيتان ، وسماه

«شرينيكيتان» أى «مرفأ الرخاء» . وكانت فكرته من إنشاء هذا المعهد أن تكون مناهج الدراسة موافقة لحاجات الفلاحين فى القرى المجاورة ، وهدفه أن ترتبط المدرسة ارتباطًا وثيقًا بهؤلاء الفلاحين ، فتعلمهم وترشدهم إلى الطرق الاقتصادية السليمة لاستغلال الأرض .

وفى سنة ١٩١٦ سافر إلى اليابان ، وألقى هناك سلسلة من المحاضرات جمعت فى كتاب «القومية» الذى نشر بالإنجليزية فى السنة التالية . وفى هذه المحاضرات هاجم القوميات الغربية الاستعمارية التى تلغى الفردية والشخصية ، وتقوم على الأثرة والاستغلال . إن فى العالم متسعًا لجميع الأمم ، ويجب أن تحافظ الأمم على استقلالها . لقد كان طاغور يلقى هذه المحاضرات بينما كانت الدول الغربية تجنى ثمار الاستعمار المرة ، وتبيد زهرة أبنائها فى حرب طاحنة . وقد رأى أن عقلية العالم يجب أن تتغير ، وأن القومية الأنانية لا يمكن أن تستمر ، وأن إنسان الغد يجب أن يربى على الإيمان بالأخوة الإنسانية .

ومن أجل تحقيق هذه الأغراض النبيلة أنشأ طاغور فى سنة ١٩٢١ معهداً جديداً ألحقه بشانتينيكيتان ، وسماه «ڤزڤابهاراتى» أو «جامعة الأمم» . لقد كانت هذه الجامعة كما قال فى خطبة افتتاحها : «فكرة عظيمة ، وإن ظهرت بيننا فى شكل مادى صغير» . فقد كان غرضها السعى لإيجاد تفاهم عالمى وثيق ، بدراسة مختلف المدنيات فى الشرق والغرب ، ففتح طاغور أبوابها لكل من يريدون دراسة الحضارات الشرقية من الغربيين ، وأنشأ لها مجلة فصلية باسمها . على أن «ڤزڤابهاراتى» لم تكن مجرد جامعة أو معهد ، بل كانت كاسمها «مرفأ السلام» محلة فى حضن الطبيعة ، يكوِّن حفيف الأشجار وأغانى الليالى المقمرة جانبًا كبيراً من جوها الذى يجعل نفس الزائر تمتلئ شعوراً بوجود الله .

والعالم يعرف طاغور فى هذه الفترة الأخيرة من حياته مسافراً لا يسأم الرحلات ، فلا يكاد يوجد ركن من أركان الأرض لم يزره فى رحلاته الكثيرة ، كما يعرفه داعية للسلام والتفاهم بين الشعوب ، ولكن هذه الرسالة العالمية يجب ألا تنسى مواقفه الوطنية التى رفع فيها صوته ، بثبات وجلال ، مدافعًا عن شعبه المضطهد .

ففى سنة ١٩١٩ أراد الاستعمار البريطانى فى الهند أن يحوِّل التشريعات الاستثنائية التى أصدرها فى أثناء الحرب إلى قوانين دائمة ، وبدأ غاندى حركة المقاومة السلبية ، وشملت البلاد كلها موجة وطنية عارمة أفزعت قوات الاحتلال ، فأقدم

الجنرال «داير» على جريمة بشعة فى مدينة «أمريتسار» ؛ إذ أمر بإطلاق النار على مظاهرة من الهنود العزل فى مكان مغلق ، فقتل - حسب التقارير الرسمية - ٣٧٩ شخصاً وجرح ١٢٠٠ تركوا فى مكان المذبحة دون عناية طبية . وكان هدف ذلك القائد - كما قرر فيما بعد - أن يوجد «حالة نفسية من وجهة النظر العسكرية ، لا بالنسبة إلى الحاضرين فحسب بل بالنسبة إلى البنجاب كله» ؛ أى أن يرهب الشعب .

وقد كتب طاغور ، رداً على هذه الجريمة البشعة ، رسالة إلى الحاكم العام البريطانى تعد وثيقة من وثائق الحرية . قال فيها :

«إن فظاعة الإجراءات التى اتخذتها حكومة البنجاب لقمع بعض الاضطرابات المحلية قد صدمتنا صدمة كشفت لعقولنا مبلغ سوء حالنا بوصفنا رعايا بريطانيين فى الهند . ونحن واثقون من أن القسوة البالغة التى أبديت فى فرض هذه العقوبة على شعب تعس وفى الوسائل التى اتخذت لتنفيذها ليس لها فى تاريخ الأمم المتمدنة قديماً وحديثًا إلا نظائر قليلة معروفة ... إن أقل ما أستطيع أن أعمله لبلادى هو أن أتحمل كل النتائج التى تترتب على تعبيرى عن احتجاج الملايين من أبناء وطنى ، الذين أخرس الألم والجزع أصواتهم . لقد جاء الوقت الذى أصبحت فيه شارات الشرف أشد إهانة لنا بما يصاحبها من إذلال - فى جانب أبناء وطنى الذين يتعرضون لما يظن من تفاهة شأنهم إلى امتهان لا يليق بالبشر» .

وقد رفض طلب طاغور إعفاءه من لقب «سير» ، ولكنه لم يستعمل هذا اللقب بعد ذلك قط ، وكان ذلك سبباً كافياً لأن يستقبل استقبالاً فاتراً فى رحلاته التالية إلى إنجلترا .

لقد كان طاغور كلما تقدم به العمر ازداد إيمانًا بالإنسان ، وبينما نجد شعره الغنائى المتأخر فى ديوانى «الهارب» و «قطف الثمار» يسيطر عليه هدوء فلسفى عميق ، نجد فى شعره السياسى والاجتماعى عاطفة مضطرمة ، كما فى هذه القصيدة من ديوان «قطف الثمار» :

«الذين يمشون فى طريق الكبرياء ، يدوسون الحياة الواطئة تحت خطاهم ، ويغطون خضرة الأرض الرقيقة بآثار أقدامهم المخضبة بالدم .

لهم أن يفرحوا ويشكروك يارب ؛ لأن اليوم يومهم .

ولكننى أشكرك ؛ لأن حظى مع المتواضعين الذين يقاسون ويتحملون عبء السلطان ، ويخفون وجوههم ويخنقون سرخاتهم فى الظلام .

لأن كل نبضة من ألمهم قد سرت فى أغوار ليلك ، وكل إهانة قد تجمعت فى سكونك العظيم .

والغد لهم» .

وفي سنة ١٩٣٠ زار طاغور روسيا . والكلمات التالية التى ألقاها عند وداع مضيفيه توضح لنا رأيه فى نظامها :

«أحب أن تعلموا مبلغ إعجابى بنشاطكم فى نشر التعليم بين جماهير الشعب ، ويزيد من إعجابى هذا أننى أنتمى إلى بلد يُحرم الملايين من مواطنى فيه نور التعليم . لقد عرفتم حقيقة أن إزالة جميع الشرور الاجتماعية يجب أن تكون باقتلاعها من الجذور ، وذلك لا يمكن أن يتم إلا بالتعليم ... يجب أن أسألكم : هل تخدمون مثلكم الأعلى حين تثيرون فى نفوس من تعلموا الغضب والحقد الطبقى وحب الانتقام ممن لا يشاطرونكم آراءكم ؟ إنكم تعملون لغرض عظيم . ولهذا يجب أن تكونوا عظماء فى نفوسكم ، عظماء فى رحمتكم وفهمكم وصبركم» .

فقد كان طاغور يرى ، كما يظهر من رسائله التى كتبها فى أثناء هذه الزيارة ، أن الرأسمالية أضرت بمصالح جماهير الشعب ، ولكن إلغاء الملكية الخاصة لن يقضى على الفقر ، والحرب الطبقية لن تساعد على الوصول إلى الانسجام الضرورى .

وقبيل الحرب العالمية الثانية كانت الفاشية تمد سلطانها البغيض على أوربا وآسيا ، وتضع يدها المخضبة بالدم على بلدان الشرق . وقد رفع طاغور صوته ضد العدوان الفاشى على الصين والحبشة وإسبانيا وتشيكوسلوفاكيا ، ومن أجود ما نظمه فى السنوات الخمس الأخيرة من حياته قصدتاه «إلى إفريقية» و «عباد بوذا» . وقصيدته «إلى إفريقية» تنتهى بهذه الأبيات :

«تسلل إليكم هؤلاء الصيادون بفخاخ البشر .
وحشيتهم أحدّ من أنياب ذئابكم ،
وكبرياؤهم أشد عمى من غاباتكم المظلمة .
لقد تعرّى جشع المتمدنين الوحشى عن قسوته التى لا تعرف الخجل .
وبكيتم وخنقت صيحتكم
ودروب غابتكم غدت موحلة بالدموع والدماء
بينما أحذية اللصوص المغطاة بالمسامير تترك آثارها التى لا تمحى على تاريخ عاركم .
وعبر البحر لم تزل نواقيس الكنائس ترن فى مدنهم وقراهم

والأطفال يهدهدون فى أحضان الأمهات
والشعراء يتغنون بأناشيد للجمال» .

أما قصيدة «عباد بوذا» فقد كتبها الشاعر – كما يقول هو نفسه – حين قرأ أن اليابانيين كانوا يصلون فى معابد بوذا ليبارك منبحتهم فى أهل الصين :

«طبول الحرب تدق
ورجال يلوون ملامحهم لتروع
ويصرون على الأسنان .
من قبل أن يندفعوا ليجمعوا لحمًا بشريًا لمطبخ الموت ،
يمشون لمعبد بوذا الرحيم .
يسألونه البركة .
وطبول الحرب تدق عالية : طق طق
والأرض تهتز ...

* * *

فى السابع من أغسطس سنة ١٩٤١ مات طاغور ، بينما كان العالم يخوض حربًا طاحنة جديدة ، طالما أنذر الشاعر من خطرها ونبه إلى أسبابها . لقد خلّف شاعر السلام رسالته الخالدة ، ومضى للقاء الموت الذى أحبه من بعض حبه للحياة :

«أعلم أنه فى النهاية المعتمة ليومٍ ما ستودعنى الشمس وداعها الأخير .

سيعزف الرعاة فى ناياتهم تحت أشجار «البانيان» ، وسترعى الماشية على السفح قرب النهر ، بينما تعبر أيامى إلى الظلام .

هذا هو دعائى : أن أعرف قبل ذهابى لماذا نادتنى الأرض إلى أحضانها .

لماذا حدثنى سكون ليلها بحديث النجوم ، وقبل ضوء نهارها أفكارى فأزهرت .

قبل أن أذهب دعنى أردد نغمى الأخير لأتم موسيقاه ، دع المصباح يشتعل لأرى وجهك ، والزهور تنتظم لتتوج جبينك» .

الكتاب الثانى

البيت والعالم

تأليف

رابندرانات طاغور

ترجمة

شكرى محمد عياد

طاغور الشاعر الإنسان

تحتفل البشرية كلها فى هذه الأيام بالشاعر الفذ الذى سخر قلمه لخدمة الإنسان وتثبيت حقوقه ، وهو عرفان خليق أن يشارك فيه بقلبه كل إنسان يؤمن بنفسه وبقيمته ، ومن ثم فليس عجيبا أن تجتمع القلوب على إحياء ذكرى الشاعر الإنسان رابندرانات طاغور فى كل بقاع الأرض ، فلقد كان طاغور المنافح عن الإنسان فى كل مكان بذوب قلبه وعصارة ذهنه ، لا يعرف فى دفاعه حدودا ولا سدودا ، ولا يفرق فى تقديره للإنسان بين جنس وجنس ولا بين لون ولون ولا بين دين ودين . كان الإنسان عنده هو الإنسان فى أية صورة ركب وفى أى أرض نشأ . كان يرى الإنسان قدسا ، لأنه الصورة التى تتجلى فيها قدرة القادر وعظمة الخالق على الأرض – كان يحب الإنسان – أى إنسان – ويقدس حقه ويجهد فى سبيله . لم يفقد قط – حتى فى أحلك ساعات حياته – إيمانه بالإنسان ، ولم ين قط عن السعى الدائب فى سبيل تحقيق سعادة الإنسان .

تلكم المزية التى انفرد بها طاغور هى التى جعلت الأبصار كلها تتجه إليه فى هذه الأيام لتنفض عن ذكراه غبار السنوات التى مرت ، ولتعيد إلى الأذهان عهده الذى كتبه فى أخريات أيامه وتركه تراثا حيا خالدا للإنسانية لتتأمل فيه كلما حزبها الأمر واشتد بها الخطب واحلولكت الظلمات ؛ ظلمات المادة التى ارتكست فيها البشرية من أسف منذ سنوات طوال . لعل صيحة هذا الشاعر من وراء الأبدية تجد من يصيخ لها السمع ويفتح لها القلب عن إيمان بها فيعمل على أن يعيد للبشرية اتزانها وإيمانها بالقيم الإنسانية التى تحتفى بالمادة وتقدر الروح حق قدرها بلا إسراف فى الأولى أو تطفيف فى الثانية .. لقد كتب طاغور فى رسالته الأخيرة يقول :

« مهما يكن من شىء فإنى لن أرتكب الخطيئة الخطيرة : خطيئة فقدان الإيمان بالإنسان ، والرضوخ للهزيمة التى حاقت بنا فى الوقت الحاضر على اعتبارها نهائية وحاسمة . بل سأظل أتطلع بأمل إلى تحول فى مجرى التاريخ ، وبعد أن تنجاب هذه الغمة الجاثمة وتصفو السماء ثانية وتهدأ . وربما بزغ الفجر الجديد من أفقنا هذا ، أفق الشرق ، حيث تشرق الشمس . وعندئذ تهب روح الإنسان التى لم تهزم لتقوده من جديد إلى طريقه ، طريق التقدم رغم كل العوائق ، ليسترد تراثه الضائع » .

هذه الرسالة : رسالة الإيمان بالإنسان وبروح الإنسان ، والإيمان بأن البعث الجديد سيأتى من الشرق .. هى التى تغنى بها الطاغور فى شعره وموسيقاه ، وهى التى تمثل لب فلسفته كلها - هذه النبوءة التى أرسلها هذا العبقرى بعد أن كشف أسرار الوجود بنغماته التى استوحاها من قلب الطبيعة الذى نفذ إليه ببصره واستكن حقائقه ببصيرته وإخلاصه .. قد بدأت تتحقق ، وأخذ الشرق ينتفض انتفاضات أيقظت شعوبه من غفوة رانت عليها ، فهبت تبدد الغيوم الحالكة التى خيمت فى سمائها ، وترسل قبسات من الضوء الكاشف تؤذن بانبلاج الفجر وبزوغ النور الهادى من قلب المشرق ليهدى البشرية ويقودها إلى الطريق السديد الذى بشر به طاغور .. وإنه لتوفيق أى توفيق أن يتسنم الشرق مكان الهداية إلى الحق والخير والجمال فى هذه الأيام التى يكتمل فيها قرن على مولد شاعر الإنسان والحق والخير والجمال رابندرانات طاغور .

من أجل هذه المعانى ومن أجل هذه الدعوات إلى تقديس الإنسان ورعاية حقه يحتفل الشرق والغرب بذكرى طاغور .. وطاغور نسيج وحده ، فقد جمع إلى حكمة الشرق ثقافة الغرب . وإلى عراقة الأصل وشرف المحتد الإيمان العميق بالشعب وبالجماعة الانسانية ، وإلى زكانة القلب ورجاحة العقل وذلاقة اللسان وطيب المعشر وإلى علو المكانة ، شرف الجهاد من أجل حرية بلاده واستقلالها . وهو بهذا كله قد احتل مكانا فريدا فى تاريخ الهند الحديث ، بل وفى تاريخ الشرق كله ، حتى استحق بحق أن ينعت بأنه أعظم فنان فى العصر الحديث ، وأن تخلع عليه جائزة نوبل فى عام ١٩١٤ .

لقد ولد طاغور فى السابع من شهر مايو سنة ١٨٦١ ، بمدينة كلكتا فى أسرة موسرة ذائعة الصيت ذات تاريخ مجيد وجذور عميقة فى عالم الثقافة ودنيا الأدب والسياسة . فكان جده راعيا للفنون والآداب فى عصره ، وكان أبوه من أعظم المصلحين الاجتماعيين ، وكان من أسرته النابغون فى الرسم والموسيقى والأدب .. هذا التراث الثقافى الوفير الغناء الذى أخذه أبوه عن آبائه وأجداده مضافا إلى مواهبة الفريدة قد خلق منه عبقريا فذا متعدد الجوانب مكتمل النبوغ ، وهيأ له التحليق فى كل ميدان إلى القمة ، فكان بين الشعراء أفحلهم ، وبين المسرحيين أنبغهم ، وبين الفنانين أرقهم ، وبين الموسيقيين أحلاهم ترجيعا ، وبين المصلحين أشجعهم رأيا وأدقهم بصراً بالأمور ، وبين المربين أعلمهم ، وبين الوطنيين أكثرهم جهادا وأعمقهم إيمان بحقوق وطنه ، وبين المتحدثين أكثرهم جاذبية وأشدهم إقناعا ؛ لقد اكتملت فى يده أداة الفن فى شتى صورها ، فأرسل الأغانى تنساب حلوة النغم حافلة بالمعانى لتنفذ إلى القلوب وتستولى على الألباب . كان يتميز بفكر موسيقى وقلب موسيقى فجاءت ؛ كلماته موسيقى عذبة تستمد أنغامها من غناء الطبيعة الساحرة فى كل مظاهرها .

لقد ترك طاغور لمحبى الفن والأدب أكثر من ألف قصيدة وأكثر من ألفى أغنية بالإضافة إلى عديد من القصص القصيرة والطويلة ، والمسرحيات والمقالات والبحوث التى عالجت موضوعات كثيرة ومختلفة ، فهو فى إنتاجه من حيث الكم لا يباريه شاعر آخر ، ومن حيث الكيف لا يرقى إلى مستواه إلا قلة من العباقرة ؛ على أن إنتاج طاغور لم يقف عند هذا الحد ، فالشعر والأدب لم يتسنفدا كل طاقاته الكامنة العارمة فعمد إلى الموسيقى يؤلف فيها ويفرغ بعض طاقاته ، وإلى الرسم ينفّس عن بعض مكنون طاقاته الفنية ، ومن عجب أنه بدأ يرسم وهو فى السبعين من عمره ، ومع ذلك أنتج أكثر من ثلاثة آلاف لوحة بعضها فريد فى كماله الفنى .

هذا التنوع الفذ قلما اجتمع لشخص واحد ، ولكنه اجتمع فى طاغور ؛ لأن طاغور كان يؤمن بالحياة ويحبها ولا يزهد فيها ، كان يهب نفسه للكون باعتباره جزءا منه ، فعرف الكون وعرف الحياة ، وتفتحت له أسرار الوجود بالإيمان والحب والعمل ..

هذا الإنسان الفريد الذى كرس حياته للإنسان ، واستلهم شعره من روح الإنسان ، ومن رسالة خالق الكون للبشرية لن تدرك حق الادراك إلا حين تسود الحرية وتتحقق العدالة الاجتماعية ، هذا الانسان المؤمن بحق كل منا فى الحرية والعدالة الاجتماعية ، من حقه علينا وعلى الإنسانية التى وجه ضراعاته إلى مالك الملك لينقذها من مسالك الضلال ويهديها إلى الصراط المستقيم ، والتى أرسل أغانيه وأشعاره ليوقظها من سباتها وينهضها من كبوتها ، من حقه علينا فى ذكراه المئوية أن نعيد قراءة فيض خواطره ، وأن نردد أشعاره وأغانيه ، وأن نلقنها أبناءنا ونملأ بها جوانحهم ، ليشبوا مؤمنين برسالته عاملين على تحقيقها .

ووفاء لهذا الحق تصدر الإدارة العامة للثقافة بوزارة التربية والتعليم هذه المختارات من مقطوعاته الشعرية وهى : الهلال وشيترا وجيتنجالى والبستانى وجنى الثمار ومكتب البريد والبيت والعالم ، وهى ترجو بهذا أن تكون قد أسهمت فى إحياء ذكرى هذا العبقرى . فليس أحفظ للذكرى من إحياء فكر العظيم بمداومة قراءته حتى يستقر فى النفس إيمانا ويحفز للعمل من أجل الحرية والسلام ورعاية حقوق الإنسان : تلك المبادىء التى آمن بها طاغور ودعا إليها فى :

* أيتها الأمم الفتية هبى وأعلنى صيحة الجهاد من أجل الحرية .

* وارفعى راية الإيمان الغلاب الذى لا يقهر .

* وأقيمى من حياتك معبرا يراب صدع الأرض التى مزقتها الأحقاد والإحن .
* ثم سيرى للأمام ..

مصطفى حبيب

الفصل الأول

حكاية بيمالا

- ١ -

أماه ! ترتسم فى ذهنى اليوم صورة الطابع القانى[١] على مفرق شعرك ، والسارى الذى تعودت أن ترتديه ، بحاشيته الحمراء العريضة ، وعينيك هاتين العجيبتين ، ملؤهما عمق وسلام . ترتسم فى ذهنى وأنا على أول الطريق فى رحلة حياتى ، كأنها أول خيط من خيوط الفجر يمنحنى زادا ذهبيا يعيننى على المضى فى طريقى .

السماء التى تعطى النور زرقاء ، ووجه أمى كان أسمر ، ولكنها كانت تشع قداسة ، وحسنها يزرى بكل غرور الحسان .

ويقول كل الناس : إنى أشبه أمى . وكنت فى صباى أغضب لذلك ، وأسخط على مرآتى ، فقد كنت أظن أن الله أسبغ القبح على أعضائى ، وأن قسمات وجهى السمراء لم تكن من قسمتى ، ولكنها جاءتنى سهوا . ولم يبق لى شىء أسأل الله أن يعوضنى به ألا أكون عندما أكبر نموذجا للمرأة كما تقرأ عنها فى قصيدة ملحمية .

وعندما خطبت دُعِى منجم فنظر فى راحتى وقال : « هذه البنت ميمونة الطالع ، وستصبح زوجا مثالية » .

وقالت جميع النساء لما سمعنه : « لا عجب فالبنت لأمها . » . تزوجت فى بيت راجا . وكنت فى طفولتى أعرف حق المعرفة وصف الأمير فى القصص الخرافية . ولكن وجه زوجى لم يكن نوع يستطيع الخيال أن يضعه فى الخرافات . كان أسمر مثل وجهى ، فسرى عنى بعض الانقباض الذى كنت أستشعره لنقص محاسنى ، وأسئرت فى قلبى - مع ذلك - قطرة أسى .

(١) علامة المرأة المتزوجة ورمز الوفاء الزوجى عند الهنود . (المترجم) .

ولكن المنظر الجسمى إذا راغ من حواسنا الفاحصة ودخل هيكل قلوبنا استطاع أن ينسى نفسه . وإنى لأعلم من خبرة طفولتى كيف يكون الوفاء هو الجمال نفسه فى صورته الباطنية . فعندما كانت أمى تنضد ألوان الفاكهة التى قشرتها بيديها فى عناية على الطبق الحجرى الأبيض ، وتحرك مروحتها بلطف لتطرد عنها الذباب بينما يجلس أبى إلى طعامه ، كان قيامها بين يديه يستحيل جمالا يجاوز حدود الظاهر ، وأستطيع الشعور بقوته وإن كنت طفلة . كان يسمو على كل جدل أو شك أو حساب ، كان موسيقى خالصة .

وإنى لأذكر فى وضوح كيف كنت أشعر بالطابع القانى على جبينى يضىء كنجمة الصبح حين أستيقظ بعد زواجى فى الصباح وأمسح التراب عن قدمى زوجى دون أن أوقظه[1] .

واتفق أنه انتبه ذات يوم فسألنى مبتسما : « ما هذا يابيمالا ؟ ما الذى تفعلينه ؟ ».

لن أستطيع نسيان خجلى حين كشف أمرى . لعله حسبنى لا أبغى بذلك إلا أن أكتسب فضيلة. ولكن لا ، لا ! لم يكن فى الأمر فضيلة ، إنما هو قلبى ، قلب المرأة الذى لابد له أن يعبد كى يحب .

وكان بيت حمى عريقا فى المجد منذ أيام « البادشاهين » . وكانت بعض آدابه تنتمى إلى المغول والبارتيين ، وبعض عاداته ترجع إلى مانى وباراشار . ولكن زوجى كان عصريا خالصا . فكان فى هذا البيت أول من أتم دراسته العالية ، وحصل على درجة الماجستير . وكان أخوه الأكبر قد مات شابا لإفراطه فى الشراب ، ولم يعقب ولدا . أما زوجى فلم يكن يشرب ولا يستسلم للشهوات ، ومن غرابة هذه المحافظة بالنسبة إلى مألوف الأسرة كاد الكثيرون يعدونها أمرا منكرا ! فقد حسبوا أن الطهارة لاتليق إلا بمن لم يبتسم لهم الحظ ، فالكلف فى القمر لا فى النجوم .

وكان أبوا زوجى قد ماتا منذ زمن طويل ، وجدته العجوز هى سيدة البيت ، وزوجى هو إنسان عينها ، والجوهرة التى على صدرها ، فلم تصعب عليه مخالفة شىء من العادات القديمة ، ولما دعا « مس جلبى » لتعلمنى وتكون رفيقتى أبى أن يتحول عن عزمه رغم ماكانت تنفثه الألسنة الثرثارة من سموم ، فى البيت وخارجه .

(١) مسح التراب عن القدمين علامة على التوقير ، وتكون بأن يلمس قدمى الموقر لمسا خفيفا ثم يلمس المتقرب رأسه باليد نفسها ، وليس من المألوف أن تؤدى الزوجة هذه الشعيرة لزوجها . (المترجم) .

وكان زوجي آنذاك قد فرغ من امتحان البكالوريس وأخذ يدرس ليحصل على الماجستير ، فاضطر للبقاء في كلكتا لينتظم في الكلية ، وكان يكتب إلى كل يوم تقريبا .. سطورا قليلة وكلمات مألوفة ، إلا أن خطه الكبير المستدير كان ينظر إلى وجهي بحنان ، أوه ، أي حنان ! وكنت أحفظ رسائله في صندوق من خشب الصندل أغطيها كل يوم بالأزهار التي جمعتها من الحديقة .

في ذلك الحين كان أمير القصة الخرافية قد اختفى كما يختفي القمر في ضوء الصبح ، وكان عندي أمير عالمي الحقيقي متربعا على عرش قلبي . وكنت ملكة ، مقعدي بجانبه ، ولكن فرحتي الحقة هي أن مكاني الصحيح عند قدميه .

لقد تعلمت بعد ذلك ، وعرفت العصر الحديث في لغته ، ومن هنا تبدو هذه الكلمات التي أكتبها وكأنها تحمر خجلا بين النثر العادي الذي يحيط بها . ولولا معرفتي لقواعد هذه الحياة الحديثة لعلمت علم السليقة والطبع أن كوني ولدت امرأة أمر خارج عن يدي ، وأن سجية العبادة في حب المرأة ليست كمقطع مستهلك يقتبس من قصيدة رومانسية ليكتب بخشوع كتابة جميلة في كراسة تلميذة .

ولكن زوجي ما كان يسمح لي بفرصة للعبادة . تلك كانت عظمته . جبناء أولئك الذين يطلبون الخشوع المطلق من زوجاتهم على أنه حق لهم ، فإنه مذلة لكلا الزوجين .

كأنما كان حبه لي يفيض فوق حدودي بفيض سخائه وعطائه . ولكن حاجتي كانت إلى العطاء أكثر من الأخذ ، فالحب صعلوك شرير يفتح أزهاره في تراب الطريق أحسن مما يفتحها في أصص البللور التي توضع في حجر الجلوس .

لم يستطع زوجي أن يتخلى تماما عن التقاليد العتيقة التي تسود أسرتنا ، ولذا كان من العسير علينا أن نلتقي في أية ساعة من ساعات النهار أحسنا .[1] وكنت أعرف بالدقة في الوقت الذي يأتي فيه ، فكان للقائنا كل عناية الإعداد المحب . كان كروي القصيدة يجب أن يأتي من خلال الوزن .

كنت إذا فرغت من عمل اليوم وأخذت حمام العصر أعقص شعري وأجدد الطابع القاني على الجبين ، وأرتدي الساري وقد أحكمت طياته ، ثم أسترجع جسمي وعقلي من

(١) لا يستحسن من الزوج أن يكثر التردد على « الزينانا » أو جناح الحريم في غير ساعات معينة لتناول الطعام أو للراحة (المترجم) .

كل شواغل الواجبات المنزلية ، وأهبهما فى هذه الساعة المعينة ، بشعائر معنية ، لفرد واحد . كان هذا الوقت معه كل يوم قصيرا ، إلا أنه لا نهائى .

وكان زوجى يقول : إن الرجل وزوجه متساويان فى الحب ؛ لأن لكليهما على الآخر حقا مساويا لحق صاحبه . ولم أجادله فى ذلك قط ، ولكن قلبى كان يقول : إن العبادة لا تسد طريق المساواة الحقيقية بل ترفع مستوى الأرض التى يلتقيان عليها ، فتظل مسرة المساواة العليا باقية ولا تنحدر إلى مستوى التفاهة السوقية .

لقد كان الأشبه بخلقك الكريم ياحبيبى أنك لم تنتظر منى العبادة قط . ولكنك لو قبلتها لأحسنت إلى إحسانا عظيما . لقد أظهرك حبك بتزيينى وتعليمى وإعطائى ما أسأله وما لا أسأله . ورأيت عمق حبك فى عينيك وأنت تنظر إلى . وعرفت زفرة الألم الخفية التى كنت تكتمها فى حبك لى . لقد أحببت طبيعتى كلها وكأنما وهبك إياها قدر عزيز .

وازدهانى هذا الفيض من العبادة ؛ لأنى حسبت كل الثروة التى ساقتك إلى بابى هى ثروتى . ولكن مثل هذا الغرور إنما يمنع سيل الاستسلام الحر فى حب المرأة . فعندما أجلس على عرش الملكة وأطلب آيات الخضوع يمضى هذا الطلب فى ازدياد ولا يشبع أبدا. وهل ثمة سعادة حقيقية للمرأة فى شعورها المجرد بأن لها على الرجل سلطانا ؟ لا خلاص للمرأة إلا بأن تسلم كبرياءها فى العبادة .

يعاودنى اليوم تذكر كيف اشتعلت نيران الحسد حوالينا فى أيام سعادتنا . إنما كان ذلك طبيعيا . ألم يأتنى حظى السعيد بمحض المصادفة دونما استحقاق ؟ ولكن السماء لا تدع الحظ يدوم أبدا ، إلا أن يوفى دين شكره يوما بعد يوم ، أياما طويلة كثيرة ، حتى يثبت ويستقر . قد يمنحنا الله الهبات ، ولكن لنا نحن فضيلة تقبلها والاحتفاظ بها . فوا أسفاه على النعم التى تنزلق من أيدٍ غير جديرة بها !

كانت جدة زوجى وأمه كلتاهما مشهورتين بالجمال . كما كانت سلفتى الأرملة ذات حسن نادر المثال . ولما تركهن القدر لوحدتهن الواحدة بعد الأخرى آلت الجدة ألا تتطلب الجمال لحفيدها حين يتزوج ، فلم يؤهلنى لدخول ذلك البيت إلا آيات يمن الطالع التى حظيت بها .

وقل من النساء فى ذلك البيت السرى من كانت تلقى حقها من الاحترام ، إلا أنهن ألفن عادات الأسرة ، واستطعن أن يبقين رؤوسهن مرفوعة ، متعلقات بعزة أنهن ملكات

ذلك البيت العريق ، وأن غرقت دموعهن كل يوم فى حباب الخمر ، ورنين خلاخيل الراقصات . فهل كان بفضل منى أن زوجى لم يقرب الشراب ولم يبدد رجولته فى أسواق النساء ؟ وأى سحر كنت أعرفه لأهدهد نفوس الرجال الثائرة القلقة ؟ لم يكن إلا حظى السعيد . فلقد قسا القدر على سلفتى ، وانتهى فرحها والمساء فى أوله ، تاركا نور جمالها يضىء عبثا على أبهاء خالية ، يشتعل ويشتعل ، ولا موسيقى تصاحبه !

وكانت سلفتى تظهر احتقارها لأفكار زوجى الحديثة . ما أسخف أن يجعل سفينة الأسرة المحملة بثقل مجدها العريق تمخر تحت علم هذه البنت زوجته فقط ! لطالما لذعنى سوط السخرية : « لصة سرقت حب الزواج ! » ، « خدعة تتستر فى زينتها الحديثة الفاضحة ! » وكانت الثياب الملونة الحديثة التى يحب زوجى أن يجملنى بها تثير غضبا حسودا : « ألا تستحى أن تجعل من نفسها شباك متجر وهى بهذا المنظر !» .

وكان زوجى يشعر بهذا كله ، ولكن طيبته لم تعرف حدودا ، فكان يتوسل إلى أن أسامحها .

وأذكر أنى قلت له مرة : « إن عقول النساء صغيرة معوجة ! » فأجاب : « كأقدام النساء الصينيات . ألم يطبعها ضغط المجتمع بالقبح والاعوجاج ؟ ما هن إلا لعب القدر الذى يقامر بهن ، فعلام نؤاخذهن ؟ » .

ولم تكن سلفتى تعجز قط عن الحصول على ماتريد من زوجى . ولم يكن يتريث لينظر إن كان ما تطلبه مقبولا أو معقولا . ولكن أشد ما غاظنى أنها كانت لا تقر بجميل ، وكنت قد وعدت زوجى ألا أرد عليها ، ولكن ذلك ضاعف غضبى وإن لم أظهره . وشعرت أن للطيبة حدودا إن تجاوزتها جعلت الرجال أقرب إلى الجبن . هل أقول الحق كله ؟ لقد تمنيت فى كثير من الأحيان لو أن زوجى كان لديه الرجولة الكافية ليكون أقل طيبة .

كانت سلفتى « البارارانى » (١) بعد شابة ، ولم تكن تدعى القداسة . بل إن

(١) « بارا » : أى الكبرى ، و « تشوتا » أى الصغرى . وفبيوت السراة ذات الأسر المشتركة لا يكون للأرملة حق فى نصيب زوجها إلا التمتع به طوال حياتها ، ولكنها تحتفظ برتبتها تبعا للسن ، ويظل لقبا « الكبرى و « الصغرى » مميزين للفرعين الأكبر والأصغر ، وأن كان الفرع الأصغر هو صاحب السلطان . (المترجم) .

كلامـها ومزاحـها وضـحكها كـان أقرب إلى الجرأة ، وكـانت الوصـائف اللاتى تحيط نفسـها بهن على شىء من الوقـاحة . ولكن لم يكن ثمة أحـد يعـارضـها - ألم تكن هذه هى عادة البيت ؟ وبدا لى أن حظى الحسن الذى أعطانى زوجا نقيا كان يقرح جفنيـها . أما هو فكان يشعر بتعاسة حظها أكثر مما يشعر بنقائصـها .

- ٢ -

كان زوجى شديد الرغبة فى إخراجى من « البردة » [٢] . وقد قلت له يوما :ماذا أريد من العالم الخارجى ؟

فأجاب : لعل العالم الخارجى يريدك .

- إذا كان العالم الخارجى قد سار بدونى حتى الآن ؛ فإنه يستطيع أن يسير مدة أطول . ولا حاجة به أن يهلك حزنا علىّ .

- وما شأنى بهلاكه ؟ إن هذا لا يعنينى ، ولكننى أفكر فى نفسى .

- أوه ، حقا ! وماذا عن نفسك ؟

فصمت زوجى مبتسما . وكنت أعرف أسلوبه فبادرته مستنكرة :

- لا ، لا ، لن تروغ منى هكذا ! إنى أريد أن نتصارح وننهى الموضوع .

- هل يمكننى إنهاء موضوع ما بكلمات ؟

- دع التكلم بالألغاز . أخبرنى ..

- ما أعنيه هو أن تكونى لى وأكون لك بمزيد من الكمال فى العالم الخارجى . فهنا لا يزال كلانا مدينا لصاحبه .

- وهل يعوز شىء فى حبنا هنا فى البيت ؟

- هنا أنت منطوية فى ، لا تعرفين ماذا تملكين ، ولا ماذا تريدين .

- أنا لا أستطيع أن أحتمل سماعك تتكلم على هذا النحو .

(٢) «البردة » ومعناها « الستارة » : اسم عام يدل على حياة « الزينانا » المنفصلة وجميع ما يتعلق بها من العادات .(المترجم) .

- أود أن تخرجي إلى قلب العالم الخارجي وتلتقي بالحقيقة .

أنت لم تخلقي لتؤدي واجباتك المنزلية فقط ، لتعيشي حياتك كلها في عالم التقاليد المنزلية وسخرة الأعمال المنزلية ! لن يكون حبنا صحيحا إلا إذا تلاقينا وعرف كل منا صاحبه في العالم الحقيقي .

- إذا كان هنا نقص ما في معرفتنا الكاملة فليس لدي ما أقوله . ولكن أنا لا أشعر بحاجة ما .

- هبي أن النقص في جانبي وحدي ، فلماذا لا تساعدينني على إزالته ؟

كانت مثل هذه المناقشات تتكرر بيننا . وقال لي يوما : إن الرجل النهم الذي يحب سمكته المطبوخة لا يتأذى من تقطيعها حسب حاجته ، ولكن الرجل الذي يحب السمكة يريد أن يستمتع بها في الماء ، وإذا استحال عليه ذلك فإنه ينتظر على الشط ، وإذا عاد إلى بيته دون أن يقع نظره عليها فإنه يتغذى بمعرفة أن السمكة بخير . الكسب الكامل هو أفضل شيء ، ولكن إذا استحال ذلك فإن أفضل شيء بعده هو الخسارة الكاملة .

لم أحب قط طريقة زوجي في الحديث عن هذا الموضوع ، ولكن ذلك لم يكن هو السبب في رفضي مغادرة « الزينانا » .لقد كانت جدته لا تزال على قيد الحياة ، وكان زوجي قد ملأ البيت بالقرن العشرين إلى أكثر من مائة وعشرين في المائة ، على غير هواها ، ولكنها تحملت ذلك دون أن تشكو ، ولو خرجت كنة بيت الراجا من حجابها لتحملت الجدة ذلك أيضا ، بل أنها كانت متهيئة لحدوثه ، ولكني رأيت ذلك لا يستأهل ألمها بسببه . لقد قرأت في الكتب أننا نسمي « طيورا في الأقفاص » وليس باستطاعتي أن أتحدث عن غيري ، ولكني كنت أجد في قفصي هذا ما لا يتسع له العالم أو على الأقل هذا ما شعرت به آنذاك .

وكانت الجدة المسنة شديدة الإعزاز لي . وكانت في أعماق معزتها فكرة أني استطعت بعون من طالعي السعيد أن أجتذب حب زوجي . أليس الرجال ميالين بطبعهم إلى الانحدار في الهاوية ، ثم تستطع واحدة من الأخريات ، برغم جمالهن ، أن تمنع زوجها من الانصباب إلى الأعماق الجامحة التي تلتهمهم وتدمرهم . وآمنت بأني كنت وسيلة إطفاء هذه النار التي فتكت برجال الأسرة ، فجعلتني في حجرها ، وكانت ترتعد إذا أصابتني أيسر وعكة .

لم تكن جدته تحب الثياب والحلى التى يحضرها زوجى من المتاجر الأوروبية ليزيننى بها . ولكنها قالت لنفسها : « لابد للرجال من هواية ما يبعثرون فيها أموالهم ، ولا فائدة فى محاولة الحد من إسرافهم ، يكفى أنهم لا يجلبون الخراب على أنفسهم ، وإذا كان وحيدى « نيكهيل » عاكفا على تزيين زوجته فلسنا ندرى من التى كان يمكن أن ينفق عليها نقوده ! » ؛ فكانت كلما وصل ثوب جديد لى أرسلت إلى زوجى وراحت تمازحه حول هذا الأمر .

وهكذا حدث أن نوقها هو الذى تغير . حتى بلغ من تأثير العصر الحديث عليها أن أماسيها كانت تأبى أن تمر حتى أروى لها قصصا من الكتب الإنجليزية .

وأراد زوجى بعد وفاة جدته أن أرافقه إلى كلكتا لأعيش معه . ولكنى لم أستطع الإقدام على ذلك . أليس هذا منزلنا الذى أحاطته بعنايتها خلال محنها ومتاعبها ؟ ألا تحل على لعنة إن هجرته وذهبت إلى المدينة ؟ كانت هذه هى الفكرة التى ألزمتنى مكانى بينما كرسيها الخالى ينظر إلىّ فى عتاب . لقد جاءت تلك السيدة النبيلة إلى المنزل فى سن الثامنة وماتت فى سنتها التاسعة والسبعين . ولم تقض حياة سعيدة . رمى القدر صدرها بسهم بعد سهم . فما زاد على أن جعل الروح الخالدة الكامنة فيها تنطلق وتنطلق حتى تقدس هذا المنزل الكبير بدموعها . فماذا عساى فاعلة بعيدا عنه فى تراب كلكتا ؟

وكان رأى زوجى أن هذه فرصة طيبة لترك سلفتى تتعزى بالسيطرة على المنزل ، مع إعطاء حياتنا مجالا للامتداد فى كلكتا . وهذا هو ما ضايقنى . لقد نغصت علىّ حياتى ، وأضجرتها سعادة زوجى ، وعلى هذا هى تكافأ ! ثم ماذا عن اليوم الذى يلزم أن نعود فيه ؟ هل أسترد عندئذ كرسى الصدارة ؟

وكان زوجى يقول : ولماذا تريدين ذلك الكرسى ؟ أليس فى الحياة أشياء أثمن ؟

أن الرجال لا يفهمون هذه الأمور أبدا . فلديهم أعشاشهم فى العالم الخارجى ، وهم لا يعرفون حقا كل ما يمثله المنزل ، فعليهم أن يتبعوا إرشاد النساء فى هذه الأمور – تلك كانت أفكارى آنذاك .

وكان لبُّ المسألة – فى نظرى – أن الإنسان يجب أن يدافع عن حقوقه ، فالذهاب وترك كل شىء فى أيدى العدو يساوى الاعتراف بالهزيمة .

ولكن لماذا لم يجبرنى زوجى على الذهاب معه إلى كلكتا ؟ أنا أعلم السبب ؛ لأنه كان يمل القوة ، ولم يستخدم قوته .

- ٣ -

لو كان على المرء أن يملأ الفجوة بين الليل والنهار قليلا قليلا لاحتاج إلى عمر الأبد . ولكن الشمس تشرق فيتبدد الظلام ، وتكفى لحظة للتغلب على امتداد غير محدود .

ذات يوم بدأ عهد « السواديشى »[1] فى البنغال . أما كيف حدثت فهذا ما لم نتبينه على التحديد ، فلم يكن ثمة منحدر متدرج يصل الماضى بالحاضر ، ولهذا السبب - كما أظن - جاء العهد الجديد كالطوفان محطما كل السدود ، مكتسحا كل حذر وخوف فينا . بل إننا لم نجد وقتا لنفكر أو نفهم ما حدث وما يوشك أن يحدث .

تضرج بصرى وعقلى وآمالى ورغباتى بالحمرة لحماسة ذلك العهد الجديد . ومع أن جدران المنزل الذى كان هو النهائى فى نظرى بقيت ولم تتحطم ، فقد وقفت أنظر من فوقها إلى الآماد ، وسمعت صوتا من الأفق البعيد لم أتبين معناه فى وضوح ، ولكن نداءه نفذ إلى قلبى .

لقد حاول زوجى منذ كان طالبا فى الجامعة أن يجعل الأشياء التى يحتاج إليها شعبنا تنتج فى بلادنا . فحاول أن يخترع جهازا لاستخلاص عصير البلح واستخراج السكر والعسل منه - والنخل يكثر فى إقليمنا - وسمعت أن تجربته نجحت نجاحا عظيما ، إلا أن ما استخلصته من النقود كان أكثر من العصير . وبعد فترة انتهى إلى نتيجة وهى أن محاولاتنا لإحياء صناعاتنا تتعثر لحاجتنا إلى مصروف خاص بنا . وكان فى تلك الأثناء يحاول تعليمى الاقتصاد السياسى ، ولو اكتفى بذلك لما كان ثمة ضرر كبير ، ولكن نفسه حدثته أيضا أن يعلم مواطنيه فكرة الادخار حتى يمهد الطريق لقيام مصرف ، ثم أسس بالفعل مصرفا صغيرا ، كانت فائدته العالية التى جعلت القرويين يقبلون عليه لإيداع أموالهم سببا لإغراق المصرف نفسه .

(١) «السواديشى» : الحركة الوطنية وقد بدأت اقتصادية أكثر منها سياسة ، فكان غرضها الأساسى تشجيع الصناعات الوطنية . (المترجم) .

وشعر موظفو الإمارة المسنون بالقلق والذعر ، وهلل معسكر الأعداء فرحا ، ولم يظل على هدوئه فى الأسرة كلها غير جدة زوجى ، فكانت توبخنى قائلة : لماذا تضايقونه كلكم هكذا ؟ أهو مصير الإمارة الذى يزعجكم ؟ ما أكثر ما رأيت هذه الإمارة فى أيدى المحضرين ! هل الرجال كالنساء ؟

إن الرجال مسرفون بطبعهم ، ولا يعرفون إلا كيف يضيعون . يابنتى ! عدى نفسك سعيدة الحظ ؛ لأن زوجك لا يضيع نفسه أيضا !

وكانت مساعدات زوجى تملأ قائمة طويلة . فهو على استعداد لأن يبذل معونة حتى الفشل التام المر لكل من يريد أن يخترع نولا جديدا ، أو آلة جديدة لضرب الأرز . ولكن أشد ما ضايقنى هو طريقة « سنديب بابو » فى ابتزاز أمواله باسم حركة « السواديشى » . فكلما أراد أن ينشىء صحيفة ، أو يقوم برحلة للدعوة إلى القضية ، أو يغير الهواء عملا بنصيحة طبيب ، قدم زوجى إليه من المال دون تردد . هذا غير الراتب الذى كان « سنديب بابو » يتسلمه منه أيضا . وأعجب ما فى الأمر أن زوجى وسنديب بابو لم يكونا متفقين فى آرائهما .

ما كادت عاصفة « السواديشى » تمسك بدمى حتى قلت لزوجى : يجب أن أحرق كل ملابسى الأجنبية .

فقال : ولماذا تحرقينها ؟ يمكنك أن تتركى لبسها ما شئت .

– ما شئت ! لن يكون ذلك طول عمرى ..

– حسنا . لا تلبسيها بقية عمرك إذن . ولكن لماذا حكاية النار هذه ؟

– هل تمنعنى من تنفيذ ما عزمت عليه ؟

– الذى أريد أن أقوله هو هذا : لماذا لا تحاولين أن تبنى شيئا ؟ ينبغى ألا تضيعى ولو عشر طاقتك فى هذه الحماسة المدمرة .

– مثل هذه الحماسة تمنحنا الطاقة لنبنى .

كأنك تقولين : لا يمكنك أن تضىء المنزل إلا بأن تشعل فيه النار .

ثم كانت مشكلة أخرى . فعندما قدمت مس جلبى إلى منزلنا أول مرة كثر اللفظ ، ثم سكن حين تعودنا وجودها . والآن أثير الموضوع كله من جديد . ولم أكن قد شغلت نفسى من قبل بأن مس جلبى أوربية أو هندية ، ولكنى بدأت أهتم بذلك الآن . فقلت لزوجى : يجب أن نتخلص من مس جلبى .

فبقى صامتا .

وحدثته بعنف . فذهب حزين القلب .

وبعد نوبة بكاء شعرت بمزيد من الهدوء حين التقينا ليلا . وقال زوجى : إننى لا أستطيع أن أنظر إلى مس جلبى خلال ضبابة من المعانى المجردة لا لشىء إلا لكونها إنجليزية . ألا تستطيعين أن تدركى أنها تحبك ؟

وشعرت بشىء من الخجل . وأجبت ببعض الحدة :

– فلتبق . إننى لست شديدة الرغبة فى إخراجها .

وبقيت مس جلبى .

ولكنى سمعت ذات يوم أن شابا أهانها وهى فى طريقها إلى الكنيسة . وكنا نعول هذا الشاب ، فطرده زوجى من المنزل . ولم يستطع أحد يومها أن يغفر لزوجى ذلك العمل – حتى ولا أنا . وفى هذه المرة ذهبت مس جلبى من تلقاء نفسها ، وبكت حين جاءت تودعنى ، ولكنى بقيت جامدة . هذا التشنيع بالفتى المسكين ! وأى فتى ! فتى ينسى حمامه وطعامه فى حماسته « للسواديشى » .

ورافق زوجى مس جلبى فى عربته الخاصة إلى محطة السكة الحديدية . وأيقنت أنه يجور ولا يقتصد ، وعندما رويت هذه الحادثة روايات مبالغا فيها وأثارت فضيحة عامة وصلت إلى الصحف ، شعرت أنه قد لقى جزاءه الذى يستحقه .

لقد طالما أقلقتنى أعمال زوجى ، ولكنى لم أستح منها قط من قبل ، أما الآن فقد وجب على أن أحمر خجلا من أجله ! وما كنت أعرف بالضبط أى إساءة ألحقها « نورين » المسكين أو لم يلحقها بمس جلبى ، ولا كنت أبالى بذلك ، ولكن كيف الجلوس للقضاء فى مثل هذا الأمر ؟ فى مثل هذا الوقت ! ما كان ينبغى كبح الروح التى دفعت نورين الشاب إلى تحدى المرأة الإنجليزية . ولم أستطع أن أرى فى عجز زوجى عن فهم هذا الأمر اليسير إلا علامة جبن . ولهذا خجلت له .

على أن زوجى لم يكن يرفض تأييد « السواديشى » ولا يناهض القضية بوجه من الوجوه ، وإنما كان غير مقتنع كل الاقتناع بروح « باندى ماترم » [(١)] كان يقول :

– إننى أريد أن أخدم بلادى ، ولكننى لا أعبد إلا الحق ، وهو أعظم من بلادى كثيرا ، ولئن اتخذت بلادى إلهاً أعبده لأجلبن عليها لعنة .

(١) « باندى ماترم » معناها الحرفى : حبيت يا أمى ، وهذه الكلمات هى مطلع أغنية للروائى البنغالى بانكيم تشاترجى ، وقد أصبحت الأغنية هى النشيد الوطنى الآن » . و« باندى ما ترم » هى الهتاف منذ أيام حركة « السواديشى » . (المترجم) .

الفصل الثانى

حكاية بيمالا

- ٤ -

فى ذلك الوقت جاء سنديب بابو مع أتباعه إلى منطقتنا لينشر دعوة « السواديشى » .

تقرر أن يعقد اجتماع كبير فى بهو المعبد . نحن النساء جالسات هناك فى جانب ، خلف ستارة . صيحات « باندى ماترم » الظافرة تقترب ، فتبعث فى جسدى رعشة شاملة . فجأة يندفع إلى الساحة المستطيلة سيل من الشباب حفاة الأقدام لابسى العمائم وعليهم لباس الزهد الأصفر ، كما يندفع سيل محمل بالطمى الأحمر إلى مجرى النهر الجاف لأول دفقة من الأمطار . ويمتلىء المكان كله بحشد عظيم يحمل فى وسطه سنديب بابو جالسا على كرسى كبير ترفعه أكتاف عشرة أو اثنا عشر من الشباب .

« باندى ماترم ! باندى ماترم ! باندى ماترم ! » .

لكأن السموات توشك أن تنشق وتتناثر ألف قطعة .

وكنت قد رأيت صورة سنديب بابو من قبل . كان فى قسمات وجهه شىء لم أسترح إليه . لست أعنى أنه كان دميم الخلقة ، بل على العكس ، كان وجهه وسيما ، ولكن بدا لى - لسبب لا أدريه - أن كثيرا من الشوائب الخسيسة تدخل فى تكوين هذا الوجه بالرغم من كل بهائه . لأمر ما كان النور فى عينيه لا يبدو صادقا . ولهذا كنت غير راضية عن خضوع زوجى لجميع مطالبه . لم يشق على ضياع المال ، ولكن غاظنى التفكير فى أنه يحتال على زوجى مستغلا صداقته . ولم يكن مظهره مظهر زاهد ولا رجل متوسط الحال ، بل كان متأنقا فى كل شىء . وكأنما حب النعيم .. أن مثل هذه الخواطر تتوارد علىّ اليوم بكثرة ، ولكن لندعها حيث هى .

غير أني رأيت سنديب بابو ينقلب رجلا آخر حين بدأ يخطب عصر ذلك اليوم وقلوب الجمع تموج وتندفع لكلماته . وكأنها تريد أن تكسر كل الحواجز . لاسيما حين أضاء قسماته شعاع من الشمس التي كانت تدلف ببطء إلى مغربها ، وقد انحدرت عن سقف البهو ، فقد خيل إلى أن الآلهة اختارته رسولا إلى بني الموت وبناته .

كانت كل جملة من جمله من بدء خطبته إلى نهايتها عاصفة منفجرة ، وكانت ثقته بما يؤكده لا حد لها . وإذا بي لا أتمالك أن أزيح الستارة من أمامي وأثبت نظري عليه ، لا أدري كيف حدث ذلك ، ولكن لم يكن في الجمع من يراعي أفعالي . مرة واحدة لاحظت أن عينيه أخذتا وجهي بوميضهما كنجوم الجبار[1] .

فقدت كل وعي بنفسي . لم أعد سيدة بيت الراجا بل كنت ممثلة نساء البنغال وحدي ، وكان هو بطل البنغال . وكما أسبغت السماء عليه نورها يجب أن تقدسه بركة امرأة ..

بدا لي واضحا أنه منذ وقع بصره عليّ زادت كلماته اشتعالا . لقد أبى جواد أندرا[2] أن يمسكه عنان ؛ فكان زئير الرد ووميض البرق . وقلت في نفسي إن لغته اشتعلت نارا من عيني ؛ فنحن النساء لسنا ربات نار المنزل فحسب بل شعلة الروح ذاتها .

عدت إلى البيت في ذلك المساء متألقة بكبرياء جديدة وفرح جديد . إن العاصفة التي ثارت في باطني نقلت كياني كله من مركز إلى آخر . وكعذارى الإغريق في القديم وددت لو أقطع خصلات شعري الطويلة اللامعة لأصنع منها وترا لقوس بطلي . ولو كانت حلاي موصولة بمشاعري الباطنية لكسرت قلادتي وأساوري قيودها وترامت على الجمع كشؤبوب من الشهب ، فقد شعرت أني لا أستطيع احتمال فورة حماستي إلا بأن أضحي تضحية ما .

وعندما عاد زوجي إلى البيت بعد ذلك كنت أرتجف خشية أن يبدر منه صوت ناشز عن أنشودة النصر التي كانت لا تزال ترن في أذني . أن يدعوه تعصبه للحق إلى

(١) « الجبار » اسم لنجوم الجوزاء (Orion) « لأنها بصورة ملك متوج على كرسي » (التاج) – المترجم .

(٢) كبير الآلهة وإله السماء والمطر في الميثولوجيا الهندية ، ويقابل زوس عند اليونان وجوبيتر عند الرومان (المترجم) .

استنكار شيء مما قيل في ذلك الأصيل . فلو فعل لجابهته بالتحدى والإهانة ، ولكنه لم يقل كلمة واحدة .. وساءنى ذلك أيضا .

كان ينبغى أن يقول : لقد أعادنى سنديب إلى صوابى . إننى أعلم الآن كم كنت مخطئا طوال هذا الوقت .

وشعرت كأنه يريد أن يغيظنى بصمته ، ويصر على ألا يتحمس . فسألته : إلى كم سيبقى سنديب بابو معنا؟ فقال زوجى : إنه راحل إلى رانجبور فى بكرة الغد .

– هل يحب أن يرحل غدا ؟

– نعم ، فقد وعد بأن يخطب هناك .

وصمت برهة ، ثم سألته ثانية :

– ألا يمكنه أن يبقى يوما آخر ؟

– قد لا يكون ذلك ميسورا . ولكن لماذا ؟

– أريد أن أدعوه للغداء وأخدمه بنفسى .

فدهش زوجى . إنه كثيرا ما رجانى أن أحضر حين يدعو بعض أصدقائه للغداء ، ولكنى لم أوافقه قط على ذلك . تأملنى دهشا ، صامتا ، بنظرة لم أفهمها جيدا .

وفجأة غلبنى شعور بالخزى . فصحت : لا ، لا ، هذا لن يكون !

فقال : لم لا ؟ سأسأله ذلك بنفسى ، وإن كان ممكنا فسيبقى ولا شك إلى الغد .

وقد ظهر أن الأمر ممكن جدا .

سأقول الحقيقة كما هى . فى ذلك اليوم عاتبت خالقى ؛ لأنه لم يجعلنى فائقة الجمال ، لا لأسلب قلبا بل لأن الجمال مجد . فى ذلك اليوم العظيم يجب أن تتمثل روح الوطن لرجاله فى صورة امرأة . ولكن عيون الرجال – وا أسفاه ! يعجزها أن تبصر الروح ، أن لم تبصر الجمال . ترى هل يبصر سنديب بابو فى روح الوطن ظاهرة ؟ أم يحسبنى امرأة بيت عادية فقط ؟

فى ذلك الصباح طيبت شعرى المسترسل وعقدته عقدة مسترخية يمسكها شريط حريرى أحمر بارع الضفر . فقد كنا على وشك أن نقدم الغداء ظهرا ، ولم يكن فى

الوقت متسع لأجفف شعرى بعد الحمام وأضفره بالطريقة العادية . وارتديت ساريا مذهب الحاشية ، وكانت سترتى الحريرية القصيرة الكمين مذهبة الحاشية أيضا .

وشعرت أن فى ملبسى نوعا من الاحتشام . وأنه أبسط ما يمكن ، ولكنى سلفتى مرت بى مصادفة وإذا هى تقف أمامى جامدة وتتأملنى من فرعى إلى قدمى وتبتسم ابتسامة ذات معنى وهى تضغط على شفتيها . ولما سألتها عن سبب ذلك قالت : إنى معجبة بزينتك !

فسألتها بضيق شديد : وماذا يطربك منها ؟

فقالت : إنها بديعة . ولو لبست إحدى تلك الصدريات الإنجليزية القصيرة العنق لكملت .

وتركت الحجرة وجسمها كله - لا فمها وعيناها فقط - يتموج بضحك مكتوم .

واشتد غضبى جدا ، وأردت أن أبدل ثيابى كلها وألبس ملابسى العادية . ولكنى لا أدرى على التحديد لماذا لم أستطع أن أنفذ هذه الفكرة ؟! لقد قلت لنفسى : إن النساء زينة المجتمع ، ولن يسر زوجى أن ظهرت أمام سنديب بابو بملابس غير لائقة .

وكانت فكرتى أولا أن أجعل قدومى عليهم بعد جلوسهم للغداء ، فيذهب خجل اللقاء الأول فى ضجة الإشراف على تقديم الطعام . ولكن الغداء لم يكن جاهزا فى وقته ، ومر زمن ، وفى هذه الأثناء أرسل زوجى فى طلبى ليقدمنى إلى ضيفه .

كنت شديدة الحياء من النظر إلى وجه سنديب بابو ، ولكننى استطعت أن أتماسك بحيث قلت : يؤسفنى أن الغداء تأخر .

فأقبل علىّ فى جرأة وجلس بجانبى وهو يجيب : إننى أتناول غداء ما كل يوم ، ولكن ربة الخير تظل محتجبة . أما وقد ظهرت الربة نفسها فلا ضير أن تأخر الغداء .

كان فى مسلكه ، كما كان فى خطابته ، حازما لا يتردد ، وكأنه تعود أن يحتل - غير مزاحم - مقعده المختار . وكان يدعى حق الألفة بثقة تجعل اللوم أشبه بأن يقع على أولئك الذين ينكرون عليه هذا الحق .

وكنت خائفة أن يحسبنى سنديب بابو حزمة هيابة من تفاهة الطراز القديم . ولكنى لم أستطع - وإن جهدت - أن أتألق فى أجوبة تسحره أو تبهره . وسألت نفسى حانقة : ماذا أصابنى حتى أبدو أمامه فى هذا المظهر السخيف ؟

وهممت بالانصراف حين انتهى الغداء ، ولكن سنديب بابو اعترض طريقى بجسارته التى لا تزايله وقال :

- لا تحسبنى طفيليا . ليس الغداء هو الذى أبقانى بل دعوتك . وإذا رغت الآن فلن لتكونى عادلة مع ضيفك .

ولو لم يقل هذه الكلمات بيسر وانطلاق لبدت ناشزة . على أن صداقته الحميمة لزوجى كانت تجعلنى كأخته .

وبينما كنت أجاهد لأصعد على هذه الموجة العالية من الألفة أقبل زوجى لنصرتى قائلا : هل تعودين إلينا بعد أن تتناولى غداءك !

قال سنديب بابو : ولكنك يجب أن تعدى قبل أن نتركك تذهبين .

فقلت بابتسامة خفيفة : سآتى .

ومضى سنديب بابو يقول : سأقول لك لماذا لا أستطيع أن أصدقك . لقد مضت تسعة أعوام على زواج نيكهيل وأنت تروغين منى ، وإن مضيت تفعلين ذلك تسعة أعوام أخرى فلن نلتقى أبدا .

وجاريته فى معناه فخفضت صوتى مجيبة : ولماذا لا نلتقى حتى إن حدث ذلك ؟

- حساب نجمى يقول إنى سأموت فى عمر مبكر . ولم يعش أحد من أجدادى بعد الثلاثين ، وأنا الآن فى السابعة والعشرين .

كان يعلم أن هذه الكلمة ستصيب الهدف ، ولابد أن ظلا من الغم بدا فى صوتى هذه المرة وأنا أقول : لاشك أن بركات البلاد كلها ستدفع سوء تأثير النجوم .

كانت لسنديب بابو طريقة فى أخذ الأمور أخذ عزيز مقتدر ، حتى إنى لم أجد فرصة لاستنكار ما لم أكن لأسمح به من آخر .

وختم كلامه ضاحكا : إذن فسأبقى زوجك هذا رهينة حتى تعودى .

وفيما كنت خارجة نادانى : هل لى أن أثقل عليك بطلب صغير ؟

فاستوفزت والتفت . قال : لا تنزعجى ، إنه كوب ماء فقط . لعلك لاحظت أنى لم أشرب على الغداء . إنى أشرب بعده بقليل .

وكان على إزاء ذلك أن أظهر الاهتمام وأسأله عن السبب . فبدأ يروى تاريخ مرضه بسوء الهضم ، وعرفت كيف عذبه المرض سبعة أشهر ، وكيف أنه بعد المضايقات الطويلة المألوفة التى شملت أنواعا من العلاج الآلوپاثى والهوميوپاثى بغير فائدة ، حصل على نتائج رائعة من المواصفات البلدية . وأضاف مبتسما :

- هل تعلمين أن الله قد جعل على نفسها بحيث لاتستسلم إلا لمهاجمة حبوب « السوانيشى » ؟

وهنا خرج زوجى عن صمته قائلا :

- يجب أن تعترف بأن فيك جاذبية للعقاقير الأجنبية كجاذبية الأرض للشهب . إن فى حجرة جاوسك ثلاثة أرفف مليئة بالـ .. فقاطعه سنديب بابو :

- أتدرى ما هى ؟ إنها الشرطة التى تعاقبنا . تأتى لا لأننا نريدها بل لأن حكم هذا العصر الحديث يفرضها علينا لتغرمنا وتعذبنا .

لم يكن زوجى يطيق المبالغات ، وقد استطعت أن أرى عدم رضاه عن هذه . ولكن كل التحليات مبالغات لم يصنعها الله بل صنعها الإنسان . وأذكر أنى قلت لزوجى مرة دفاعا عن شىء قلته مخالف للحقيقة : لا يقول الحقائق الصريحة إلا الأشجار والوحوش والطيور ، لأن هذه الأشياء المسكينة ، لا قدرة لها على الاختراع ، وفى هذا يظهر الإنسان تفوقه على المخلوقات الدنيا ، وتبز النساء الرجال . فلا يعيب المرأة مبالغتها فى التزين ولا مبالغتها فى الخروج عن الحقيقة .

لما بلغت الدهليز المؤدى إلى « الزينانا » وجدت بسلفتى واقفة قرب نافذة تطل على جناح الاستقبال وهى تنظر من الخصاص .

فسألت دهشة : أنت هنا ؟

فأجابت : أسترق السمع !

- ٥ -

عندما عدت كان سنديب بابو رقيقا فى اعتذاره ، قال : أخشى أن نكون قد أفسدنا شهيتك .

وشعرت بخجل شديد . فالواقع أنى انتهيت من طعامى بسرعة لا تليق ، وكان من الواضح بتقدير يسير أن انصرافى عن الأكل كان أكثر من إقبالى عليه ، ولكن لم يخطر ببالى أن ثمة من يعنى بتقدير ذلك .

ولعل سنديب بابو شعر بخجلى ، ولكن ذلك لم يزدنى إلا خجلا ، فقد قال : كنت واثقا أن لك اندفاع الظبية النافرة إلى الهرب ، ولكنى أجد اهتمامك بالمحافظة على وعدك لى نعمة كبيرة .

ولم أستطع أن أفكر فى جواب مناسب ، فجلست مرتبكة خجلى على أحد طرفى الأريكة . وتخلت عنى صورة نفسى كما تخيلتها ، صورة « روح » المرأة المتجسدة ، أتوج سنديب بابو بحضورى وحده ، فى بهاء الملك وبلا خجل .

وتعمد سنديب بابو أن يبدأ مناقشة مع زوجى . فقد كان يعلم أن بداهته تتألق فى المناقشة ، وكثيرا ما لاحظت بعد ذلك أنه لا يضيع فرصة للدخول فى مبارزة كلما كنت حاضرة .

وكان يعرف آراء زوجى فى عقيدة « باندى ماترم » فبدأ يقول مستثيرا : إذن فأنت لا تسلم بأن هناك مجالا لمخاطبة الخيال فى العمل السياسى ؟

- إن للخيال مكانا ياسنديب ، أسلم بذلك ، ولكنى لا أومن بإعطاء المجال كله للخيال . إننى أريد أن أعرف بلادى على حقيقتها الصريحة ، ولذلك أخاف أن أستخدم العبارات الوطنية المغناطيسية ، وأخجل من ذلك .

- ما تسميه أنت العبارات المغناطيسية أسميه أنا الحقيقة . فأنا أومن حقا بأن بلادى هى إلهى . إننى أعبد الإنسانية ، والله يتجلى فى وطن الإنسان كما يتجلى فى الانسان .

– إن كان هذا ما تعتقده حقا فينبغى ألا يكون عندك فرق بين إنسان وإنسان ولا بين وطن ووطن .

– هذا حق . ولذلك فإن تقديسى لبلادى استمرار لتقديسى للإنسانية .

– إننى لا أعترض على تقديسك فى حد ذاته ، ولكنى أريد أن أسألك كيف يمكنك أن تعبد الله بكرهك لبلاد أخرى يتجلى الله فيها كما يتجلى فى بلادك ؟

– الكرة أيضا قرين العبادة . لقد نال أرجونا رضاء ماهاديفا [١] حين صارعها . وسيكون الله معنا آخر الأمر إذا عزمنا على حربه .

– إن كان الأمر كما تقول فإن من يخدمون البلاد ومن يسعون فى ضررها سواء فى عبادة الله . فلماذا إذن تتجشم الدعوة إلى الوطنية ؟

– الحال غير ذلك بالنسبة إلى وطن المرء . فهنا يطلب القلب العبادة ولا ريب .

– إذا مضيت مع هذا المنطق فيمكنك أن تقول إن « ذاتنا » يجب أن تعبد قبل أى شىء آخر ، لأن غريزتنا الطبيعية تطلب ذلك ، والله يتجلى فينا .

– كلا يا نيكهيل ، إن هذا كله ليس إلا المنطق الجاف . ألا تسلم بأن هناك شيئا اسمه الشعور .

فأجاب زوجى : أقول لك الحق ياسنديب أن شعورى هو الذى يثور كلماحاولت أن تجعل الظلم واجبا ، والشر مقالا أخلاقيا . إن عجزى عن السرقة لا يرجع إلى قدراتى المنطقية بل إنى أشعر باحترام لنفسى وحب للمثل العليا .

كان باطنى فى ثورة ، وأخيرا لم أستطع أن أبقى صامتة ، فصحت : أليس تاريخ كل بلد سواء أكان إنجلترا أم فرنسا أم ألمانيا أم روسيا هو تاريخ سرقة من أجل بلادهم .

– هم مسئولون عن سرقاتهم ، وأنهم ليسألون عنها الآن ، فتاريخهم لم ينته بعد .

فقاطعنا سنديب بابو قائلا : لماذا لانحنو حنوهم على كل حال ؟ فلنملأ خزائن

(١) «أرجونا » فى الأساطير الهندية القديمة : ابن أندرا ، وأحد أبطال المهابهاراتا ، والبطل الرئيسى فى قسم من الملحمة يسمى بهاجاقاد جيتا . « ومهاديفا » إحدى زوجات شيفا ، وهى تمثل قوته المدمرة (المترجم) .

بلادنا بالبضائع المسروقة أولا ثم لتمض القرون حتى نسأل عنها مثل سائر البلاد إن كان لابد من ذلك . ولكنى أسألك : أين تجد هذا « السؤال » فى التاريخ ؟

– عندما كانت روما تسأل عن أثمها لم يكن أحد يعلم أنها تسأل ، ففى ذلك الوقت لم يكن يبدو أن لرخائها حدودا . ألا ترى أمرا واحدا : أن حقائبهم السياسية تتقطع بالأكاذيب والخيانات وتكسر ظهورهم بأوزارها .

لم تكن قد أتيحت لى الفرصة من قبل أن أشهد مناقشة بين زوجى وأصدقائه الرجال . كنت أشعر كلما جادلنى أنه يكره أن يلزمنى الحجة ، ولم يكن لذلك من سبب إلا حبه لى . واليوم رأيت لأول مرة حذقه فى التبارز بالأفكار .

ولكن قلبى أبى أن يقبل نظرة زوجى . فكنت أجاهد لأجد جوابا ما ، ولكن الجواب لايريد أن يجىء . فعندما تأتى كلمة « الخيرية » فى مناقشة فإنك تستبشع القول بأن من الأشياء ما يمكن أن تحول خيريته دون منفعته .

وفجأة التفت سنديب بابو إلىّ سائلا : ما رأيك « أنت » فى هذا ؟ فانفجرت قائلة : إننى لا أبالى بالحدود المنطقية الدقيقة . سأقول لكما ما أشعر به على سعته وعمومه . أنا لست إلا كائنا بشريا . أنا ذات أطماع . أنا أريد الطيبات لبلادى ، فإذا اضطررت فسوف أنتزعها وسوف أختلسها . أنا عندى الغضب ، وسأغضب من أجل بلادى ، وإن لم أجد بدًّا فسأضرب وأذبح ثأرا لشرفها. أنا عندى رغبتى فى أن أسحر ، ويجب أن أجد السحر متجسدا متمثلا فى بلادى ، ويجب أن يكون لها رمز منظور يلقى سحره على عقلى . فسأجعل بلادى شخصا وأدعوها أما وربة و « درجا »[1] . أخضب الأرض بالضحايا قرابين لها . أنا كائن بشرى ، لست كائنا قدسيا .

هب سنديب بابو رافع الذراعين وصاح : هورا !

وبعد لحظة استدرك صائحا : باندى ماترم !

وعبرت وجه زوجى سحابة ألم . وقال بصوت رفيق رقيق :

(١) إلهة الحرب فى الأساطير الهندية القديمة ، بعد العصر الفيدى . وتصور – برغم قسوتها – ذات وجه رقيق (المترجم) .

– ولا أنا كـائن قـدسي . أنا بشـر ، ولهـذا لا أسـمح للشـر الذى فى نفسـى أن يتضخم حتى يصبح صورة لبلادى – أبدا . أبدا !

وصـاح بسنديب بابو : انظر يا نيكهـيل كيف يكتسى الحق فى قلب المرأة لحمـا ودما . إن المرأة تعرف كيف تكون قاسية . حقدها كعاصفة عمياء ، جميل مرعب . أما فـى الرجل فقبيح ، لأنه ينطـوى على ديدان العـقل والتفـكير التى تنـخز . أقول لك يا نيكهيل إن نسـاءنا هن اللاتى سينقـذن البـلاد . ليس هـذا وقت التشكك والتـورع . يجب أن نكون قسـاة فى غيـر تردد ولا تفكيـر . يجب أن نعطى نسـاءنا دهان خشب الصندل الأحمر ليمسحن خطأنا ويمجدنه . ألا تذكر ما يقوله الشاعر :

« تعالى أيتها الخطيئة ، أيتها الخطيئة الجميلة ،

لتسكب قبلاتك الخمر خمرا حمراء مشتعلة فى دمائنا .

انفخى فى بوق الشر القاهر .

واضفرى على جبيننا إكليل العسف المنتشى .

يا إلهة الدنس .

لطخى صدورنا بوحل العار ، ولا تخجلى » .

لتسقط تلك الخيرية التى لاتستطيع أن تنزل الهلاك والدمار وهى باسمه !

عندمـا وقف بسنديب بابو رافع الرأس يهـزأ فى لحظة اندفـاع بكل مـا اعتـز به البشر فى كل بلد وفى كل عصر – وعدوه أثمن ما يملكون – سرت فى جسـدى رعدة . ولكنه مضى فى خطابه وهو يدق الأرض بقدمه :

– إنى لأراك هذا الروح النارية الجميلة التى تحـرق البيت رمادا وتضىء العـالم الأكبر بلهبها . امنحينا الشجاعة التى لا تغلب لنذهب ، إلى قاع الدمار نفسه . ابعثى الجمال فى كل ما يهلك .

لم يكن واضحا من التى عناها بسنديب بابو بخطابه الأخير.

لعلهـا تلك التى دعاها حين هتف « باندى مـاترم » ، أو لعلهـا المرأة فى بلاده ، أو لعلها تلك التى تمثلها ، وهـى المرأة التى أمـامه . وكان مـاضيا على هـذه الوتيرة لولا أن

زوجي نهض عن كرسيه فجأة ولمس كتفه برفق قائلا : بسنديب ، إن تشاندراناث بابو هنا .

فاستوفزت والتفت ، لأجد سيدا شيخا بالباب ، سيماه الهدوء والوقار ، يتردد بين الدخول والانصراف . وكان يضيء وجهه نور لطيف كنور الشمس الغاربة .

واقترب زوجي مني وهمس : هذا أستاذي الذي حدثتك عنه كثيرا . حييه .

فانحنيت خاشعة ومسحت التراب عن قدميه . وباركني قائلا :

– رعاك الله دائما يا أمي الصغيرة .

شد ما كنت محتاجة إلى مثل هذه البركة في تلك اللحظة !

حكاية نيكهيل

- ١ -

كان إيمانى بحيث اعتقدت يوما أنى قادر على تحمل كل مايأتى به ربى . ولم أتعرض قط للمحنة . أما الآن فأظنها جاءت .

وتعودت أن أختبر قوة نفسى بتخيل كل الشرور التى يمكن أن تنزل بى ، الفقر ، والسجن ، والعار ، والموت – حتى موت بيمالا . وعندما كنت أقول لنفسى إنى قادر على أن أتلقاها صابرا لم أكن أبالغ . إنى لعلى يقين من هذا ، إلا أن ثمة شيئا واحدا لم أستطع أن أتخيله قط ، وهأنذا أفكر فيه اليوم ، وأسأل نفسى : ترى هل أستطيع أن أتحمله حقا ؟ ثمة شوكة فى موضع ما تخز قلبى ، وتؤلمنى ألما مستمرا وأنا فى عملى اليومى .

بل كأنى بها لا تكف حتى فى نومى . ولا أكاد أستيقظ فى الصباح حتى أرى البهاء قد ذهب من وجه السماء ... فما الأمر ؟ ما الذى حدث ؟

لقد بلغ من حساسية فكرى أن حياتى الماضية نفسها تبدو وكأنها تعصر قلبى بزيفها ، وهى التى جاءتنى متنكرة فى لبوس السعادة ، وأن العار والحزن اللذين يدنوان منى يفقدان غطاء السر بقدر ما يحاولا أن يحجبا وجهيهما . لقد أصبح قلبى كله عيونا . والأشياء التى ينبغى ألا ترى ، الأشياء التى لا أريد أن أراها هذه يجب أن أراها .

جاء اليوم أخيرا ليصبح لزاما على حياتى المنكودة أن تكشف عن فقرها فى سلسلة طويلة من الكشوف . واحتل هذا العوز غير المنتظر مكانه فى القلب الذى كان يبدو أن الامتلاء يسوده . ووجب أن يرد الأجر الذى دفعته للوهم تسع سنين من شبابى – وجب أن يرد مع أرباحه إلى الحقيقة حتى آخر أيام حياتى .

ما جدوى الجهد فى المحافظة على كبريائى ؟ وأى ضير فى أن أعترف بأن شيئا ما يعوزنى ؟ لعله هو تلك القوة غير المنكرة التى يحبها النساء فى الرجال . ولكن هل القوة مجرد عرض للقوة العضلية ؟ هل يجب ألا تتورع القوة عن وطء الضعفاء تحت الأقدام ؟

ولكن لم كل هذا الجدل ؟ إن الجدارة لا تنال بمجرد المناقشة فيها ، وأنا خلو من الجدارة ، خلو من الجدارة ؟ خلو من الجدارة .

وماذا إن كنت خلوا من الجدارة ؟ إن قيمة الحب الحقة هى أنه يستطيع دائما أن ينعم بسخائه على غير الجدير . فللجدارة مكافآت كثيرة على الأرض ، ولكن الله خص بالحب المساكين .

حتى اليوم كانت بيمالا هى ربيبة البيت ، نتاج المكان المحصور والواجبات اليومية الصغيرة الرتيبة ، وكنت أسأل نفسى : هل يأتى الحب الذى تبذله لى من ينبوع قلبها العميق ، أو لايعدو أن يكون كالتموين اليومى من ماء الأنابيب الذى تدفعه مضخة المجتمع البخارية العامة .

وكنت أتوق إلى رؤية بيمالا تزدهر وتتفتح بكل حقيقتها وقوتها . لكن الشىء الذى غاب عن حسبانى هو أن المرء يجب أن يتخلى عن كل حق مبنى على العرف إذا أراد أن يجد شخصا يتجلى بحرية فى الحقيقة .

لماذا فاتنى التفكير فى ذلك ؟ أهو اعتزاز الزوج بسلطانه على زوجته ؟ لا . إنما السبب أنى وضعت غاية ثقتى فى الحب . كنت من الغرور بحيث ظننت أنى أستطيع احتمال منظر الحقيقة فى قبحها المخيف . كنت أناوش القدر ، وإن بقيت متشبثاً بعزمى الواثق على أن أخرج من المحنة ظافرا .

لقد عجزت بيمالا عن أن تفهمنى فى أمر واحد . لم تستطع أن تدرك جيدا أنى أرى كل فرض للقوة ضعفا . فالضعفاء وحدهم هم الذين لا يجرؤون على أن يعدلوا . إنهم يهربون من مسئوليتهم أن يكونا منصفين ، ويحاولون أن يصلوا سريعا إلى ما يبتغون باقتحام طرق الظلم المختصرة . وبيمالا لا تصبر على الصبر ، فهى تحب فى الرجال الاحترام والغضب والظلم ، واحترامها لابد أن يدخل فيه عنصر الخوف .

وكنت آمل أن تنجو بيمالا من فتنتها بالاستبداد حين تجد نفسها حرة فى العالم الخارجى . ولكننى أشعر الآن أن هذه الفتنة مستقرة فى أعماق طبيعتها . للعنيف حبها . من طرف لسانها إلى أعماق معدتها يجب أن تحس لذعة الفلفل الأحمر حتى تستمتع بطعام الحياة العادى . ولكنى كنت مصمما ألا أؤدى واجبى أبدا باندفاع المتعصب ، ولا أستعين عليه بخمر الحماسة النارية . وأنا أعلم أن بيمالا يصعب عليها أن تحترمنى لذلك، فهى تعد تورعى ضعفا ، وهى غاضبة علىّ جدا ؛ لأنى لا أجرى كالمجنون صائحا : « باندى ماترم » .

والحق أني أصبحت مكروها من جميع مواطني ؛ لأني لم أشاركهم في نشوتهم الصاخبة . فهم واثقون أني أما طامح إلى لقب ما أو خائف من الشرطة . أما الشرطة فيشكون في أني أضمر خطة ما ، وأقيم بهدوئي معارضة شديدة .

أما الذي أشعر به حقا فهو أن الذين لا يجدون في معرفة وطنهم على حقيقته غذاء كافيا لحماستهم ، أو الذين لا يستطيعون أن يحبوا الناس لكونهم ناسا فقط ويجدون لزاما عليهم أن يصيحوا ويؤلهم بلادهم ليحافظوا على حماستهم – أولئك يحبون الحماسة أكثر مما يحبون بلادهم .

أن نقدم الهوى على الحق مظهر لعبودية راسخة . فنحن نشعر بالضياع ؛ حيث تكون عقولنا حرة . وحيويتنا المحتضرة يجب أن تكون ركوبة إما لخيال وإما لصاحب سلطان وإما لفتوى من الفقهاء كيما تتحرك . وما دمنا صمًا عن الحق لا نتحرك إلا بدافع مغناطيسي فيجب أن نعلم أننا عاجزون عن حكم أنفسنا ، فنحن محتاجون – مهما تكن حالتنا – إما إلى شبح موهوم وإما إلى دجال حقيقي ليكون هو القاهر فوقنا .

بالأمس حين اتهمني سنديب بانعدام الخيال قائلا : إن ذلك يمنعني أن أتصور بلادي في صورة محسوسة ، وافقته بيمالا . ولم أدافع عن نفسي بشيء ؛ لأن الغلبة في الجدال لا تؤدي إلى السعادة . واختلافها عني في الرأي لا يرجع إلى تفاوت في الذكاء بل على الأصح إلى تغاير في الطبع .

يتهموني بأني عديم الخيال . أي أنني – على قولهم – قد يكون في مصباحي زيت ولا شعلة . وهذا بالضبط هو ما أتهمهم به . فأنا أود أن أقول لهم : أنتم سود كالصوان ، يجب أن تتصادموا وتصخبوا لتعطوا شرارتكم . ولكن وميضها المتقطع لا ينير بصائركم ولا يسند إلا كبرياءكم .

وقد كنت ألاحظ منذ زمن أن في سنديب جشعا فظيعا ، وأن مشاعره الجسدية تجعله يحتضن أوهاما عن دينه ، وتدفعه إلي موقف مستبد في وطنيته . إنه حاد الذكاء ولكنه غليظ الطبع ، فهو يمجد شهواته الأنانية بأن يخلع عليها أسماء طنانة . والتعزي الرخيص بالبغضاء ضروري له كضرورة إشباع شهواته . وقد طالما حذرتني بيمالا في ماضي الأيام من حبه الشديد للمال ، وكنت أفهم ذلك ، ولكني لم أسترح إلى الوقوف موقف المساومة من سنديب ، وخجلت أن أعترف – ولو لنفسي – بأنه يستغلني .

ولكن من العسير أن أشرح لبيمالا اليوم أن حب سنديب للوطن ليس إلا طورا آخر من حبه لذاته ، ذلك الحب الذى يجعله نهما طمعا . وعبارة البطولة التى تبديها بيمالا لسنديب تزيدنى ترددا إزاء الحديث معها عنه ، أن يقودنى شىء من الغيرة إلى المبالغة دون أن أدرى . لعل الألم فى قلبى جعلنى أرى سنديب فى صورة مشوهة فعلا . ومع ذلك فقد يكون التصريح خيرا من أن أبقى مشاعرى تنخر فى باطنى .

- ٣ -

عرفت أستاذى هذه السنوات الثلاثين . لا الشنعة تخيفه ولا المصيبة ولا الموت نفسه . ما كان يمكن أن ينقذنى شىء وأنا الذى و لدت فى تقاليد أسرتنا هذه لو لم يقم حياته بما لها من السلام والحق والبصيرة فى مركز حياتى فمكننى أن أعرف الطيبة بالحق .

جاءنى أستاذى فى ذلك اليوم وقال : أمن الضرورى استبقاء سنديب هنا مدة أطول ؟

كان طبيعته حساسة لكل نذر الشر . بحيث فهم على الفور . وكان قليلا ما يتأثر ، إلا أنه شعر فى ذلك اليوم بظل المتاعب الأسود أمامنا . ألست أعرف كم يحبنى ؟

فقلت لسنديب على الشاى : لقد تلقيت رسالة من رانجبور . إنهم يشكون لأننى أستبقيتك أنانية منى . متى تذهب إلى هناك ؟

وكانت بيمالا تصب الشاى ، فإذا هى تطرق ، إلا أنها ألقت نظرة واحدة متسائلة إلى سنديب . وقال سنديب : كنت أفكر فى أن هذا التجوال هنا وهناك معناه ضياع مخيف للجهد . إنى أشعر بأن عملى من مركز ما يمكن أن يحقق نتائج أبقى .

وهنا نظر إلى بيمالا وسأل : ألا توافقينى على هذا الرأى ؟

وترددت بيمالا فى الجواب ثم قالت : كلتا الطريقتين تبدو صالحة : اتخاذ مركز للعمل ، والتجول فى البلاد . وأصلحهما لك هى أقربهما إلى نفسك .

فقال سنديب : إذن أقول ما فى فكرى . إننى لم أجد قط مصدرا واحدا للالهام يكفينى إلى الأبد . وهذا ما جعلنى لا أكف عن الترحال ، أستثير حماسة الناس ، وأستمد منهم - بدورى - ذخيرتى من الطاقة . وأنت اليوم أعطيتنى رسالة بلادى ، فما رأيت قط مثل هــذه النار فى رجل . وسأكون قادرا على أن أنشر نار الحماسة

فى بلادى حين أستعيرها منك . لا ، لا تخجلى . أنت فوق كل حياء وكل تهيب . أنت ملكة النحل فى خليتنا ، ونحن العملة ، سنجتمع حولك . ستكونين مركزنا ووحينا .

فاحمر وجه بيمالا كله بكبرياء خجول ، واهتزت يدها وهى لا تزال تصب الشاى .

وجاءنى أستاذى يوما آخر وقال لى : لماذا لا تذهبان إلى دار جيلنج لتغيير الهواء ؟ إنك تبدو متعبا . هل تنال قسطك من النار ؟ وفى المساء سألت بيمالا هل يسرها أن تذهب فى رحلة إلى الجبال . وكنت أعلم أنها تتوق إلى رؤية الهملايا ، ولكنها أبت . قضية البلاد على ما أظن !

يجب ألا أفقد إيمانى . سأنتظر . إن المعبر من العالم الضيق إلى العالم الأوسع ملىء بالعواصف . وعندما تتألف هذه الحيرة سأعلم أين مكانى ، فإذا وجدت أنى لا ألائم نظام العالم الخارجى فلن أتعارك مع قدرى ؟ بل سأستأذن فى الرحيل صامتا .. أستخدم القوة ؟ ولكن من أجل ماذا ؟ هل يمكن للقوة أن تغلب الحقيقة ؟!

حكاية سنديب

- ١ -

يقول الرجل العاجز : ما كان من نصيبى فهو لى . ويؤمن على قوله الرجل الضعيف . ولكن درس العالم كله هو هذا : ما يمكننى انتزاعه فهو لى حقا . لن تصبح بلادى لى لمجرد كونها البلاد التى ولدت فيها . ستصبح لى يوم أستطيع أن أكسبها بالقوة .

لكل إنسان حق طبيعى فى التملك ، إذن فالطمع طبيعى ، وليس من حكمة الطبيعة أن تقنع بالحرمان ، فما تشتهيه نفسى يجب على بيئتى أن تعطيه ، وهذا هو التفاهم الصحيح الوحيد بين طبيعتنا الداخلية وطبيعتنا الخارجية فى هذا العالم . فتلبق المثل العليا الأخلاقية لتلك الكائنات الحية ذات الرغبة الصائمة والقبضة الضعيفة . أما الذين يستطيعون أن يرغبوا بكل نفوسهم ويستمتعوا بكل قلوبهم ولا يعرفون ترددا ولا ورعا فأولئك هم الذين باركتهم السماء ، ولهم تبسط الطبيعة أحفل كنوزها وأحلاها . إنهم يسبحون الأنهار ويثبون الأسوار ويقتحمون الأبواب لينالوا كل ما يستحق أن ينال . ولمثل هذا الظفر يفرح المرء وبمثل هذا الغلب تعز قيمة المأخوذ .

إن الطبيعة تسلم نفسها ، بيد أنها لا تسلم نفسها إلا للسارق ، لأنها تسر بهذه الرغبة العنيفة ، بهذا الخطف العنيف . وكذلك هى لا تضيع قلادة قبولها حول رقبة الزاهد النحيلة العجفاء ، هذه موسيقى الزفاف تدق . لن أترك وقت الزفاف يمر . لهذا قلبى متوثب . فمن هو العروس ؟ أنه أنا . إن مكان العروس لمن يقدر أن يأتى فى وقته ، والمشعل بيده . والعروس فى بهو عرس الطبيعة يأتى غير منتظر وغير مدعو .

أأستحتى ؟ لا ، إننى لا أستحى أبدا . أنا أطلب ما أريد ، ولا أنتظر دائما حتى أطلبه قبل أن آخذه . أولئك الذين يحرمهم تهيبهم يعظمون حرمانهم باسم الحياء . إن العالم الذى ولدنا فيه هو عالم الواقع . وعندما يخرج رجل من سوق الأشياء الواقعة صفر اليدين خاوى المعدة لا تملأ حقيبته إلا الكلمات الطنانة ، فإنى أتساءل : لماذا جاء إلى هذا العالم القاسى على الإطلاق . هل تسلم هؤلاء الرجال وظائفهم من أيدى

متـرفى العـالم الدينى ، ليـعزفـوا ألحـانا مـعـينة على نصـوص تقـية حلوة فى تلك الجنة الناعمة التى تتفتح فيها زهور اللاشىء ؟ إننى لا أتكلف تلك الألحان ولا أجد غذاء فى تلك الزهور.

إننى أرغب فيمـا أرغب فيه بإصرار واستعلاء . أريد أن أعجنه بكلتا يدى وكلتا قـدمـى : أن أدهن به جـسـمـى كله ، أن آكل منه حـتـى أمـتلىء ، ولن يصل إلى أننى صفيرا أولئك الذين أخفوا أنفسهم بصيامهم الورع حتى جفوا وشحبوا كديدان جائعة تسكن فراشا طال هجره .

أنا لا أريد أن أخفى شيئا ، لأن هذا جبن . ولكن إن لم أستطـع حمل نفسـى على الإخـفـاء حين يكون الإخـفـاء ضـروريا فـهـذا أيضـا جبن ، لأن لك طمـعك ، أنت تبنى أسوارك ، ولأن لى طمعى ، أنا أنفذ منها . أنت تستخدم قوتك وأنا أستخدم مـهارتى . وهذه هى حقـائق الحـياة ، وعليها تقـوم الممـالك والإمبراطوريات وكل الأعمـال العظيمـة التى ينهض بها النـاس .

أمـا أولئك « المبعوثون » الذين يهبطون إلينا من جنتهم ليكلمونا بلغة قدسية فإن كلمـاتهم غير واقعية . ولذلك لا تجد أقوالـهم مكانا - مهمـا يلقوا من تصفيق - إلا فى الأركان التى يختبىء فيها الضعفاء . إنهم محتقرون من أولئك الأقوياء الذين يحكمون فى العـالم . والذين استطاعوا بشـجـاعـتهم أن يروا هذا نالوا النجـاح ، أمـا أولئك المساكين الذين تجذبهم الطبيعة إلى ناحية ويجذبهم هؤلاء « المبعوثون » إلى ناحية أخرى ، فـإنهم يضـعـون إحـدى قدميـهم فى قـارب الواقع والأخرى فى قـارب الزيف ، ولذلك هم فى حيرة محزنة ، لا يستطيعون أن يتقدموا ولا أن يبقوا فى مكانهم .

كثير من الناس يبدو كأنهم لم يولدوا إلا ليركبهم وسواس الموت . ولعل هناك شيئا من الجمـال - كجمـال الشمس الغاربة - فى هـذا الموت الملكى فى ثنايا الحيـاة ، الذى يبدو أنه يسحرهم . إن نيكهيل يحيا هذا النوع من الحياة ، إن جاز أن نسميه حياة . وقد كان بينى وبينه ، منذ أعوام ، جدال كبير حول هذه المسـألة . قال : صحيح أنك لا تستطيع أن تكسب شيـئا إلا بالقـوة . ولكن مـا هـذه القـوة ؟ ثم مـا هـذا الكسب ؟ إن القوة التى أومن بها هى القدرة على التخلى . فأجبته متعجبا :إذن فأنت مفتون بعظمة الإفلاس ! فأجاب : أشد الفتنة ، كفتنة الفرخ الصغير بإفلاس بيضته . إن البيضة شىء واقع مـاثل ، ولكنها تتحـرك من أجل نور وهواء لا يلمسان . أحسبك تقول إنها تجارة خاسرة ؟

وعندما يعمد نيكهيل إلى المجاز فلا أمل فى أن تجعله يرى أن يتعامل مع كلمات لا مع أمور واقعية . حسنا ، فليبق سعيدا بمجازاته . إننا آكلو اللحوم فى هذا العالم . إن لنا أسنانا وأظافر . إننا نطارد ونمسك ونمزق . إننا لا نقنع بأن نجتر فى المساء العشب الذى أكلناه فى الصباح . نحن على كل حال لا نستطيع أن نسمح لتجار المجاز بأن يوصدوا الباب دون غذائنا ، فإن فعلوا فما علينا إلا أن نختلس أو نسرق ، لأننا يجب أن نعيش .

سيقول الناس إنى أبتكر نظرية جديدة ، لا شىء إلا لأن الذين يسعون فى هذا العالم تعودوا أن يقولوا غير هذا الكلام ، وإن كانوا يعملون به دائما فى الواقع . لهذا يعجزون عن أن يفهموا كما أفهم أن هذا هو المبدأ الخلقى الوحيد الفعال . والحقيقة أنى أعلم أن فكرتى ليست بالنظرية الفارغة ، فالحياة العملية تثبت صدقها ، وقد وجدت أن طريقتى تكسب قلوب النساء ، وهن بنات هذا العالم الواقعى اللاتى لا يحلقن بين عالم السحب فى بالونات ملأى بالأفكار كما يفعل الرجال .

النساء يجدن فى قسماتى وطريقتى ومشيتى وكلامى انفعالا ملؤه السيطرة ، لا انفعالا جففته حرارة الزهد . انفعالا ملؤه الدم ، لا انفعالا يدير وجهه إلى الخلف عند كل خطوة فى شك وتساؤل . أنه يزمجر ويندفع كالطوفان صائحا : « أريد ، أريد » . والنساء يشعرن فى أعماق قلوبهن أن هذا الانفعال الذى لا يمكن إخضاعه هو دم الحياة للعالم ، فهو لا يعترف بقانون غير ذاته ، ولذلك ينتصر . من أجل هذا السبب كثيرا ما استسلمن ليجرفهن مد انفعالى ، غير مباليات أن قادهن إلى الحياة أو إلى الموت . إن القوة التى تستحوذ على هؤلاء النساء هى قوة الرجال الأشداء ، هى القوة التى تستحوذ على عالم الواقع .

أن الذين يتخيلون مزيدا من الصلاح فى عالم آخر ، أولئك إنما ينقلون رغباتهم من الأرض إلى السماء . فلننتظر لنرى إلى أى مدى يعلو ينبوعهم المتدفق ، وحتام يستمر . أما الذى لا شك فيه فهو أن النساء لم يخلقن لهذه المخلوقات الشاحبة آكلى اللوتس المثاليين .

« الوفاق ! » كثيرا ما قلت ، حين كنت فى حاجة إلى هذا القول ، إن الله خلق أزواجا معينة من الرجال والنساء ، وإن اتحاد مثل هؤلاء الأزواج هو الاتحاد الوحيد المشروع ، وإنه فوق كل اتحاد يصنعه القانون . وسبب قولى هذا أن الإنسان وإن أراد اتباع الطبيعة فإنه لا يسر بذلك إلا أن يستتر خلف عبارة ما ، لهذا يمتلىء العالم بالأكاذيب .

« الوفاق » ، ولماذا يكون هناك وفاق واحد فقط ؟ قد يوجد وفاق مع الألوف . وما دخل قط فى عهدى مع الطبيعة أن أنسى كل موافقاتى التى لا تحصى من أجل وفاق واحد فقط . وقد اكتشفت كثيرا من الموافقات فى حياتى حتى الآن ، ولكن ذلك لم يغلق الباب دون المزيد – وذلك الوفاق يلوح واضحا لعينى . وهى أيضا قد اكتشفت وفاقها معى .

وإذن :

وإذن فإنى جبان لم أكسب .

الفصل الثالث

حكاية بيمالا

- ١ -

عجبا . أين ذهب حيائي ؟ الحق أني لم أجد وقتا لأفكر في أمرى . كانت أيامى وليالى تمر خاطفة كدوامة أنا في مركزها ، ولم يكن ثمة منفذ ليدخل منه التردد أو التلطف.

وذات يوم قالت سلفتى لزوجى : كان البكاء حظ النساء فى هذا المنزل حتى الآن . وها قد جاء دور الرجال .

ومضت تقول ، والتفتت إلى : علينا ألا نضيع عليهم نصيبهم . إنى أراك قد برزت للمعركة يا « تشوتا رانى »[1] فصوبى سهامك إلى قلوبهم .

وفحصتنى عيناها الحادتان من فرعى إلى قدمى ، فلم يفتنها لون من الألوان التى ازدهرت فى زينتى وثيابى وشارتى وكلامى . إنى أخجل إذ أتحدث اليوم عن هذا ، ولكن لم أشعر بخجل آنذاك ، فقد كان يعتمل فى باطنى شىء لا أعيه مجرد وعى . حقا لقد كنت أبالغ فى العناية بملابسى ، ولكنى كنت أفعل ذلك وأنا أشبه بالآلة ، لا أرمى إلى قصد معين . ولا شك أنى كنت أعرف ما الذى سيستحسنه سنديب بابو من جهودى ، ولكن ذلك لم يكن يحتاج إلى حدس ، فكان يتحدث عنه فى صراحة أمام الجميع .

ذات يوم قال لزوجى : أتدرى يا نيكهيل .. عندما رأيت ملكتنا للمرة الأولى كانت جالسة هناك ساكنة الطائر فى ساريها ذى الحاشية الذهبية ، وكانت عيناها تحدقان فى الفراغ مستفهمتين كنجمتين ضلتا طريقهما ، وكأنها قضت عصورا وهى واقفة

(١) بيمالا هى زوجة الأخ الأصغر ، فهى « التشوتا رانى » أو الأميرة الصغيرة . (المترجم) .

على حافة ظلام تنظر ، ترتقب شيئا مجهولا . ولكنى حين رأيتها شعرت بهزة تشملنى ، وخيل إلى أن الحاشية الذهبية لساريها كانت هى نارها الباطنة تتلهب وتلتف حولها . تلك هى الشعلة التى تريدها . النار المنظورة ! بالله يا ملكة ألا أحسنت إلينا بأن تلبسى مرة أخرى كشعلة حية .

كنت قبل كنهر صغير على حافة قرية . كان إيقاعى ولغتى غير ما هما الآن . ولكنى المد جاء من البحر ، وجاش صدرى ، وتداعى شاطئاى . وتجاوبت أمواج البحر تقرع قرع الطبول فى تيارى المجنون . لم أستطع أن أفهم معنى ذلك الصوت فى دمى . أين كانت نفسى الأولى ؟ من أين جاء هذا السيل الآتى من المجد يزيد فى باطنى ؟ كانت عينا سنديب الجائعتان تشتعلان كمصباحين للعبادة أمام هيكلى . كانت كل رنوته تعلن أنى المحبوبة فى الجمال والقوة ، وعلو مديحه المنطوق وغير المنطوق يفرق كل الأصوات الأخرى فى عالمى . وتساءلت هل خلقنى الخالق من جديد ؟ وهل أراد أن يعوضنى الآن عن طول ما نبذنى ؟ أنا التى كنت خلوا من الجمال أصبحت فجأة جميلة . أنا التى كنت ولا شأن لى أصبحت الآن أشعر فى نفسى بكل بهاء البنغال .

فإن سنديب بابو لم يكن فردا مجردا . لقد التقت فيه ملايين النفوس فى البلاد ، وعندما سمانى ملكة الخلية ردد كل رجالنا الوطنيين آيات الثناء . وبعد ذلك لم أعد آبه للمزات سلفتى الجهيرة ، فقد تغيرت علاقاتى بالعالم بأسره ، وأوضح لى سنديب بابو أن الوطن كله فى حاجة إلىّ ، ولم أجد صعوبة فى تصديق ذلك ، فقد شعرت بأن لدى القوة لأفعل كل شىء . لقد جاءتنى قوة إلهية ، كانت شيئا لم أشعر به قط من قبل ، شيئا أكبر منى ، لم يتسع لى فى الوقت لأتبين طبيعته . كان يبدو أنها لى ، ولكنها تعوقنى ، لقد كانت تشمل البنغال كلها .

وكان سنديب بابو يحب أن يستشيرنى فى كل صغيرة وكبيرة مما يتصل بالحركة ، وكنت فى أول الأمر أشعر بالحرج وأميل إلى التوارى ، ولكن سرعان ما زال عنى ذلك ، وكنت كلما أشرت بشىء بدت عليه الدهشة ، وطار من البهجة ، وقال : الرجال لا يحسنون إلا أن يفكروا ، أما أنتن معشر النساء فلكن طريقة فى الفهم دون أن تفكرن . إن الله خلق المرأة من خيال ، أما الرجل فقد طرقه كى تعتدل صورته .

وكانت الرسائل ترد إلى سنديب بابو من أنحاء البلاد فيعرضها علىّ لأبدى رأيى فيها . وربما اختلفنا دون أن أحاول مجادلته ، فيبعث فى طلبى بعد يوم أو يومين

وكأنما لاحت له فجأة فكرة جديدة ، ويقول : لقد كنت مخطئا . كان رأيك هو الصواب . وكثيرا ما يعترف لى بأنه حيثما عمل بخلاف نصيحتى كان الخطأ رائده . وهكذا تكون عندى اليقين بأن سنديب بابو وراء كل ما يحدث ، وأن وراء سنديب بابو بداهة عادية لامرأة . وامتلأ كيانى بمجد مسئولية عظيمة .

ولم يكن لزوجى مكان فى مشاوراتنا . فقد كان سنديب بابو يعامله كأخ أصغر قد يكون المرء شديد الحب له ، ولكنه لا يأخذ برأيه فى الأمور . وربما تكلم بحنان وابتسام عن براءة زوجى التى تشبه براءة الطفل ، قائلا إن مذهبه الغريب وأفكاره الشاذة لا يخلوان من فكاهة تزيدهما ظرفا ، وكأنما كان عطفه على نيكهيل هو نفسه الذى يمنع سنديب بابو من أن يحمله أعباء البلاد .

إن فى صيدلية الطبيعة مسكنات كثيرة تقدمها خفية حين تقطع الروابط الحية على غير انتظار ، فلا يدرى أحد بالجراحة حتى يصحو المرء أخيرا ليعلم بما أحدث من شق كبير . فبينما كان المشرط يعمل جاهدا فى أمس حياتى كانت ترين على عقلى أبخرة غاز مسكر ، فلم أشعر أدنى شعور بقسوة ما يحدث . لعل هذه هى طبيعة المرأة . فحين تثور عاطفتها تفقد القدرة على إدراك كل ماعداها . عندما نبقى نحن النساء كالنهر داخل شطآنه ، نغذو بكل ما لدينا ، فإذا فضنا على الشطآن دمرنا بكل ما فينا .

حكاية سنديب

- ٢ -

يبدو لى أن ثمة خطأ ما . وقد شعرت بهذا الخطأ منذ يومين . فمنذ قدومى أصبحت حجرة جلوس نيكهيل شيئا خلاسيا ، بين جناح للنساء وجناح للرجال. فكانت بيمالا تدخلها من « الزينانا » ، ولم تكن مقفلة دونى من الجانب الآخر . ولو أننا أبطأنا فى السير وآثرنا القصد فى الإفادة من امتيازاتنا لما اصطدمنا بأناس آخرين . ولكنا مضينا مندفعين فلم نفكر فى العواقب .

فكلما كانت « الملكة » تدخل حجرة نيكهيل كنت أعرف ذلك بطريقة ما وأنا فى حجرتى . فهناك رنين الخلاخيل ورسومات أخرى ، وقد يصفق الباب بقوة غير ضرورية ، ولخزانة الكتب صرير حين تفتح لأن مصاريعها غير ناعمة . وحين أدخل أجد الملكة وظهرها إلى الباب عاكفة على اختيار كتاب من بين الأرفف ، فإذا تطوعت لمساعدتها فى هذه المهمة الصعبة نفرت وأبت ، ثم ننتقل دون تعمد إلى موضوعات أخرى .

وأمس الأول ، وكان يوم خميس منحوسا [١] ، انطلقت بعد الظهر من حجرتى على نداء الأصوات نفسها ، فوجدت حارسا فى الممر ؟ فمضيت فى سيرى دون أن أعيره نظرة ، ولكنه اعترض طريقى حين اقتربت من الباب قائلا : ليس هذا هو الطريق ياسيدى .

– ليس هذا هو الطريق ؟ لماذا ؟

– أمنا الرانى هناك .

– أوه ، حسنا ، قل لأمك الرانى إن سنديب بابو يريد أن يراها .

– هذا لا يكون يا سيدى . إنه مخالف للأوامر .

(١) وفقا للتقويم الهندى . (المترجم) .

واستبد بى الغضب ، فقلت بصوت عال : أنى إمرك . اذهب وأعلنها بقدومى !

وأجفل الرجل شيئا ما إزاء مسلكى ؟ وكنت قد دنوت من الباب وأوشكت أن أبلغه حين تبعنى وأمسك بذراعى قائلا : لا يا سيدى ، يجب ألا تفعل !

ماذا ! خادم يلمسنى ! جذبت ذراعى وصفعت الرجل صفعة رنانة ، وفى هذه اللحظة خرجت الملكة من الحجرة لتجد الرجل موشكا أن يعنف بى .

ولن أنسى صورة غضبها ! إننى أنا الذى اكتشفت جمال الملكة ، ولعل معظم قومنا لا يرون فيها شيئا ، فقوامها الطويل الممشوق يسميه هؤلاء الأجلاف « نحيلا » ، ولكن هذه اللدونة فيها هى التى تعجبنى ، كينبوع حياة متوثب ، صادر من أعماق قلب الخلق . وبشرتها سمراء ، ولكنها سمرة الفرند اللامعة فى حدة ولألاء .

أشارت بإصبعها وهى واقفة بالوصيد وأمرت : نانكو ! اتركنا ! فقلت : لا تغضبى عليه ، إن كان هذا مخالفا للأوامر فأنا الذى يجب أن أذهب .

وكان صوت الملكة لايزال مرتعشا وهى تجيب : يجب ألا تذهب . ادخل !

لم يكن ذلك رجاء بل أمرا جديدا ! وتبعتها داخلا ، وجلست على كرسى ، وأخذت أروح عن نفسى بمروحة وجدتها على المنضدة . وخطت الملكة شيئا بقلم رصاص على قطعة من الورق ونادت خادما سلمتها إليه قائلة : خذ هذه إلى المهراجا .

فعدت أقول : معذرة ، لم أستطع أن أملك نفسى ، فضربت رجلك هذا .

قالت الملكة : إنه يستحق .

– ولكن ذلك لم يكن خطأ المسكين . إنما كان يطيع أوامره .

وهنا دخل نيكهيل ، وفى أثناء دخوله تركت كرسى مسرعا ووقفت قرب النافذة وظهرى إلى الحجرة . قالت الملكة لنيكهيل :

– لقد أهان الحارس نانكو سنديب بابو .

وبدت دهشة نيكهيل صادقة حتى إنى لم أتمالك أن التفت وحدقت فيه . حتى الرجل الفاضل فوق ما يتصور يعجز أن يحافظ على عزة الصدق أمام زوجته – إن كانت حقا امرأة – ومضت الملكة تقول :

– لقد اعترض طريق سنديب بابو بوقاحة وهو قادم إلى هنا . قال إن لديه أوامر ..

فسأل نيكهيل : أوامر من ؟

وصاحب الملكة بصبر نافد وعيناها تطفحان غضبا وقهرا : كيف لى أن أعلم ؟

فبعث نيكهيل فى طلب الرجل وسأله ، فأجاب نانكو عابسا : لم يكن هذا خطئى . كانت لدى أوامر .

- من أمرك ؟

- أمنا البارارانى .

وصمتنا جميعا برهة . وبعد أن انصرف الرجل قالت الملكة : يجب أن يذهب نانكو !

فظل نيكهيل صامتا . وكان بوسعى أن أرى أن عدله لا يسمح بهذا ، فقد كانت الشكوك تتلجلج دائما فى صدره ، ولكنه كان إزاء مشكلة عنيدة هذه المرة ، فلم تكن الملكة بالمرأة التى تلاين أو تخضع ، وكان لابد لها أن تكيل لسلفتها مثل كيلها بأن تعاقب هذا الرجل ، وكانت عيناها تقدحان شررا ، ونيكهيل ملازم لصمته ، وهى لا تدرى كيف تصب احتقارها على خور زوجها . وترك نيكهيل الحجرة بعد لحظة دون أن يضيف كلمة .

وفى اليوم التالى اختفى نانكو ، وحين استفسرت علمت أنه أرسل إلى مكان آخر فى الإمارة ، وأن راتبه لم يخفض لهذا النقل .

واستطعت أن ألمح - خلف الناظر - آثارا مما خربته العاصفة التى أثارها هذا العمل . كل ما أستطيع قوله إن نيكهيل كائن غريب خارج عن المألوف .

وكانت النتيجة أن أصبحت الملكة تستدعينى إلى حجرة الجلوس للحديث دون احتيال لذلك أو زعم بأنه مصادفة . وهكذا خرجنا من الإيماء إلى التلميح الواضح ، فأصبح المفهوم منطوقا . إن الكنة فى بيت الإمارة تعيش فى حجرة نائية عن الأجنبى العادى حتى إنه لايوجد طريق معلوم ليقترب منها . فما كان أعظمه من تقدم ظافر للحقيقة ألقى قناعا للتقاليد المضللة بعد قناع ، متدرجا ولكن فى إصرار ، حتى تجلت الطبيعة نفسها آخر الأمر .

الحقيقة ؟ أجل إنها كانت *الحقيقة* ، فتجاذب الرجل والمرأة أصل راسخ ، يؤكده عالم المادة كله من ذرة الغبار إلى مافوقها .

ولكن الرجال يريدون أن يحجبوه عن الأنظار خلف قناع من الكلمات ، ويجعلوا منه أداة منزلية بما يصنع فى البيت من المقدسات والمحظورات . إن هذا ليس أقل سخفا من صهر النظام الشمسى لصنع سلسلة ساعة لزوج البنت ![١] .

فإذا استيقظ الواقع - رغم كل شيء - لنداء ما لا يعدو أن يكون حقيقة عارية ، فيا لصرير الأسنان ويا لصك الصدور ! ولكن هل يستطيع المرء أن ينازع عاصفة ؟ إنها لن تعنى نفسها بالرد بل ترجه رجا .

وأنى لأستمتع بمرأى هذه الحقيقة وهى تتكشف رويدا رويدا . هذه الارتجافات فى الخطأ ، وهذه الإشاحات من الوجه أجدها حلوة ، وحلوة هى الخدع التى لا تخدع الآخرين فحسب بل الملكة نفسها. فحين يضطر الواقع إلى أن يلقى الزيف يكون الخداع سلاحه الرئيسى ، لأن أعداء الواقع يحاولون دائما إخزاءه ؛ إذ ينعتونه بالفظاظة ، فلابد له أن يختفى أو يتنكر ، والمقام لا يسمح له أن يعلن فى صراحة . نعم إننى فظ ، لأنى حق . أنا الجسم . أنا العاطفة . أنا الجوع الذى لا يخجل ولا يرحم .

كل شيء واضح لى الآن . الستارة تهتز ، ومن خلالها أستطيع أن أرى الإعداد للفاجعة . الشريط الأحمر الصغير الذى يطل من خصل شعرها الأثيث متضرجا بشوقه الدفين هو اللسان الذى يتدلى من سحابة العاصفة الحمراء . إنى أحس الدفء فى كل ثنية من ساريها ، وكل إيماءة فى ملابسها . ولعل الملابسة نفسها لا تشعر بذلك شعورا جليا .

إن الملكة لم تشعر ، لأنها خجلة من الواقع الذى نبذه الناس بلقب الشيطان ، فاضطر أن يتسلل إلى جنة النعيم فى صورة ثعبان ، ويهمس بالأسرار فى أذن رفيقة الرجل المختارة ، وإذا هى تثور ، فسلاما على كل راحة ، وبعد ذلك يأتى الموت !

إن ملكتى الصغيرة المسكينة تعيش فى حلم . هى لا تدرى فى أى طريق تسير ، وإيقاظها قبل الأوان غير مأمون ، فخير لى أن أدعى من عدم الوعى مثل ما عندها .

منذ أيام كانت تتأملنى على الغداء بنظرات غريبة ، جاهلة معنى هذه النظرات . وحين التقت عيناى بعينها أشاحت بوجهها الذى تضرج خجلا . فقلت : أتدهشك شهيتى ؟ إننى أستطيع أن أخفى كل شيء إلا نهمى . وعلى كل حال لماذا يحمر وجهك من أجلى وأنا لا أستحى ؟

(١) زوج البنت هو الشخص المدلل فى البيت الهندى . (المترجم) .

فلم يزد ذلك وجهها إلا احمرارا ، وتمتمت : كلا ، كلا . لقد كنت فقط ..

فقاطعتها قائلا : إنى أعلم . النساء يملن إلى الرجال النهمين ، فنهمنا هذا هو الذى يجعل لهن اليد العليا . وقد تلقيت من أيديهن إكراما زادنى عدم حياء ، فلست أبالى البتة أن تنظرى إلى الطيبات تختفى ، فإنى عازم على أن أستمتع بكل واحدة منها .

ومنذ أيام كنت أقرأ كتابا إنجليزيا يعالج مشكلات الجنس بطريقة واقعية جريئة . فتركته فى حجرة الجلوس . وحين دخلتها بعد ظهر اليوم التالى لبعض الشأن وجدت الملكة جالسة وهذا الكتاب فى يدها ، فحين سمعت خطواتى ألقته مسرعة ووضعت فوقه كتابا آخر - مجلدا من أشعار مسز هيمان .

وبدأت الحديث قائلا : لست أدرى لماذا تخجل النساء إذا ضبطن يقرأن الشعر . قد يكون لنا نحن الرجال - محامين أو مهندسين أو غير ذلك - أن نخجل من هذا ، وإذا لم يكن لنا من قراءة الشعر بد فينبغى أن يكون ذلك فى هدوء الليل خلف أبواب مغلقة . أما أنتن معشر النساء فبينكن وبين الشعر نسب قريب . إن الخالق نفسه شاعر ، ولابد أن جايا ديفا[1] قد تعلم الفن القدسى جالسا عند قدميه .

فلم تحر الملكة جوابا ، غير أن وجهها أحمر فى قلق ، وهمت بمغادرة الحجرة ، فقلت مستنكرا : كلا ، كلا ، أرجوك أن تمضى فى قراءتك . أنا لا أبغى إلا كتابا تركته هنا ، وسأنطلق من فورى - وأخذت الكتاب من على المنضدة - من حسن الحظ أنك لم تفكرى فى تصفحه فيدعوك ذلك إلى معاقبتى .

فسألت الملكة : حقا ! لماذا ؟

قلت : لأنه ليس شعرا ، بل أشياء صريحة ، فى لغة صريحة ، لا تتحرز ولا تتحرج . وددت لو يقرؤه نيكهيل .

فعبست الملكة قليلا وهى تتمتم : وما الذى يجعلك تود ذلك ؟

- ألا ترين أنه رجل ، واحد منا ؟ كل الخلاف بينى وبينه أنه يحب أن ينظر إلى هذا العالم نظرة مغلفة بالضباب . ألم تلاحظى أن هذه الصفة فيه تجعله ينظر إلى

(١) شاعر غنائى تصلح قصائده فى تمجيد الله للتعبير عن مختلف العواطف الإنسانية . (المترجم) .

« السواديشى » كأنها قصيدة شعر يجب أن يسلم وزنها فى كل خطوة ؟ أما نحن فإنا محطمو الوزن بهراواتنا النثرية .

- وما شأن كتابك بالسواديشى ؟

- ستعلمين متى قرأته . إن نيكهيل يريد أن يتبع مبادئ موضوعة . يريد ذلك السواديشى كما يريده فى كل شىء آخر ، ولهذا يصطدم بالطبيعة البشرية عند كل منعرج ، ثم يأخذ فى ذمها ، ولا يريد أن يدرك أبدا أن الطبيعة البشرية قد خلقت قبل أن تخلق العبارات بوقت طويل ، وستعيش بعدها أيضا .

فصمتت الملكة لحظة ثم قالت برزانة : أليس من الطبيعة البشرية أنها تحاول السمو على نفسها ؟

وابتسمت فى باطنى ، وقلت لنفسى : ليست هذه كلماتك ، لقد حفظتها من نيكهيل . « أنت » بشر سوى . لقد استجاب لحمك ودمك لنداء الواقع . كل عروقك تشتعل بنار الحياة - ألست أعلم ذلك ؟ فحتام يبقونك باردة بهذه المنشفة المبللة ، المبادئ الخلقية ؟

وقلت بصوت مرتفع : أن الضعفاء أغلبية ، وهم دائما يسممون آذان الناس بترديد هذه المزاعم . لقد حرمتهم الطبيعة من القوة ، ولهذا يحاولون أن يضعفوا الآخرين .

فردت بيمالا : نحن النساء ضعيفات ، وأحسبنا يجب أن ننضم إلى مؤامرة الضعفاء .

فصحت ضاحكا : النساء ضعيفات ! إن الرجال يمتدحونكن بالنعومة والرقة حتى يوهموكن أنكن ضعيفات . ولكن القوة فيكن معشر النساء . إن الرجال يبالغون فى التظاهر بما يسمونه حريتهم ، ولكن الذين يعرفون تفكيرهم الباطنى يدركون عبوديتهم . لقد كتبوا الكتب بأيديهم ليقيدوا أنفسهم . وبمثاليتهم صنعوا أغلالا ذهبية للنساء يلفونها حول أجسامهن وعقولهن . ولو لم تكن للرجال هذه القدرة العجيبة على إيقاع أنفسهم فى أشراك من صنعهم لما استطاع شىء أن يبقيهم فى القيد . أما أنتن معشر النساء فقد رغبتن أن تحتوين الواقع بالجسم والروح ، لقد ولدتن الواقع وأرضعتن الواقع أثداءكن .

وكانت الملكة واسعة الاطلاع بالنسبة إلى غيرها من النساء ، ولم يكن من اليسير أن تسلم بحججى . فقالت تناقضنى : لو صح ذلك لما وجد الرجال جاذبية فى النساء .

فأجبتها : إن النساء يدركن الخطر . هن يعلمن أن الرجال يحبون الأوهام ، لذلك يعطينهم كفايتهم منها بأن يستعرن عباراتهم نفسها . هن يعلمن أن الرجل - ذلك السكير - يفضل النشوة على الطعام . ولذلك يحاولن أن يبدون فى مظهر شىء يثير النشوة . والواقع أنه لولا الرجل لما احتاجت المرأة إلى التمثيل .

- إذن لماذا تعنى نفسك بتحطيم هذا الوهم ؟

- من أجل الحرية . إننى أريد الحرية للبلاد ، وأريد الحرية للعلاقات الإنسانية .

- ٣ -

كنت أعلم أن مفاجأة من يمشى فى النوم بإيقاظه أمر غير محمود العاقبة ، ولكن فى طبعيى اندفاعا ينفرنى من المشية المتئدة . وقد علمت أنى مسرف فى الجسارة ذلك اليوم ، وعلمت أن صدمة مثل هذه الأفكار توشك أن تكون غير محتملة ، ولكن الجسارة هى التى تكسب دائما مع النساء .

بينما كنا نتقدم بخطا حثيثة إذ بأستاذ نيكهيل الشيخ - تشاندرانات بابو - يدخل علينا . إن العالم ليذهب منه أكثر من نصف رداعته مكانا للعيش لو خلا من هؤلاء المعلمين الذين يجعلون المرء يود أن يغادره فى اشمئزار . وأمثال نيكهيل يريدون أن يبقى العالم أبدا مدرسة . وقد ظهرت هذه المدرسة المتجسدة عصر ذلك اليوم فى لحظة سيكولوجية .

نحن جميعا نظل تلاميذ صغارا فى ركن ما من قلوبنا . وحتى أنا شعرت بشىء من الارتباك . أما الملكة المسكينة فقد انتظمت فى مكانها على الفور كأول الصف على المقعد الأول ، وكأنها تذكرت فجأة أن عليها أن تواجه الامتحان .

إن بعض الناس أشبه « بعمال تحويل » دائمين ينتظرون بجانب الخط الحديدى ليحولوا قطار أفكار المرء من قضيب إلى قضيب .

ما كاد تشاندرانات بابو يدخل حتى أخذ يتلمس عذرا للانصراف متمتما : معذرة .. إننى ..

ولكن الملكة أسرعت إليه قبل أن يتم ، وانحنت فى خشوع قائلة : أتوسل إليك ألا تتركنا ياسيدى . ألا تتفضل بالجلوس ؟

كانت كغريق يتعلق به طالبا النجدة .. ! الرعديدة الصغيرة !

ولكن من الجائز أنى أخطأت الفهم فلعل دعوتها إياه كانت تنطوى على شىء من مكر النساء . لعلها كانت تريد أن ترفع قيمتها فى عينى . لعلها كانت تقول لى فى وضوح وإيجاز : لا يخطرن بالك لحظة أنى خضعت لك . بل ان إحترامى لتشاندرانات بابو لأكثر من ذلك .

حسنا ، أسبغي احترامك كما تشائين . فالمعلمون يعيشون عليه ، ولكني لست معلما ، ولا حاجة لي بتلك التحية الفارغة .

وبدأ تشاندرانات بابو يتكلم عن « السواديشي » ، فظننت أني أستطيع أن أدعه يتكلم وحده ، فلا شيء يعدل أن تترك شيخا عجوزا يفرغ ماعنده في الكلام ، يخال أنه يربط العالم في حزمة ، وينسى طول الوقت كم يبعد العالم الواقعي عن لسانه الثرثار .

ولكن أعدى أعدائي لا يستطيع أن يتهمني بالصبر . وحين بدأ تشاندرانات بابو يقول : « إذا كنا ننتظر أن نجني الثمار من حيث لم نضع بنورا .. » اضطررت أن أقاطعه . فصحت : من الذي يريد الثمار ؟ نحن نتبع صاحب « الجيتا » الذي يقول : إن علينا أن نسعى وليس علينا أن ننتظر ثمار أعمالنا .

فسأل تشاندرانات بابو : إذن فما الذي تريدونه حقا ؟

فصحت : الأشواك ! الأشواك التي لا تكلف شيئا لتزرع .

فأجاب : الأشواك لا تعوق الآخرين فحسب ، بل إن من شأنها أن تجرح أقدام من يزرعها .

فرددت عليه قائلا : هذا حق ليكتب في مشق . ولكن الشيء الواقعي هو أن لدينا هذه الأكلة في قلوبنا . ليس علينا الآن إلا أن نزرع الشوك لأقدام غيرنا ، وعندما يؤلمنا فيما بعد سيكون لدينا من الفراغ ما يسمح لنا بأن نندم . ومع ذلك فلماذا نخاف حتى أن حدث هذا ؟ عندما يكون علينا أن نموت أخيرا فسنجد متسعا من الوقت لنبرد ، أما والنار تهلبنا فدعنا نحتدم ونغلي .

فابتسم تشاندرات بابو قائلا : لك أن تحتدم كما تشاء ، ولكن على ألا تحسب هذا عملا أو بطولة ، فالأمم المتقدمة في العالم قد تقدمت بالعمل لا بالغليان . وأولئك الذين رقدوا دائما في خوف من العمل إذا استيقظوا فجأة لحالهم المحزنة بحثوا عن خلاصهم في اختصار الطرق ولهوجة الأعمال .

وكنت أتحفز لإلقاء رد قاطع حين عاد نيكهيل . فنهض تشاندرانات بابو ونظر إلى الملكة قائلا : دعيني أذهب الآن يا أمي الصغيرة لأعنى ببعض شأني .

ولما خرج أريت نيكهيل الكتاب الذي بيدي وقلت له : لقد كنت أحدث الملكة عن هذا الكتاب .

إن تسعة وتسعين فى المائة من البشر يجب خداعهم بالأكاذيب ، ولكن الطريق الأسهل مع هذا التلميذ الأبدى لمعلم المدرسة هو خداعه بالحقيقة . فأفضل ما يغش به هو الصراحة . ولهذا كانت أيسر الطرق حين أقامره أن أضع أوراقى على المائدة .

قرأ نيكهيل العنوان على الغلاف ولم يقل شيئا . فمضيت أقول : هؤلاء الكتاب يعملون مكانسهم بهمة ، مزيحين تراب النعوت التى غطى بها الناس عالمنا هذا . لذلك كنت أقول إنى أود لو تقرؤه .

فقال نيكهيل : لقد قرأته .

– حسنا ، وما رأيك ؟

– إنه نافع لمن يريدون حقا أن يفكروا ، ولكنه سم لمن يفزعون من التفكير .

– ما الذى تعنيه ؟

– أولئك الذين يدعون إلى « المساواة فى حقوق الملكية » يجب ألا يكونوا لصوصا ؛ لأنهم إن كانوا لصوصا فما يعلمونه أكاذيب . وعندما يتغلب الانفعال لا يفهم مثل هذا الكتاب على وجهه .

فأجبت : الانفعال هو مصباح الشارع الذى يرشدنا . وتسميته باطلا عبث ، كتوقع أن تحسن الرؤية باقتلاع العينين الطبيعيتين .

وكان واضحا أن نيكهيل قد أخذته الحماسة . قال : إننى لا أسلم بحقيقة الانفعال إلا حين أسلم بحقيقة التحكم فيه . وحين ندفع ما نريد رؤيته داخل عيوننا لا نرى وإنما نؤذى عيوننا ، وكذلك عنف العاطفة الذى لا يترك مسافة بين العقل وموضوعه يؤدى إلى عكس المقصود .

فأجبت : إنما هو تأنقك الفكرى الذى يجعلك تسترسل فى لطائف أخلاقية ، متجاهلا الجانب الوحشى للحقيقة . وهذا لا يساعدك إلا على إضفاء غلالة من الإبهام على الأشياء فلا تستطيع أن تعمل بشىء من القوة .

فقال نيكهيل نافذ الصبر : إن إقحام القوة فى غير محلها لايساعدك فى عملك .. ولكن لماذا تجادل فى هذه الأمور ؟ أن الجدل الفارغ لايذهب إلا نضارة الحقيقة .

وكنت أريد أن تشترك الملكة فى المناقشة ، ولكنها لم تنطق بكلمة إلى تلك اللحظة . فهل صدمتها صدمة عنيفة تركتها نهبا للريب ، راغبة فى أن تحفظ درسها من جديد

على يدى معلم المدرسة ؟ بيد أن الهزة الكبيرة كانت لازمة . فيجب أن يبدأ المرء بإدراك أن الأمور التى تظن راسخة يمكن أن تهتز .

قالت لنيكهيل : يسرنى أنى تحدثت معك ؟ فقد كنت موشكا أن أعير هذا الكتاب للملكة كى تقرأه .

فقال نيكهيل : وأى بأس فى ذلك ، إذا كنت أستطيع قراءة الكتاب فلماذا لا تقرؤه بيمالا أيضا ؟ كل ما أريد قوله هو أن الناس فى أوربا ينظرون إلى كل شىء من وجهة العلم . ولكن الإنسان ليس علم وظائف فحسب ، ولا علم الأحياء ، ولا علم النفس ، بل ولا علم الاجتماع . بربك لاتنس هذا . إن الإنسان أكبر كثيرا من العلم الطبيعى عن نفسه . أنت تضحك منى ، تسمينى تلميذ معلم المدرسة ، ولكنك أنت هذا التلميذ لا أنا . فأنت تريد أن تعرف حقيقة الإنسان من مدرسة العلوم لا من وجودك الداخلى .

فقلت ساخرا : ولكن لماذا كل هذه الحماسة ؟

– لأنى أراك عاكفا على تحقير الإنسان وإذلاله .

– وفيم بالله ترى كل هذا ؟

– فى الهراء . فى مشاعرى المهانة . إنك دائب على جرح ما هو عظيم وغيرى وجميل فى الإنسان .

– أى فكرة مجنونة هذه التى تزعم !

فهب نيكهيل فجأة وقال : أصارحك القول ياسنديب ، إن الإنسان قد يحرج حتى الموت ويأبى مع ذلك أن يموت . لهذا السبب أنا مستعد لأن أتحمل كل شىء ، وأنا أعلم كل شىء ، وعيناى مفتوحتان .

قال هذه الكلمات وغادر الحجرة مسرعا .

وكنت أحملق زائغ البصر فى شخصه المتباعد عندما سمعت صوت كتاب يسقط عن المنضدة ، فالتفت لأرى الملكة تتبعه بخطا سريعة عصبية وقد خطت طريقا دائريا لتتجنب المرور بقربى .

مخلوق عجيب نيكهيل هذا ! إنه يشعر بالخطر يتهدد بيته ، ولكن لماذا لا يطردنى منه ؟ أنا أعلم السبب . إنه ينتظر بيمالا أن تعطيه الاشارة . فإن قالت له بيمالا إن زواجهما كان خطأ فسيحنى رأسه ويسلم بأنه ربما كان خطأ ! فليست لديه الصلابة

ليدرك أن الاعتراف بالخطأ هو أفدح الأخطاء ، وأنه لمثل واضح يبين كيف تورث الأفكار ضعفا . ما رأيت أحدا مثله أعجوبة من بدوات الطبيعة ! أنه لا يكاد يصلح شخصية فى رواية ومسرحية ، بله واقع الحياة .

والملكة ؟ أخشى أن تكون حياتها الحالمة قد انتهت منذ اليوم . فقد فهمت أخيرا حقيقة التيار الذى يحملها معه ، وعليها الآن أن تتقدم أو تتأخر مفتوحة العينين ؛ ولعل الأقرب إلى الظن أنها ستتقدم خطوة ثم تتأخر خطوة ، ولكن ذلك لا يقلقنى . فعندما تشتعل النار بإنسان يكون اندفاعه ذهابا وجيئة سببا لاحتدامها ، ولن يكون الخوف الذى شعرت به إلا مذكيا لانفعالها .

لعل الأحجى إلا أكلمها كثيرا ، بل أكتفى بأن أختار لها بعض الكتب الحديثة لتقرأها . فلتصل رويدا رويدا إلى الإيمان بأن الإنسان يكون عصريا حين يعترف بالانفعال ويحترمه على أنه الواقع الأسمى ، لا حين يخجل منه ويمجد السيطرة عليه . وإذا وجدت ملاذا فى كلمة مثل « العصرية » فسوف تجد قوة .

ومهما يكن من شىء فيجب أن أرى هذا الأمر إلى نهاية الفصل الخامس . على أننى لا أستطيع – ويا للأسف ! – أن أزهو بكونى متفرجا وحسب ، أجلس فى المقصورة الملكية وأصفق من حين لآخر . إن فى قلبى عصرة ، وفى كل عصب وخزة . عندما أطفىء النور وأرقد فى فراش ترف حوالى وتملأ الظلام لمسات ونظرات وكلمات صغيرة ، وعندما أصحو فى الصباح تعرونى هزة إذ أستبق الزمن ، ويخيل إلىَّ أن الدم يجرى فى عروقى على نغمات الموسيقى .

كان على المنضدة أطار مزدوج فيه صورة الملكة إلى جانب نيكهيل . فنزعت صورتها . وأمس أريتها الجانب الخالى وقلت لها : السرقة لا تصبح ضرورية إلا بسبب البخل ، فيجب أن يقسم إثمها بين البخيل والسارق . ألا ترين ذلك ؟

فلم تزد على أن قالت وابتسمت ابتسامة صغيرة : إنها لم تكن جميلة .

قلت : وما العمل ؟ لن تكون الصورة أفضل من صورة . وعلىَّ أن أقنع بها مهما كانت .

فأخذت الملكة كتابا وراحت تقلب صفحاته . ومضيت أقول : إن كان هذا يضايقك فعلىَّ أن أحتال لملء الفراغ .

وقد ملأته اليوم . إن صورتى هذه أخذت وأنا فى ريق الشباب ، وكان وجهى آنذاك أنضر ، وكذلك كانت نفسى . ثم كانت لدى بعض أوهام عن هذا العالم والعالم الآخر . والإيمان يخدع الرجال ، ولكن له فضيلة واحدة عظيمة : إنه يضفى على القسمات بهاء .

صورتى ترقد الآن بجانب صورة نيكهيل . ألسنا صديقين قديمين ؟

الفصل الرابع

حكاية نيكهيل

- ٣ -

ما كنت قط عاكفا على ذاتى ، ولكنى كثيرا ما أحاول فى هذه الأيام أن أنظر إلى نفسى من الخارج .. أن أرى نفسى كما ترانى بيمالا . ويالها من صورة قاتمة كئيبة ، تلك التى تصنعها عادتى فى تناول الأمور تناولا مسرفا فى الجد !

لخير لك أن تصرف الدنيا بالضحك من أن تغرقها بالدموع . هكذا - فى الحق - تسير الدنيا . فنحن لا نلذ طعامنا وراحتنا إلا لأننا نطرد الأحزان المنتشرة فى كل مكان ، فى البيت وفى العالم الخارجى . كما لو كانت أشباحا خاوية ، ترى أين كانت تذهب شهيتنا ونومنا لو أننا نظرنا إلى تلك الأحزان ، ولو مرة واحدة ، على أنها حقائق ؟

ولكنى لا أستطيع أن أطرد نفسى كما لو كانت واحدا من تلك الأشباح . ولهذا يرقد حمل حزنى ثقيلا ثقل الأبد على قلب عالمى .

لماذا لا تقف متفردا متباعدا على جادة العالم ، وتشعر أنك جزء من الكل ؟ ما بيمالا بالنسبة إليك وسط تيار البشرية الضخم الممتد عبر العصور ؟ زوجك ... ؟ وما الزوجة ؟ فقاعة اسم ، تنفخها نفسك حتى تكبر ، تحرسها حذرا بالليل والنهار ، ولكنها توشك أن تنفجر لأى شكة دبوس من الخارج .

زوجتى .. إذن فهى - ولاريب - ملكى ! فإن قالت : « لا ، إننى مالك نفسى » ، فهل لى أن أجيب : « كيف يكون ذلك ؟ ألست لى ؟ » .

زوجتى .. وهل تصلح هذه الكلمة حجة ، بله أن تكون حقيقة ، هل يستطيع امرؤ أن يسجن شخصية كاملة فى ذلك الاسم .

زوجتى ! .. ألم أودع ذلك العالم الصغير أنقى ما فى حياتى وأحلاه ، كل ماهو أنقى وأحلى ، ولم أدعه لحظة يسقط من حضنى إلى التراب ؟ أى بخور للعبادة ، وموسيقى للعاطفة ، وزهور لربيعى وخريفى لم أقدم عند هيكله ؟ فإن جرفتها مياه البالوعة العكرة كزورق ورقى صغير - ألست أيضا .. ؟

مرة أخرة هذه النظرة القاتمة التى لا أستطيع الخلاص منها ! لماذا هى بالوعة ولماذا هى عكرة ؟ إن أسماء تقال فى نوبة غيرة لن تغير حقائق العالم . إن لم تكن بيمالا لى فليست لى ، ولن يثبت الغضب والغيظ والجدل أنها لى . وإن كان قلبى يتصدع فلينصدع ! فلن يغدو العالم مفلسا بسبب ذلك - ولا أنا نفسى ، فالإنسان أكبر كثيرا مما يفقده فى هذه الحياة . حتى بحر الدموع له شاطئه الآخر ، ولولا ذلك ما بكى إنسان .

ولكننا يجب أن ننظر إلى رأى المجتمع .. فلندع المجتمع يرى . إن كنت أبكى فعلى نفسى أبكى لا على المجتمع . وهل أبالى - إن قالت بيمالا إنها ليست لى - أين تكون زوجتى التى يعرفها المجتمع ؟

لابد من بلاء . ولكننى يجب أن أنقذ نفسى - بكل وسيلة فى يدى - من أحد أنواع تعذيب النفس ، يجب ألا أفكر أبدا أن حياتى تفقد قيمتها لأنها ابتليت بإهمال ما . إن القيمة الكاملة لحياتى لا تذهب كلها ثمنا لعالمى البيتى الضيق ، فتجارتها العظيمة لا تنتعش ولا تهبط لنجاح تافه أو خيبة تافهة فى مقايضة مسراتى وأحزانى الشخصية .

لقد حان الوقت لأجرد بيمالا من كل زينة مثالية خلعتها عليها . لقد كان إفراطى فى هذه العبادة ناشئا عن ضعفى . كنت شديد الطمع ، فخلقت من بيمالا ملاكا لأضاعف سعادتى ، ولكن بيمالا هى كما هى ، وليس بمعقول أن تلبس لبوس ملاك لترضينى . ولا يلزم أن يمدنى الخالق بملائكة لأنى ظامىء إلى الكمال الخيالى .

يجب أن أعترف بأنى لم أكن إلا مصادفة فى حياة بيمالا . ولعل طبيعتها لا تستطيع أن تعرف الاتحاد الحقيقى إلا مع رجل مثل سنديب . على أنى لا أستطيع باسم التواضع الزائف أن أعد رفضى جزاء أستحقه . إن لسنديب ولا شك صفات جذابة كان لها سلطان علىّ أيضا . ولكننى أشعر يقينا أنه ليس رجلا أفضل منى

وإذا كان غار النصر نصيبه اليوم والإهمال لى ، فسوف يدعى مانح الغار ليوم الحساب .

إننى لا أقول هذا مفاخرا . لقد ألجأتنى الضرورة نفسها إلى حيث يجب أن أقرر كل قيمتى لأنقذ نفسى من الدمار الكامل – فلتقبل علىّ من خلال تجربة العذاب المخيفة فرحة الخلاص – الخلاص من شكى فى نفسى .

لقد وصلت إلى التمييز بين ما هو حقيقة فىّ وما كنت أتوهم غفلة منى أنه فىّ ، وسوى حساب الربح والخسارة ، وأصبح الباقى هو نفسى – لا نفسنا كسيحة مكسوة بالخرق والمزق ، ولا نفسا مريضة تغذى بطعام المرضى ، بل روحا خاضت أشد البلاء واستطاعت أن تعيش .

مر أستاذى بحجرتى منذ لحظة ، وقال ويده على كتفى : قم إلى فراشك يانيكهيل فقد تقدم الليل .

والواقع أنه أصبح من العسير علىّ أن آوى قبل أن يتأخر الوقت – أى قبل أن تستغرق بيمالا فى النوم . فنحن نتلاقى فى النهار ، وربما تحادثنا ، ولكن ماذا عساى قائلا لها حين ننفرد فى سكون الليل ، وبنفسى وجسمى ما بهما من الخجل ؟

سألت بدورى : وكيف بقيت ساهرا حتى الآن ياسيدى ؟ فابتسم شيخى قليلا وهو يتركنى قائلا : لقد انتهت أيام نومى ، وبلغت سن اليقظة .

كنت قد بلغت من الكتاب هذا الحد ، وهممت بالقيام لأذهب إلى الفراش حين رأيت سحاب تموز ينفرج غطاؤه الثقيل فجأة : فرجة صغيرة لمع فيها نجم كبير ، وكأنه يقول لى : مواثيق أرض الأحلام تبرم ، ومواثيق أرض الأحلام تنقضى ، ولكننى هنا أبدا ، المصباح الخالد لليلة العرس .

وامتلأ قلبى فجأة بفكرة أن حبى الخالد ينتظرنى صابرا خلال العصور ، خلف حجاب الأشياء المادية ، خلال حيوات كثيرة . فى مرايا كثيرة رأيت صورتها – مرايا مكسورة ، مرايا معوجة ، مرايا مغبرة . وكلما حاولت أن أجعل المرآة مرآتى أنا ، وأغلق عليها صندوقى ، غابت الصورة عن ناظرى . ولكن ماذا فى ذلك ؟ ماذا أصنع بالمرآة ، بل والصورة نفسها ؟

ياحبيبتى ، إن بسمتك لن تغيب أبدا ، وفى كل فجر سيظهر لى الطابع القانى بكرا على جبينك !

يهزأ شيطان مر ركنه المظلم : ياله من ملق صبيانى لخداع النفس ! ثرثرة حمقاء تبقى الأطفال هادئين .

قد يكون ذلك صحيحا ، ولكن ملايين وملايين من الأطفال بملايين من الصيحات يجب أن يبقوا هادئين . فهل يمكن أن يكون ما يُهدئ هذا الجمع كله كذبة ؟ كلا ، أن حبى الخالد لا يمكن أن تخدعنى ، لأنها حق !

إنها حق ، ولهذا رأيتها وسأراها كثيرا حتى فى أخطائى ، حتى فى أكثف غمامة من الدمع . لقد رأيتها وفقدتها فى زحمة سوق الحياة ، ووجدتها ثانية ، وسأجدها مرة أخرى عندما أنجو خلال ثغرة الموت .

آه ياحبيبتى القاسية ، لا تمضى فى لعبك بى ! إن كنت قد عجزت عن الاهتداء إليك بآثار خطاك على الطريق ، وعبق جدائلك فى الهواء فلا تجعلينى أبكى ذلك أبدا . النجمة المسفرة تأمرنى ألا أخاف ، فما هو أبدى لابد أن يكون موجودا دائما .

فلأذهب الآن ولأر بيمالا . لابد أنها قد مدت أعضاءها المتعبة على السرير ، مسترخية بعد طول جهادها ، واستغرقت فى النوم . سأترك قبلة على جبينها دون أن أوقظها ، لتكون قربان الزهر لعبادتى . أعتقد أنى أستطيع نسيان كل شىء بعد الموت ، كل أخطائى وكل عذاباتى ، ولكن صدى لذكرى هذه القبلة سوف يبقى ، فإن الإكليل الذى نسج من قبلات ولادات كثيرة متعاقبة سيتوج المحبوبة الخالدة .

عندما دقت الساعة الثانية دخلت زوجة أخى الحجرة ، وصاحت : « ماذا تصنع ياأخى العزيز [1] بالله قم إلى سريرك ولا تشغل بالك . إننى لا أطيق النظر إلى ذلك الظل المخيف من الألم على وجهك .. » . وفاضت الدموع من عينيها وهى تدعونى هذا الدعاء .

فلم أستطع أن أنبس بكلمة ، ولكنى مسحت التراب عن قدميها ومضيت لأنام .

(١) عندما تقوم رابطة بين شخصين بطريق الزواج أو التفاهم المشترك الناشىء عن صداقة أو مودة خاصة ، فإنهما لايناديان أحدهما الآخر بالاسم بل باللفظ الذى يدل على تلك العلاقة . (المترجم) .

- ٧ -

في مبدأ الأمر لم أكن أرتاب في شيء ولا أخاف شيئا ، إنما كنت أشعر أني منذورة لبلادي . وكم كان في ذلك التسليم المطلق من فرح عظيم ! ثم عرفت كيف يمكن أن يجد الإنسان السعادة القصوى في تمام تدميره لذاته .

مهما يكن من شيء فقد كان يمكن أن تنتهي لوثتي هذه نهاية تدريجية طبيعية . ولكن سنديب بابو لم يشأ ذلك . بل أصر على أن يكشف نفسه . أصبحت نبرة صوته حميمة كلمسة ، وكل نظرة تركع على ركبتيها مستجدية ، وفي ثنايا ذلك كله يتلهب شوقا كأنه يوشك من حدته أن يقتلعني من الجذور ، ويجرني من النوائب .

لن أروغ من الحقيقة . إن هذه الرغبة الجارفة كانت تجذبني نهاراً وليلا ، وكان ذلك التخريب لنفسي يبدو مغريا مهلك الإغراء . كم كان يبدو مخجلا ومروعا ، وحلوا على الرغم من ذلك ! ثم كان هناك تطلعي المستبد كأنه لا يقف عند حد . ذلك الرجل الذي لا أعلم عنه إلا القليل ، الذي لا يمكن أبدا أن يكون خالصا لي ، الذي يفور شبابه بمائة شعلة من اللهب .. آه ، أي سر في عواطفه الجياشة العريضة الصاخبة !

بدأت بشعور بالعبادة ، ولكن ذلك سرعان ما ذهب . حتى إنني لم أعد أحترم سنديب ، بل بدأت أحتقره . ولكن قيثارتي هذه المصنوعة من لحم ودم ، والمشكلة بوجداني وخيالي ، وجدت فيه عازفها البارع . ومع أنني كنت أنفر من لمسه ، بل أصبحت أكره القيثارة نفسها ، فقد ظلت أنغامها تستثار .

يجب أن أعترف بأنه كان فيّ شيء .. ماذا أقول ؟ .. شيء يجعلني أتمنى لو استطعت أن أموت !

إن تشاندرانات بابو يجيئني حين يتسع وقته لذلك . وله من القوة ما يرفع نفسي إلى قمة أستطيع منها أن أبصر حدود حياتي في لحظة واحدة وقد امتدت من كل جانب ، فأدرك أن الخطوط التي حسبتها حدودا لم تكن إلا أوهاما .

ولكن ما فائدة ذلك ؟ هل أرغب في التحرير حقا ؟ لكأني أدعو : ليأت الشقاء إلى بيتنا ؟ لينكمش أفضل ما فيّ ويسود ، على ألا تتركني هذه الفتنة .

عندما كنت أرى سلفا لي قبل زواجي – وقد مات الآن – مخمورا يضرب زوجته بجنون ثم يبكي ويجأر في ندم السكارى ، مقسما ألا يمس الشراب ثانية ، ولكنه يجلس في ليلة ليلعب الخمر عبا – كانت نفسي تمتلىء تقززا . بيد أن نشوتي اليوم أفظع ، والخمر لا تشترى ولا تسكب ، بل تنبع من عروقي ولا أستطيع لها صمودا .

هل يجب أن يستمر هذا إلى آخر أيامي ؟ إنني أنتبه مرة بعد مرة وأنظر إلى نفسي ، وأفكر أن حياتي كابوس سيختفي فجأة بكل ما فيه من مجافاة للحقيقة . لقد أصبحت متناقضة تناقضا مخيفا ، لا ارتباط لها بماضيها . أما ماذا تكون ، وكيف صارت إلى هذا المأزق ، فذلك ما لا أستطيع أن أفهمه .

ذات يوم قالت سلفتي بضحكة لاذعة : يا ما أكرم تشوتا راني التي عندنا ! إن ضيفها لايريد أن يتزحزح . في أيامنا كان هناك ضيوف أيضا ، ولكنهم كانوا لايجدون مثل هذا السخاء ، فقد كنا – يا لحمقنا ! – مشغولات بأزواجنا . إن أخي المسكين نيكهيل يغرم ثمن ميوله العصرية المسرفة . كان يجب أن يأتي ضيفا إن كان يريد البقاء ، أما الآن فالظاهر أنه قد آن الأوان ليرحل .. أيتها الشيطانة الصغيرة ! ألا تخزين مرة حين تقع عيناك على وجهه المعذب ؟

لم تنل مني هذه السخرية ، لعلمي أن هؤلاء النسوة لا يملكن القدرة على فهم كنه عبادتي . وكنت وقتئذ في درع واق من نشوة التضحية ، لا تستطيع مثل هذه السهام أن تنفذ منه لتخجلني .

- ٨ -

انتهى كل كلام عن قضية البلاد منذ بعض الوقت . وأصبح حديثنا فى هذه الأيام حافلا بمشكلات الجنس العصرية ، وشتى أمور أخرى مع شيء من الشعر فيه الفياشنافى القديم والإنجليزى الحديث ، يتخلله لحن خفى أجش الطبقة لم أسمع مثله فى حياتى من قبل ، وكأنه يصور نغمة الرجولة الحقة .. نغمة السلطان .

لقد جاء اليوم الذى انكشف فيه كل غطاء ، ولم يبق سبب ولا تعله لبقاء سنديب ، أو انفرادى وإياه فى الحديث كل حين . وشعرت بالسخط الشديد على نفسى وعلى سلفتى وعلى أحوال الدنيا ، وآليت ألا أذهب إلى الجناح الخارجى أبدا ولو كان فى ذلك موتى .

وأمضيت يومين كاملين دون أن أغادر مكانى . ثم تبينت للمرة الأولى إلى أى مدى أبعدت فى السير . فقد شعرت أن حياتى لا طعم لها . كنت كلما لمست شيئا أود أن أطرحه بعيدا ، وكنت أشعر بأنى أنتظر – من قمة رأسى إلى أطراف أصابعى – أنتظر شيئا ما ، إنسانا ما ، ودمى لا ينى ينبض بالتوقع .

حاولت أن أشغل نفسى بعمل زائد . كانت أرضية غرفة النوم نظيفة ، ولكنى أصررت على أن تغسل ثانية أمام عينى . وكانت الأشياء مرتبة فى الخزائن بنظام معين ، فأخرجتها جميعا وأعدت ترتيبها بنظام آخر . ولم أجد وقتا عصر ذلك اليوم حتى لتمشيط شعرى ، فعقدته دون أن أضفره ، ورحت أزعج الجميع ، وأثير المشكلات حول حجرة الخزين . وبدا أن ثمة نقصا فى المخزن ، وأن السرقة لابد كانت جارية على قدم وساق ، ولكنى لم أستطع أن أستجمع الشجاعة لمحاسبة شخص معين ، فقد كان يمكن أن تخطر هذه الفكرة فى عقل إنسان ما : « وأين كانت عيناك طوال هذه الأيام ! » .

خلاصة القول أنى تصرفت كالمجنونة فى ذلك اليوم . وفى اليوم التالى حاولت أن أقرأ . ولست أدرى ماذا قرأت ، ولكنى شعرت بعد نوبة من الذهول أنى شردت . والكتاب فى يدى ، عابرة الدهليز المؤدى إلى الجناح الخارجى ، وأصبحت واقفة

إلى جانب نافذة تطل على الشرفة الملاصقة لصف الحجرات على الجانب المقابل من المستطيل . وشعرت أن واحدة من هذه الحجرات قد عبرت إلى شاطىء آخر ، وقارب التعدية لم يعد يعمل . وشعرت أنى شبح لنفسى التى كنتها قبل يومين ، مقضى علىّ أن أظل حيث أنا ولست هناك فى الحقيقة ، ناظرة أبدا إلى بعيد نظرة فارغة .

وفيما أنا واقفة هناك رأيت سنديب يخرج من حجرته إلى الشرفة وفى يده صحيفة . واستطعت أن أرى على سيماه قلقا غير عادى ، وكأنما كان الفناء والحاجز الحديدى أمامه يثيران غضبه ؛ فألقى الصحيفة بعيدا فى حركة كأنها تريد أن تمزق الفضاء أمامه .

وشعرت أنى لم أعد أستطيع البر بقسمى ، وكنت موشكة أن أمضى نحو حجرة الجلوس حين وجدت سلفتى خلفى . صاحت وهى تدلف مبتعدة : « رباه ! لم يبق إلا هذا ! » ، ولم أستطع أن أتقدم إلى الجناح الخارجى .

وعندما جاءت وصيفتى تنادى فى الصباح التالى : « يا أمنا الرانى ، لقد حان الوقت لإخراج المئونة » ألقيت إليها بالمفاتيح قائلة : « قولى لهاريماتى تتولى الأمر » ، ومضيت أعمل فى قطعة من التطريز إنجليزية الرسم كنت متشاغلة بها ، وأنا جالسة قرب النافذة .

ثم جاء خادم برسالة ، قال « من سنديب بابو » . يا للجسارة ! ماذا عسى أن يظن الرسول ؟ كانت فى صدرى رعشة وأنا أفض الغلاف . لم يكن على الراسلة عنوان ، ولم يكن فيها إلا هذه الكلمات : « أمر عاجل – يتعلق بالقضية . سنديب » .

ألقيت بالتطريز جانبا ، وفى لحظة كنت على قدمى ، أسوى شعرى فى المرآة بلمسة أو لمستين . وأبقيت « السارى » الذى كان علىّ ، ولم أغير إلا مئزرى – فقد كان لأحد مآزرى ذكريات ،

وكان طريقى على شرفة تعودت سلفتى أن تجلس فيها صباحا تشقق جوز « التنبول » [(١)] فلم أتهيب ، وصاحت : إلى أين يا تشوتا رانى ؟

– إلى حجرة الجلوس فى الخارج .

– فى هذا الوقت المبكر ؟ « ماتينيه » هه ؟

وبينما كنت أمر دون أن أرد ثانية ، دندنت من ورائى بأغنية خليعة .

(١) نوع من الافاويه . (المترجم) .

- ٩ -

بينما كنت مقبلة على حجرة الجلوس رأيت سنديب عاكفا على دليل مصور للوحات الأكاديمية البريطانية ، وظهره إلى الباب ، وكان يعد نفسه خبيرا فى أمور الفن .

وذات يوم قال له زوجى : « إذا احتاج الفنانون إلى معلم فلن يعوزهم وأنت موجود » . ولم يكن من عادة زوجى أن يسخر ، ولكنه تغير فى الأيام الأخيرة ، ولم يعد يتجاوز لسنديب عن شيء .

ورد سنديب : ما الذى يجعلك تظن أن الفنانين غير محتاجين إلى معلمين ؟

فأجاب زوجى : الفن خلق . فينبغى أن نقنع شاكرين بتلقى دروسنا عن الفن من عمل الفنانين .

فضحك سنديب من هذا التواضع قائلا : أنت تحسب الخشوع رأس مال يزيد ثروتك كلما استعملته . ويقينى أن من تعوزهم الكبرياء يطفون كأعشاب الماء التى لا جذور لها فى الأرض .

وكانت نفسى تحفل بالمتناقضات حين يتكلمان على هذا النحو . فأنا شديدة الرغبة فى أن يفوز زوجى فى المناقشة وتستخذى كبرياء سنديب ، ولكن كبرياء سنديب هى التى تجتذبنى مع ذلك أيما اجتذاب . كانت تنير كماسة ثمينة لا تعرف الخجل ، بل تتألق فى وجه الشمس نفسها .

دخلت الحجرة . وكنت أعلم أن سنديب يستطيع أن يسمع وقع خطاى وأنا أتقدم ، ولكنه تظاهر بأنه لم يسمع ، وأبقى عينيه على الكتاب .

وكنت أخاف أحاديثه عن الفن ؛ لأنى لا أستطيع التغلب على حساسيتى نحو الصور التى يتحدث عنها ، والأشياء التى يقولها ، وكان يشق علىّ أن أتكلف الجمود لأخفى ألمى . لهذا كنت موشكة أن أعود أدراجى حين رفع سنديب عينيه وهو يزفر زفرة عميقة ، وتظاهر بالدهشة لرؤيتى وقال : آه لقد جئت !

كان في كلماته ونبرته وعينيه عالم من اللوم المكتوم ، وكأن حقوقه التي اكتسبها عليّ جعلت غيابي – ولو يومين أو ثلاثة – ظلما بليغا .

وعرفت أن في هذا المسلك إهانة لي ، ولكني – ويا للأسف ! – لم أجد القوة لأستنكره .

لم أجب ، ولكني – وإن نظرت إلى جهة أخرى – لم أستطع أن أفر من الشعور بأن نظرة سنديب الشاكية لا تبرح وجهي ، ولن تقبل حرمانا . وتمنيت لو يقول شيئا ما ، حتى أستطيع الاحتماء خلف كلماته . ولست أدري كم استمر ذلك ، ولكني أخيرا لم أطق احتماله ، فسألت : ما هذا الأمر الذي تريد أن تحدثني عنه ؟..

وتظاهر سنديب بالدهشة مرة أخرى وهو يقول : أمن اللازم أن يكون هناك دائما أمر ما ؟ هل الصداقة بذاتها جريمة ؟ أوه يا ملكتي ! كيف تستخفين بأعظم ما على الأرض ! هل تطرد عبادة القلب وكأنها كلب ضال ؟

ومرة أخرى شعرت بتلك الرغبة في باطني . كان في استطاعتي أن أحس باقتراب الأزمة ، ملحة بحيث يمكن إرجاؤها . تنازع السيادة فرح وخوف . سألت نفسي : هل تستطيع كتفاي احتمال صدمتها ، أم تتركني طريحة ووجهي في التراب ؟

كان جسمي كله يرتعد . وتماسكت بجهد وكررت : لقد دعوتني لأمر يتعلق بالقضية ، فتركت واجبات بيتي لأنظر فيه .

قال بضحكة جافة : هذا ما كنت أحاول شرحه . ألا تعلمين أني أجيء لأعبد ؟ ألم أخبرك أني أتمثل فيك روح بلادنا ؟ إن جغرافية بلد ما ليست كل الحقيقة ، لا أحد يمكنه أن يهب حياته لخريطة ! عندما أراك أمامي ، هنالك فقط أدرك كم أن بلادي جميلة . عندما تمسحينني بيديك سوف أعلم أن بلادي باركتني ، فإذا سقطت في الصراع وهذه البركة في قلبي فلن يتلقاني تراب أرض تصورها *الخرائط* . بل في ثوب نسائي منشور بحب . أتعلمين أي ثوب ؟ كذلك الساري الداكن الحمرة الذي كنت تلبسينه بالأمس ، ذي الحاشية الحمراء بلون الدم . هل أستطيع نسيانه أبدا ؟ مثل هذه الرؤى تمنح الحياة قوة ، والموت فرحا !

اشتعلت عينا سنديب وهو يتكلم ، ولكنني لم أر أكانت نار العبادة أم نار الانفعال . وتذكرت يوم سمعته يتكلم لأول مرة فلم أستطع أن أحكم أشخص هو أم شعلة حية ؟

لم أجد القوة لأنطق بكلمة واحدة . إنك لا تستطيع أن تحتمى بأسوار الاحتشام حين تثب النار فى لحظة لتدمر كل خزائن البخيل بلمعان سيفها وزئير ضحكها . وخفت أن ينسى نفسه ويمسك بيدى ، فقد كان يهتز كلسان مرتعش من نار ، وعيناه تمطراننى بشواظ محرق .

صاح بعد وقفة : أعازمة أنت أبدا أن تتخذى واجبات بيتك التافهة آلهة ، وأنت التى فى يدك أن تبعثينا إلى الحياة أو إلى الموت ؟ هل يجب أن تحجب قوتك هذه فى « زينانا » ؟ أضرع إليك أن تطرحى كل ادعاء للخجل بعيدا ، وتهزئى بالهمس الذى يحيط بنا وتقتحمى اليوم حرية العالم الخارجى .

عندما تمتزج فى دعوات سنديب عبادته للوطن بعبادته لى - هنالك يرقص دمى حقا ، وتترنح أسوار ترددى . إن أحاديثه عن الفن والجنس وتمييزه بين الواقع والزيف ، لم تكن إلا أقذاء منعت - بقبحها الكريه - ما هممت به من الاستجابة . ولكن هذه العبادة تشتعل الآن مرة أخرى بوهج يذوب أمامه اشمئزازى . شعرت أن طبيعتى النسائية المتألقة تجعلنى آلهة حقا . فلماذا لايشرق مجدها من جبينى بلألاء تجتليه العيون ؟ لماذا لا يجد صوتى كلمة ، صيحة مسموعة ، تكون رقية مقدسة لبلادى وهى تقتحم نار التطهير ؟

فجأة اندفعت وصيفتى « خيما » إلى الحجرة مشعثة صائحة : أعطينى أجرتى ودعينى أذهب . أبدا فى حياتى ما رأيت ..

وغرق باقى كلامها فى الدموع .

- ماذا جرى ؟

فظهر أن « ثاكو » وصيفة البارارانى قد سبتها سبا قبيحا بدون سبب . وعبثا حاولت تهدئتها بقولى إنى سأنظر فى الأمر فيما بعد .

لقد طفا وحل الحياة البيتية الراقد تحت شط اللوتس ، وكان لابد أن أسرع داخلة حتى لا يطيل سنديب النظر إليه .

- ١٠ -

كانت سلفتى عاكفة على جوزها ، يحوم حول شفتيها شبح ابتسامة ، وكأن شيئا لم يكن . وكانت لا تزال تدندن نفس الأغنية فانفجرت صائحة : لماذا شتمت خادمتك ثاكو خيما المسكينة ؟

- حقا : الملعونة ! سأجلعهم يكنسونها من المنزل بمكنسة . يا للخجل ! تفسد عليك زيارتك الصباحية هكذا ؟ وخيما ؟ أين أدب هذه البنت حين تذهب وتزعجك وأنت مشغولة ؟ على كل حال لا تشغلى نفسك بمشاجرات الخدم ياتشوتا رانى ، دعيها لى ، وعودى إلى صديقك .

ما أسرع ما تتحول الرياح فى قلوع عقولنا ! لقد بدا خروجى لمقابلة سنديب فى ضوء قانون « الزينانا » أمرا شاذا خارقا للعادة ، حتى إننى ذهبت إلى حجرتى وأنا لا أدرى بماذا أجيب . وأدركت أن سلفتى هى التى دبرت الأمر ، وحرضت خادمتها لتثير هذه المشاجرة ، ولكننى كنت فى حالة من الاضطراب لم أجرؤ معها على الرد .

أجل ، لقد تبينت منذ أيام قليلة أنى لا أستطيع المضى إلى النهاية فى كبريائى العنيدة حين طلبت من زوجى أن يفصل الرجل نانكو . وشعرت بالخجل فجأة حين جاءت البارا رانى وقالت : « إننى أنا المخطئة يا أخى العزيز . نحن ناس من النوع القديم وأحوال صديقك سنديب بابو لم تعجبنى ، فأمرت الحارس .. ولكن من أين أعلم أن تشوتا رانى ستعد هذا إهانة – كنت أظن العكس ! هى بلاهتى التى لايمكن إصلاحها ! » .

إن الشىء الذى يبدو مجيدا حين ينظر إليه من قمم القضية الوطنية ، يبدو موحلا حين ينظر إليه من القاع . فى أول الأمر نغضب وبعد ذلك نشمئز .

حبست نفسى فى حجرتى ، وجلست إلى النافذة أفكر كم تغدو الحياة سهلة لو استطاع الإنسان أن يعيش فى تناغم مع ما يحيط به . بأى يسر تجلس الرانى الكبرى فى شرفتها مع جوزها ، وكم أصبح مقعدى الطبيعى بجانب واجباتى اليومية عسيرا علىّ ! وسألت نفسى : إلام ينتهى كل هذا ؟ هل أفيق يوما وأنسى كل شىء ،

كما لو كنت فى بحران ، أم أسحب إلى أعماق لا نجاة منها فى هذه الحياة ؟ وأنّى أستطعت أن أضيع طالعي الحسن ، وأفسد حياتى هذا الفساد ؟ إن كل حائط فى مخدعى هذا الذى دخلته عروسا منذ تسع سنين يحدق فى مذعورا .

عندما عاد زوجى إلى البيت بعد امتحان الماجستير أحضر لى شجرة « الأوركيد » هذه التى تنتسب إلى بلد بعيد وراء البحار . ومن تحت هذه الأوراق الصغيرة القليلة نبع شلال من الزهر كأنما كان يصب من كأس جمال مقلوبة . وقررنا معا أن نعلقها هنا فوق هذه النافذة . إنها لم تزهر غير تلك المرة ، ولكننا ظللنا نأمل أن تزهر مرة أخرى ، والعجيب أنى واظبت على سقيها فى هذه الأيام بحكم العادة ، وأنها لا تزال خضراء . مضت أربع سنوات منذ صنعت إطارا من العاج لصورة زوجى ووضعته فى تلك الفجوة . إذا حانت منى نظرة إلى تلك الناحية فلابد أن أنكس عينى . حتى الأسبوع الماضى كنت أضع هناك زهور عبادتى دائما كل صباح بعد الحمام ، وكثيرا ما ويخنى زوجى على هذا ، ويوما قال لى : إنى أخجل إذ أراك ترفعيننى إلى مكان لا أستحقه .

– هذا غير صحيح ! ..

– لست خجلا فقط ، بل أنا أيضا غيران !

– ماذا تقول ؟ وممن تراك غيران ؟

– من هذه الصورة الكاذبة لى . إنها لا تدل إلا على أنى أتفه مما ينبغى لك ، وأنك تريدين رجلا خارقا يستحوذ عليك بسطوته ، ولهذا لابد لك أن تلجئى إلى اصطناع صوة أخرى منى .

قلت : مثل هذا الكلام يغضبنى .

فأجاب : ولماذا تغضبين منى ؟ لومى نصيبك الذى لم يدع لك خيارا ، بل جعلك تأخذينى مغمضة العينين . فهذا ما يجعلك تدابين على إصلاح غلطته بأن تصنعى منى مثالا للكمال .

وساءتنى هذه الفكرة وحدها حتى إن الدموع جالت فى عينى ذلك اليوم . وكلما فكرت فى ذلك الآن لم أستطع أن أرفع عينى إلى الفجوة .

فثمة الآن صوة أخرى فى صندوق حلى . منذ أيام كنت أرتب حجرة الجلوس فأخذت ذلك الإطار المزدوج الذى يضم صورة بسنديب وصورة زوجى . إننى لا أقدم

لهذه الصورة زهور العبادة ، ولكنها تبقى مخبوءة تحت جواهرى ، و لها مزيد من السحر لأنها تبقى بسرا . إننى أنظر إليها بين الحين والحين والأبواب مغلقة . وبالليل أضيء المصباح ، وأجلس وهى فى يدى أنظر وأنظر ، وكل ليلة أفكر فى أن أحرقها فى شعلة المصباح لأخلص منها إلى الأبد ، ولكنى كل ليلة أتنهد وأكتمها ثانية بين لآلئى وماساتى .

يالك من امرأة تعيسة ! أى ثروة من الحب لفت حول كل واحدة من هذه الجواهر ! أوه ، لماذا لا أموت ؟

لقد أوحى إلى سنديب أن التردد ليس من طبيعة المرأة . ليس لليمين ولا للشمال وجود عندها ، فهى إنما تتحرك إلى الأمام . وكان يكرر ويلح أن نساء بلادنا متى استيقظن فسوف يكون صوتهن ثابتا واثقا إذ يصيح : « أريد .. » .

ومضى سنديب يقول ذات يوم : « أريد ! » هذه كانت الكلمة الأولى عند بدء الخليقة . لم يكن لديها حكمة تسترشد بها ، ولكنها أصبحت نارا وصنعت من نفسها شموسا ونجوما . إنها مخيفة إذ تحابى ، فلرغبتها فى الإنسان لم تبال أن ضحت بملايين الوحوش ملايين السنين لتحقق تلك الرغبة . هذه الكلمة المخيفة « أريد » قد تجسمت فى المرأة ، ولهذا يحاول الرجال الجبناء بكل قوتهم أن يحجزوا هذا الفيضان الأبدى بسدودهم الطينية ، فهم يخافون أن يكسح فى طريقه الضاحك الراقص كل سياج وعماد فى حقل القرع الذى زرعوه . يقول رجال كل عصر لأنفسهم راضين . إنهم قد كبحوا هذه القوة داخل حدود منافعهم ولكنها تتجمع وتنمو . إنها الآن ساكنة عميقة كالبحيرة ، ولكن ضغطها سيزداد شيئا فشيئا ، وستنهار السدود ، وتندفع القوة التى ظلت خرساء هذا الأمد الطويل صائحة ، زائرة « أريد ! » .

إن كلمات سنديب هذه ليتردد صداها فى دقات قلبى كطبلة حرب . إنها لتفحم كل صراعاتى مع نفسى . ماذا علىّ مما يقوله الناس عنى ؟ ما قيمة تلك الأوركيدة وتلك الفجوة فى مخدعى ؟ أى سلطان لها حتى تحقرنى وتزدرينى ؟ إن نار الخلق الأبدية تشتعل فىّ .

شعرت برغبة غاتية فى أن أنتزع الأوركيدة وأرميها من النافذة ، وأجرد الفجوة من صورتها ، وأكشف عن روح التدمير الجسور التى هاجت فى باطنى . وارتفعت ذراعى لأفعل ذلك ، ولكن شكة مفاجئة اخترقت صدرى ، وجالت الدموع فى عينى ، فارتميت منتحبة : « ما آخر كل هذا ؟ ما آخر كل هذا ؟ » .

حكاية سنديب

- ٤ -

حين أقرأ هذه الصفحات من قصة حياتي أسأل نفسي جادا : أهذا سنديب ؟ أمجبول أنا من كلمات ؟ أما أنا غير كتاب له جلد من لحم ودم ؟

إن الأرض ليست شيئا ميتا كالقمر . إنها تتنفس . أنهارها ومحيطاتها تبعث الأبخرة التي تكتسي بها . وعليها عباءة من غبارها الذي يطير في الهواء . والناظر إلى الأرض من خارج لا يمكنه أن يرى إلا النور الذي يعكسه هذا البخار وهذا الغبار فجدد القارات العظائم لاتبين .

والإنسان الحي كهذه الأرض مغلف مثلها أبدا بضبابة الأفكار التي يتنفسها . فأرضه وماؤه الحقيقيان يبقيان محجوبين ، ويبدو أنه لم يصنع إلا من أضواء وظلال .

لكأني في قصة حياتي هذه كوكب حي ، أبدي صورة عالم مثالي . ولكنني لست ما أريده وما أفكر فيه فحسب - بل أنا أيضا ما لا أحبه ولا أريد أن أكونه . وقد بدأ خلقي قبل أن أولد ، ولم يكن لي خيار فيما يحيط بي ، ولهذا يجب أن أحسن الانتفاع بما يقع في يدي .

إن نظريتي في الحياة تجعلني على يقين أن العظيم قاس . أن تكون عادلا فذلك ما يصلح للرجال العاديين ، أما العظماء فقد خصوا بالظلم . كان سطح الأرض مستويا فضربه البركان بقرنه الناري وبرز بروزه - لم يكن عادلا مع ما عاقه ، ولكنه كان عادلا مع نفسه . والظلم الناجح والقسوة الأصيلة هما القوتان الوحيدتان اللتان يصبح بفضلهما الفرد أو المجموع مليونيرا أو ملكا .

لهذا أدعو إلى المبدأ العظيم ، مبدأ الظلم . وأقول لكل أحد : الخلاص قائم على الظلم . الظلم هو النار التي يجب أن تكون دائما في إحراق شيء حتى تنقذ نفسها من أن تصير رمادا . وكلما عجز فرد أو أمة عن ارتكاب الظلم جرفا إلى مزبلة العالم .

على أن هذه لاتزال فكرتي فقط . فهي ليست نفسي كاملة . وهناك شقوق في الدرع يطل منها شيء شديد الطراوة ، شديد الحساسية ؛ لأن الجزء الأكبر من نفسي - كما قلت - مخلوق من قبل أن آتي إلى هذا الطور من أطوار الوجود .

إننى أختبر أتباعى ، من حين إلى حين ، فى درس القسوة الذى تعلموه . ذات يوم خرجنا فى رحلة ، وكانت ثمة عنزة ترعى . فسألتهم : من منكم يقدر أن يقطع ساقا من هذه العنزة وهى حية بهذا السكين ويحضرها إلىّ ؟ ولما ترددوا جميعا ذهبت أنا وفعلت ذلك فغشى على أحدهم ، ولكنهم حين رأونى لم أتأثر مسحوا التراب عن قدمى قائلين إننى فوق كل ضعف بشرى . ومعنى ذلك أنهم رأوا فى ذلك اليوم غلاف البخار الذى هو فكرتى ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يلمحوا نفسى الباطنة ، التى شاءت نزوة غريبة من نزوات القدر أن تخلق رقيقة رحيمة .

هناك أيضا أشياء كثيرة لا تزال ترقد مختفية فى هذا الفصل الحاضر من قصة حياتى ؛ حيث يزداد الاهتمام كل يوم بيمالا ونيكهيل . إن مرض الأفكار الذى أعانيه يشكل حياتى الباطنة ، غير أن قسما كبيرا من حياتى لايزال خارجا عن تأثيرها ، ولذلك يقوم نوع من التنافر بين حياتى الخارجية وشكلها الداخلى الذى أحاول جهدى أن أبقيه مختفيا عن نفسى ، حتى لا يحطم خططى ، بل حياتى نفسها .

إن الحياة غير محدودة – إنها حزمة من المتناقضات . ونحن البشر نجاهد بأفكارنا لنعطيها شكلا معينا بأن نصهرها فى قالب معين ، هو قالب النجاح المحدود . فكل غزاة العالم من الإسكندر إلى أصحاب الملايين الأمريكيين يطبعون من أنفسهم سيفا أو دارا لسك النقود ، وبذلك يجدون تلك الصورة الواضحة من أنفسهم ، التى هى مصدر نجاحهم .

والخلاف الرئيسى بينى وبين نيكهيل ينبع من هذا : أنه وإن قلت : « اعرف نفسك » كما يقول نيكهيل : « اعرف نفسك » ، فتفسيره يجعل هذه « المعرفة » مساوية « لعدم المعرفة » .

اعترض علىّ نيكهيل مرة قائلا : إن كسب النجاح الذى تريده لنجاح تغرم الروح ثمنه ، ولكن الروح أعظم من النجاح .

فلم أزد فى جوابه على أن قلت : إن كلماتك مسرفة الغموض .

فأجاب نيكهيل : لا حيلة لى فى ذلك . إن الآلة واضحة ، ولا كذلك الحياة . إن أردت أن تعرف الحياة على أنها آلة لتنال الوضوح فمثل هذا الوضوح المجرد لا يقوم مقام الحقيقة . أن الروح ليست واضحة كوضوح النجاح ، ولذلك فأنت لا تزيد على أن تسخر روحك حتى تلتمسها فى نجاحك .

– وأين إذن هذه الروح العجيبة ؟

– حين تعرف نفسها في اللامحدود ، وتسمو فوق نجاحها .

– ولكن ماعلاقة هذا كله بعملنا من أجل البلاد ؟

– إن الأمر واحد ؛ حيث تجعل بلادنا نفسها هي الغرض النهائي تكسب النجاح على حساب الروح . وحيث تعترف بالأكبر على أنه أكبر من كل شيء ؛ فهناك قد لا تصيب النجاح ولكنها تكسب روحها .

– أفي التاريخ مثل على هذا ؟

– إن عظمة الإنسان تجعل في مقدوره أن يزدرى لا التاريخ وحده بل المثل أيضا . لعل المثل غير موجود ، كما أنه لا مثل للزهرة الكامنة في البذرة . ولكن اندفاع الزهرة قائم في البذرة على كل حال .

ليست القضية أني لا أستطيع أن أفهم وجهة نظر نيكهيل فهما ، بل إن الخطر يكمن هنا . لقد ولدت في الهند ، وإن سمو روحانيتها ليجرى في دمي ، ومهما أرفع صوتي معلنا جنون السير في طريقى إنكار الذات فإنى لا أستطيع أن أبتعد عنه كل الابتعاد .

هكذا تحدث مثل تلك الشواذ الغريبة في بلادنا اليوم . يجب أن يكون لنا ديننا ووطنيتنا في الوقت نفسه . « بهاجا فادجيتا » و « باندى ماترم » . والنتيجة هي الضرر لكليهما . كما تعزف فرقة موسيقى عسكرية إنجليزية بجانب أنابيبنا الهندية . يجب أن أجعل غرض حياتي هو القضاء على هذا الخلط الفظيع .

أريد أن يسود الطراز العسكري الغربي لا الطراز الهندى . وإذن لانخجل من راية انفعالنا التي أرسلتها معنا أمنا الطبيعة لتكون علمنا في معركة الحياة . الانفعال جميل ونقى . نقى كالزنبقة التي تطلع في الوحل . إنها تستعلى على أوضارها ولا تحتاج إلى صابون لتنظيفها .

- ٥ -

كان يقلقنى فى الأيام القليلة الماضية سؤال : لماذا أدع حياتى تتشابك مع حياة بيمالا ؟ أخشبة تائهة أنا ليستوقفنى كل عائق ؟

ليس الأمر أمر خجل زائف أن تكون بيمالا هدفا لرغبتى . إنها تريدنى ولا خفاء بذلك ، ولذا أعدها لى حقا مشروعا . إن الثمرة تتدلى على غصن بجانب الجذع ، ولكن ذلك لا يصلح سببا لأن يدعيها الجذع لنفسه أبدا . ولن تبقى الثمرة الناضجة إلى الأبد تقسم بقبضة جذعها المتراخية . لقد تجمعت كل حلاوتها من أجلى ، واستسلامها ليدى هو . وجودها وكنه طبيعتها ، وصريح خليقتها . وإذن فيجب أن أقطفها ؛ لأنه لا يجدر بى أن أجعلها تذهب عبثا . على أن الذى يغيظنى هو أنى بدأت أتخبط . ألم أولد لأحكم ؟ لأركب جوادى الحقيقى ، الجماهير ، وأسوقه كيف أريد، العنان فى يدى ، والغاية معروفة لى وحدى ، وله الشوك والوحل على الطريق ؟ هذا الجواد ينتظرنى الآن عند الباب ، يفحص بقدميه ويعلك لجامه ، وصهيله يملأ السماء ، ولكن أين أنا ، وبم أشتغل ، تاركا الفرصة الذهبية تمر يوما بعد يوم ؟

كنت أفكر أنى أشبه عاصفة ، وأن الزهور الممزقة التى نثرتها على طريقى لن تعوق قدمى . ولكننى لا أنفك أدور حول زهرة واحدة كأنى نحلة لا عاصفة . إذن فلون الأفكار الذى يعطيه المرء لنفسه ليس إلا شيئا ظاهريا كما قلت من قبل . والإنسان الجوانى يظل عاديا كشأنه أبدا . ولو جاء إنسان ليكتب سيرتى ، وعرف دخيلة نفسى ، لجعلنى لا أختلف عن ذلك الأحمق بانشو ، بل ولا عن نيكهيل .

كنت فى الليلة البارحة أقلب صفحات يومياتى القديمة . . إننى حديث عهد بالتخرج ، رأسى يوشك أن ينفجر من الفلسفة وحتى فى ذلك العهد المبكر كنت قد آليت على نفسى ألا أستسلم لوهم من الأوهام ، سواء أكان من صنعى أم من صنع غيرى ، بل أبنى حياتى على أساس مكين من الواقع . ولكن ماذا كانت قصتها الحقيقية من بعد؟ أين بناؤها المكين ؟ لقد كانت أقرب إلى شبكة ، أن اتصلت خيوطها فمعظم مساحتها ثقوب . ومهما أحارب فلن تعرف هذه بالهزيمة . هأنذا قد وقت فى شرك ثقب

بينما كنت أهيىء نفسى بأنى أسير مستقيما على الخيط ! لقد أصبحت عرضة لتأنيب الضمير .

« أنا أريد هذا الشىء ، وهو هنا ، فلآخذه » . إن هذه سياسة صريحة محددة ، من يتبعها بهمة فلابد أن يكسب أخيرا . ولكن الآلهة لايريدون أن تكون مثل هذه الرحلة سهلة ، ولذلك أوقدوا حورية البحر « الشفقة » لتضل المسافر ، لتغشى بصره بضبابها الباكى .

لا يغيب عنى أن بيمالا تصارع كظبية فى الحبائل . أى خوف يستدر العطف فى عينيها ! وكم يمزقها الجهد ، إذ تحاول التخلص من قيودها ! نعم . إن هذا المنظر ينبغى أن يسر قلب الصياد الحقيقى : وإنى لمسرور ، ولكنى أشعر بالإشفاق أيضا ، ولهذا أضيع الوقت ، وأقف على الحافة مترددا فى أن أجذب الأنشوطة لتزداد أطباقا .

أعلم أن لحظات مرت كان يمكننى فيها أن أهجم عليها وأمسك يديها وأضمها إلى صدرى دون أن تقاوم . ولو فعلت ذلك لما قالت كلمة واحدة . فقد كانت تعلم أن ثمة أزمة تقترب لتغير معنى العالم كله فى لحظة . وكان وجهها يشحب وعيناها تومضان بنشوة مخيفة وهى واقفة أمام ذلك الكهف ، كهف المجهول الذى لا يمكن تقديره وإن كان منتظرا . حين تجىء تلك اللحظة يتشكل فيها أبدا ، ينتظر مصيرنا ممسكا أنفاسه .

ولكننى تركت تلك اللحظة تمر . لم أحول ، بقوة نافذة ، ما يوشك أن يكون يقينا إلى قضاء مبرم . وإنى لا أرى الآن فى وضوح أن ثمة عناصر خفية فى طبيعتى قد احتشدت جهرة لتعوق طريقى .

هكذا لقى « رافانا » حتفه ، وهو فى نظرى البطل الحقيقى « للرامايانا » ، قد استبقى « سيتا » فى جنة أسوكا منتظرا آية رضاها ، ولم يأخذها على الفور إلى حريمه . إن هذا المغمز الوحيد فى شخصيته العظيمة يجعل قصة الاختطاف كلها عبثا . ومثل هذا التورع جعله يغمض عن أخيه الخائن بيبهيسان ، ويظهر الرأفة به ، ليجد نفسه مقتولا جزاء له على مجهوده .

وهكذا تأتى المأساة فى الحياة من تلقاء نفسها . فى أول الأمر ترقد كالشىء الصغير فى قبو مظلم ، وفى آخر الأمر تهدم البناء كله . إن المأساة الحقيقية هى أن الانسان لا يعرف نفسه على حقيقتها .

- ٦ -

ثم هناك نيكهيل . فمهما يكن من بلاهته ، ومهما أسخر منه فإنى لا أستطيع التخلص من فكرة أنه صديقى . وقد كنت لا أبالى بوجهة نظره فى أول الأمر، ولكنها بدأت تخجلنى وتؤذينى أخيرا . لهذا أحاول أن أكلمه وأناقشه بحماستى القديمة ، ولكننى لا أجد فيها رنة الصدق ، بل إنها تقودنى أحيانا إلى مدى من التكلف أتظاهر معه بأنى أوافقه . ولكن مثل هذا التكلف ليس فى طبيعتى ولا فى طبيعة نيكهيل . فبيننا اشتراك فى هذه الناحية على الأقل ، ولذلك أصبحت أفضل – فى هذه الأيام – ألا ألتقى به ، وتعودت أن أتجنب محضره .

وهذه كلها آيات ضعف . فإنك لا تكاد تسلم بإمكان الخطأ حتى يصبح قائما ويمسك بتلابيك مهما تحاول أن تنفض عنك كل إيمان به . والشىء الذى أتمنى لو أستطيع قوله لنيكهيل فى صراحة هو أن مثل هذه الحوادث يجب أن تواجه دون مواربة – على أنها أمور واقعية عظيمة – وأن ما هو حق ينبغى ألا يسمح له بأن يقف بين صديقين .

لاريب أنى ضعفت . ولم يكن هذا الضعف هو الذى استمال بيمالا . لقد أحرقت جناحيها فى لهب عنفوان رجولتى التى لا تتردد . وكلما حجب الدخان وهجها اضطربت هى وتراجعت . ثم يأتى انقلاب تام فى الشعور حتى لتود لو تسترد العقد الذى طوقت به عنقى ، ولكنها لا تستطيع ، فتكتفى بأن تغمض عينيها لكيلا تراه .

ولكننى يجب ألا أحيد عن الطريق الذى رسمته . لا يجوز أن أتخلى عن قضية البلاد أبدا ، ولا سيما فى الوقت الحاضر . فلتكن بيمالا وبلادى شيئا واحدا . إن الريح الغربية العاتية التى أزالت برقع الضمير عن بلادى ستزيل أيضا برقع الزوجة عن وجه بيمالا ، ولن يكون ثمة خجل فى ذلك الكشف . وستهتز السفينة وهى تحمل الجمع الكبير على المحيط رافعة راية « باندى ماترم » ، وستكون مهدا لقوتى وحبى جميعا .

سترى بيمالا صورة للخلاص فيها من الجلال ما يجعل قيودها تنزلق عنها بلا خجل ، بل دون أن تشعر بها . سيسحرها جمال هذه القوة المخربة المخيفة فلا تتردد

لحظة فى أن تكون قاسية . لقد رأيت فى طبيعة بيمالا تلك القسوة التى هى القوة الكامنة فى الوجود ، تلك القسوة التى تبقى على الحياة جمالها بما لها من قوة لا تلين .

لو حررت النساء من الأغلال المصنوعة التى وضعها الرجال حولهن لرأينا على الأرض الصورة الحية « لكالى » تلك الالهة التى لا تخجل ولا ترحم . إننى من عبدة كالى ، وسأتعبد لها حقا فى يوم من الأيام واضعا بيمالا على مذبح تخريبها ؛ فلأتأهب لذلك .

إن طريق التراجع مسدود أمام كلينا . سنتناهب ونتباغض ، ولكننا أبدا لن نعود أحرارا .

الفصل الخامس

حكاية نيكهيل

- ٤ -

كل شيء يرتكض ويتموج في فيض آب . شط الأرز له نضرة أطراف طفل رضيع ، والماء قد غزا الحديقة المجاورة لمنزلنا ، ونور الصباح مهراق على الأرض كأنه حب السماء الزرقاء ، فلماذا لا أقدر أن أغنى ؟ ماء النهر البعيد يرعش النور ، وأوراق الأشجار تتلألأ ، وحقول الأرز تتتابها رعدات فيندلع منها لمعان الذهب ، وفى سيمفونية الخريف هذه لايبقى صامتا إلا أنا . إن إشراق العالم يصيب قلبى ، ولكنه لا ينعكس منه .

وحين أدرك عجزى عن الإفصاح أعلم سبب حرمانى . فمنذا الذى يستطيع أن يتحمل صحبتى ليل نهار بغير انقطاع ؟ إن بيمالا منعمة بطاقة الحياة ، ولهذا لم أجدها تافهة قط فى لحظة واحدة طوال هذه السنوات التسع من زواجنا . أما حياتى فليس لها إلا أعماقها الخرس ، ولكن دون همهمة الجريان . فى مقدورى أن أتلقى الحركة لا أن أبعثها ، ولهذا فإن صحبتى كالصوم . وإنى لأدرك اليوم فى وضوح أن بيمالا كانت تنوى لجوعها إلى الصحبة .

إذن فمن ألوم ؟ إننى مثل فدياباتى لا أستطيع إلا أن أندب :

« آب أتى والسماء تنهل ،

وا حسرتاه ! منزلى خالٍ » .

وإنى لأرى الآن أن منزلى قد بنى ليبقى خاليا ، فأبوابه لا يمكن أن تفتح . ولكننى لم أعلم قط قبل اليوم أن معبودته كانت تجلس فى خارجه . لقد هدهدت اليقين بأنها قبلت قربانى ، وكافأتنى بنعمتها . لكن وا حسرتاه ! أن منزلى كان خاليا أبدا .

كان من عادتنا فى مثل هذا الوقت من كل عام أن نذهب فى عوامة إلى بحيرة ساملدا . وكنت أقول لبيمالا إنه لابد لكل أغنية من « مذهب » يتردد كل حين ، والمذهب الأصيل لكل أغنية هو فى الطبيعة حيث تمر الريح المحملة بالمطر على النهر المرتكض ، وتسبغ الأرض الخضراء قناعها المنمنم على وجهها لتصغى إلى حديث الماء . هناك فى مطلع الزمان التقى رجل وامرأة ، لم تحجبهما جدران . وهناك يجب أن نرجع نحن الاثنان إلى الطبيعة ، على الأقل مرة كل عام ، لنوقع حبنا من جديد على النغمة الصافية الأولى لالتقاء قلبين .

لقد قضيت العيدين الأولين لذكرى زواجنا فى كلكتا حيث كنت أؤدى امتحانى . ولكننا لم نقطع طوال السنوات السبع التالية عن الاحتفال بقراننا بين زهور النيلوفر المتفتحة . والآن يبدأ المقطع التالى فى حياتى .

كان من العسير على أن أتجاهل أن شهر آب نفسه قد عاد من جديد هذا العام . ترى هل تذكره بيمالا ؟ إنها لم تذكرنى به . وكل شىء حولى صامت .

« آب أتى والسماء تنهل ،

واحسرتاه ! منزلى خال » .

إن المنزل الذى خلا بافتراق الحبيبين تظل فى قلب فراغه موسيقى . ولكن المنزل الذى خلا ؛ لأن القلبين انقسما يكون مخيفا فى صمته . حتى صرخة الألم لا مكان لها هناك .

صرخة الألم هذه يجب أن أسكتها فىّ ، فلن تعرف بيمالا الحرية الحقيقية ما بقيت أتعذب ، ويجب أن أحررها تماما وإلا فلن أنال أنا حريتى من الزيف .

أحسبنى قد أوشكت أن أفهم شيئا واحدا ، أن الإنسان قد أذكى شعلة الحب بين الرجال والنساء حتى جعلها تتجاوز مجالها الحق ، وهو الآن عاجز عن أن يعيدها إلى سيطرته ولو باسم الانسانية نفسها . إن عبادة الانسان قد جعلت من عاطفته صنما ، ولكن يجب ألا نقدم قرابين إنسانية جديدة على مذبح ذلك الصنم .

دخلت مخدعى هذا الصباح لأحضر كتابا . ولم أكن قد دخلته بالنهار منذ زمن طويل ، فسرت فى وخزة ألم وأنا أجيل النظر فيه اليوم فى ضوء الصبح . كان على رف الملابس « سارى » لبيمالا ، مهيأ للبس ، وعلى منضدة الزينة عطورها ومشطها ودبابيس شعرها ، ومعها – لايزال صندوق الدهان القانى ! وأسفل منها كوثها الصغير الموشى بالذهب .

وكنت فى الأيام الخالية قد أحضرت هذا الكوث لبيمالا من لكنو لأغريها به حين لم تكن قد تغلبت بعد على كرهها للأحذية : وفى المرة الأولى كادت تهوى خجلا أن تخرج به ولو من الحجرة إلى الشرفة وقد أبلت بعد ذلك أحذية كثيرة ، ولكنها حافظت على هذا الزوج . وحين أريتها الكوث لأول مرة قلت لها مازحا : لقد ضبطتك تمسحين التراب عن قدمى وأنت تحسبيننى نائما ! إليك قربان عبادتى ليمنع التراب قدمى معبودتى الساحرة ».

فقالت مستنكرة : يجب ألا تقول مثل هذا الكلام . وإلا فلن ألبس أحذيتك ! » .

إن مخدعى هذا له جو خفى ينفذ إلى قلبى . وما شعرت قط مثلما أشعر اليوم كيف يبعث قلبى الظامى جذوره لتلتف حول كل قطعة مألوفة ، وإنى لأرى قطع الجذر الأصلى غير كاف لأن يطلق للحياة حريتها ، فحتى هذا الكوث الصغير يشد المرء إلى الوراء .

وتقع عيناى السائحتان على الفجوة . صورتى هناك تنظر كما كانت تنظر دائما ، وإن كانت الزهور المنثورة حولها قد ذبلت واسودت ، أشعر بالصدق فى تحيتها وحدها دون سائر الأشياء فى الحجرة . إنها لم تبق هنا إلا إهمالا لأمر إزالتها . لابأس ، فلأرحب بالصدق وإن جاء فى هذا الرداء الكالح الكئيب ، ولأتطلع إلى الوقت الذى أستطيع فيه أن أرحب ولا أهتز ، كما ترحب صورتى .

بينما كنت واقفا هناك جاءت بيمالا من خلفى . فحولت عينى من الكوة إلى الرفوف مسرعا وأنا أتمتم : « جئت لآخذ يوميات أميل » . فيم التطوع بتفسير ؟ لقد أحسست أنى مذنب وأغل ، أتدسس إلى سر لإيراد أن أطلع عليه . ولم أستطع أن أنظر إلى وجه بيمالا بل أسرعت خارجا .

- ٧ -

كنت قد اكتشفت أن تظاهرى بالقراءة فى حجرتى الخارجية عبث ، وأنه فى غير مقدورى كذلك أن أشغل نفسى بشىء ما - وبدا أن أيامى المستقبلية كلها سوف تتجمد فى كتلة واحدة صلبة وترزح على صدرى إلى الأبد - عندما قدم إلى بانشو الذى يعمل مزارعا عند أحد ملاك الأراضى القريبين ، ومعه سلة من جوز الهند ، وحيانى بانحناءة عميقة فقلت : حسنا يا بانشو ، لِمَ كل هذا ؟

- كيف ؟ ما الأمر ؟

- فلأصرح لك بالحق ياسيدى . مرة كنت فى ضائقة ، فسرقت بعض ثمار الجوز من الحديقة هنا ، إنى كبرت ، وقد يأتينى الموت فى أى يوم ، ولهذا جئت أردها .

لم أحظ بطائل من يوميات أميل فى ذلك اليوم ، ولكن كلمات بانشو أنعشت قلبى . إن فى الحياة أشياء كثيرة غير اجتماع رجل وامرأة أو افتراقهما . فالعالم الكبير يمتد بعيدا وراء ذلك ، ولا يستطيع المرء أن يقيس مسراته وأحزانه حقا إلا حين يقف فى وسطه .

كان بانشو شديد الولاء لأستاذى . وإنى لأعلم كيف يكدح ليحصل على رزقه . إنه يستيقظ كل يوم قبل الفجر ويخوض فى مياه المستنقع التى تبلغ الركبتين حاملاً سلة مليئة بأوراق « البان » وقطع التبغ وخيوط القطن الملونة والأمشاط والمرايا وسائر الطرف التى تحبها نساء القرى ، ويذهب إلى أحياء « الناماسودرا » (١) فحيث يقايض بضائعه بأرز فيحصل على مقدار أزيد قليلا من ثمنها نقودا . وإذا أمكنه الرجوع مبكرا فإنه يخرج ثانية بعد أن يتناول وجبة سريعة ليذهب إلى بائع الحلوى حيث يساعد فى دق السكر للكعك .

ولا يكاد يعود إلى داره حتى يجلس لصنع أساور الصدف . وربما استمر فى ذلك حتى منتصف الليل . وهو لا يكسب لنفسه وأسرته من كل هذا الجهد الشاق وجبتين

(١) طائفة من الطوائف الهندية الدنيا ، مساكنهم شرق البنغال . (المترجم) .

فى اليوم إلا لمدة لا تكاد تتجاوز نصف العام . وطريقته فى الأكل أن يبدأ بشربة ماء كبيرة ، وطعامه الأساسى هو أرخص أنواع الموز الهزيل ، ومع ذلك فلابد للأسرة أن تكتفى بوجبة واحدة فى اليوم بقية العام .

وفكرت مرة فى أن أجرى عليه راتبا من الصدقات ، فقال أستاذى « إن هبتك قد تقضى على الرجل دون أن تقضى على شقاء حظه . فأمنا البنغال ليس فيها بانشو واحد فقط ، وإذا كان درها قد جف فإنه لا يمكن اجتلابه من الخارج ».

هذه أفكار تستوقف المرء ، وقد عزمت أن أعكف على درسها ، فقلت لبيمالا فى ذلك اليوم نفسه : لنهب حياتنا لإزالة أسباب الشقاء فى بلادنا .

فأجابت باسمة : أرى أنك أميرى سيد هارتا[1] ، ولكن لا تدع فيض مشاعرك يجرفنى معك .

– لقد نذر سيد هارتا نذره وحيدا ، وأريد أن يكون ميثاقنا مشتركا .

وذابت الفكرة فى الحديث . والحق أن بيمالا هى فى صميمها « سيدة » كما يقولون ، وإن يكن أهلها غير أثرياء فقد ولدت « رانى » ، وليس يخالجها شك فى أن هناك وحدة أدنى لقياس شدائد « الطبقات الدنيا » ومتاعبهم . فالحاجة ، ولاريب ، صفة ملازمة لحياتهم . لكن لا يلزم أن يكون معناها « الحاجة » بالنسبة لهم . وإن فى صغرهم لحماية لهم ، كما تحمى الشواطىء البركة ، ولو اتسعت حدودها لما ظهر إلا الوحل .

والأمر الثابت أن بيمالا إنما جاءت إلى بيتى لا إلى حياتى . وقد عظمتها وتركت لها مكانا كبيرا حتى إنى لما فقدتها أصبحت طريقة حياتى كلها ضيقة محصورة . لقد ألقيت كل الأشياء الأخرى فى ركن لأفسح المكان لبيمالا ، إذ كنت عليها عاكفا أزينها وألبسها وأعلمها وأدور حولها ليل نهار ناسيا أن البشرية عظيمة عظيمة ، وحياة الإنسان ثمينة ثمينة . وعندما تستولى وقائع الأشياء اليومية على الرجل يحتجب الحق وتضيع الحرية . وقد جعلت بيمالا للوقائع المجردة قيمة بلغ من ضررها أن ألحق بقى محجوبا عنى ، ولهذا السبب لا أجد ثغرة فى شقائى ، بل أبسط نقطة الخلو الصغيرة هذه على العالم كله ، وتظل الكلمات تدندن فى أذنى ساعات فى هذا الصباح الخريفى :

« آب أتى والسماء تنهل ،

واحسرتاه ! منزلى خالٍ » .

(١) الاسم الذى عرف به بوذا وهو أمير قبل أن يتنسك (المترجم) .

- ١١ -

كان التغير الذى طرأ على عقل البنغال فى لحظة تغيرا عظيما . وكأن مياه الكنج لمست رفات أبناء « ساجار »[١] الستين ألفا ، التى لم تكن لتشعلها نار ولا ليحيلها ماء آخر إلى صلصال حى . وفجأة نطق رفات البنغال : « إنى هنا » .

لقد قرأت فى بعض الكتب أن مثالا فى بلاد الإغريق أتيح له أن يمنح الحياة لتمثال صنعته يداه . فى تلك المعجزة نفسها كان التشكيل سابقا للحياة ، ولكن أين كانت الوحدة فى تلك الكومة من الرماد العقيم ؟ لو كانت صلدة كالحجارة لكان لنا أن نأمل فى شكل ما ينشأ منها ، كما استردت « أهاليا » إنسانيتها بعد أن مسخت حجرا ، ولكن هذا الرماد المتناثر قد تساقط ولا شك حين الخلق لتذروه الرياح هنا وهناك . وتكوم ولم يتوحد قط من قبل . لكن فى هذا اليوم الذى أتى على البنغال اكتسبت تلك المجموعة المفككة شكلا ، وأعلنت عند بابنا بصوت قاصف : « إنى هنا» .

كيف لا نظن أن هذا كله كان خارقا للطبيعة ؟ لكأن هذه اللحظة من تاريخنا وقعت فى يدنا مثل جوهرة من السماء . لم تكن تشبه ماضينا فى شىء ، فحسبنا أن كل فاقتنا وشقائنا سيختفيان بسحر ساحر ، وأنه لم تبق بالنسبة لنا ثمة حدود بين الممكن والمستحيل . بدا أن كل شىء يقول لنا : « إنه آت ! لقد جاء ! »

وهكذا دخل فى روعنا أن تاريخنا لا يحتاج إلى جواد بل سيتحرك بقوته الداخلية كعربة السماء . على الأقل لن يلزمنا أن ندفع أجرا لسائق العربة ، فحسبنا أن نملأ كأسه بالنبيذ مرة بعد مرة ، ثم نصل إلى هدف آمالنا فى جنة مستحيلة .

ولم يخل زوجى من تأثر بذاك ، ولكن نغمة حزنه هى التى ظلت تعمق وتعمق خلال حماستنا كلها . وكان يبدو أنه يرى شيئا وراء الحاضر الفوار .

(١) قضت اللعنة التى أحالتهم رمادا ألا يعودوا إلى الحياة إلا إذا أجرى إليهم نهرالكنج . (المترجم) .

وأذكر أنه قال يوما فى أثناء مناقشاته المستمرة مع سنديب من الحظ يأتى إلى بابنا ويعلن عن نفسه فيثبت عجزنا عن استقباله .

- إننا لم نهيىء ما عندنا لنكون قادرين على دعوته إلى منزلنا .

فكان جواب سنديب : كلا . إن حديثك حديث ملحد لأنك لا تؤمن بآلهتنا . قد تبين لنا أن الآلهة جاءت بنعمتها ، ولكنك تنكر آيات حضورها .

قال زوجى : لأنى قوى الإيمان بإلهى أعتقد أن استعدادنا لعبادته ناقص . الله قادر على الإنعام ، ولكننا يجب أن نكون قادرين على تلقى النعمة .

ما كان هذا الحديث من زوجى إلا ليضجرنى . فما تمالكت أن أدليت بقولى : أنك تحسب هذه الحماسة نار السكر فقط . أفلا يمنح بعض السكر قوة ؟

فأجاب زوجى : نعم ، قد يمنح قوة ، ولكنه لا يعطى سلاحاً .

فمضيت قائلة : ولكن القوة منحه من الله ، أما الأسلحة فيمكن أن تقدمها الميكانيكا وحدها .

وابتسم زوجى قائلا : ستطالب الميكانيكا بأجرها قبل أن تقدم بضاعتها .

ونفخ سنديب صدره وهو يرد : لاتشغل بالك بذلك . أن إجرها سيدفع .

فأجاب زوجى : سأعد موسيقى الفرح عند الدفع لا قبله .

فقال سنديب بازدراء : لا تحسبن أنا نعتمد على كرمك لنحصل على الموسيقى . إن عندنا فوق كل ما تدفعه من النقود .

وبدأ يغنى بصوته الأجش :

« حبيبى بحبه الغالى يزدرى المال .

« وبلا شيء اشترى الناى الذى يعزف ألحانه .

« فيسلب قلبى ».

ثم التفت إلىّ مبتسما وقال : إذا غنيت يا ملكتى فلأثبت أن فقد الصوت الجميل ليس بشىء متى دخلت الموسيقى حياة المرء . عندما نغنى معتمدين على انسجام

الصوت وحده نحقر الأغنية . الآن إذا غمر بلادنا فيض من الموسيقى فليتدرب نيكهيل على سلاله بينما نوقظ البلاد بأصواتنا المشققة ؟

« يصيح بى منزلى : لماذا تخرج لتفقد كل شىء ؟

« وتقول حياتى : ألق كل ما عندك للرياح !

« إن كان لابد أن نفقد كل شىء ، فلنفقده . فما قيمته آخر الأمر ؟

« إن طلبتى هى جرعة الموت التى تمنح الخلود ».

الحق يا نكهيل أننا كلنا فقدنا قلوبنا . ولا يمكن أن يمسكنا شىء داخل حدود المسكن اليسير ، ونحن نقدم مسرعين إلى المستحيل الذى لا أمل فيه .

« من يريدون أن يجذبونا إلى الخلف .

« لا يعرفون فرحة الاندفاع المخيفة ،

« لا يعرفون أننا سمعنا النداء .

« من آخر الطريق المعوج .

« كل ما كان طيبا معتدلا مهذبا .

« فليهو فى التراب » .

وظننت أن زوجى سيمضى فى النقاش ، ولكنه نهض عن كرسيه صامتا وتركنا.

إن الشىء الذى كان يضطرب فى باطنى لم يكن إلا صورة من الانفعال الذى يعصف فى الخارج جارفا البلاد من أقصاها إلى أقصاها . كانت عربة صانع مصيرى تقترب مسرعة ، وصوت عجلاتها يتردد صداه فى كيانى ، وكنت أشعر دائما أن شيئا غير عادى يمكن أن يحدث فى أية لحظة ، ولن أكون - مع ذلك - مسئولة عنه . ألم أنقل من المستوى الذى يجب فيه اعتبار الصواب والخطأ ومشاعر الآخرين ؟ وهل كنت أريد ذلك قط - هل انتظرت قط مثل هذا الأمر أو رجوته ؟ انظر إلى حياتى كلها وأخبرنى إن كان علىّ من شىء !

خلال ماضيّ كله كنت ثابتة على ولائى ؛ حتى إذا حان الوقت لتلقى النعمة ظهر إله آخر ! وكما تهتز البلاد المستيقظة محيية أمامها المستقبل الذى لم يتحقق : « باندى ماترم » ، كذلك تبعث كل عروقى وأعصابى نبضات الترحيب الغريب الطارئ المجهول الملحاح .

ذات ليلة تركت فراشى ودلفت من حجرتى إلى الشرفة المكشوفة . إن حقول الأرز الناضج تمتد وراء أسوار حديقتنا ، ولمحات من النهر تبدو خلال بساتين القرية إلى الشمال . وكان المنظر كله ينام فى الظلام كجنين مبهم لمخلوق مقبل .

فى ذلك المستقبل رأيت بلادى ، امرأة مثلى ، تقف منتظرة . أخرجها من كسر بيتها نداء مفاجىء من مجهول . لم تجد وقتا لتتلبث أو تتأمل ، أو لتشعل لنفسها مصباحا وهى مندفعة فى الظلام الممتد . أنا أدرى كيف تستجيب روحا لأنغام النادى البعيدة التى تناديها ، كيف يعلو صدرها ويهبط ، كيف تشعر أنها تقترب منه ، بل إنه ملكها فعلا ، فلا بأس أن جرت معصوبة العينين . إنها ليست أما . لا يناديها أطفال جياع ، ولا بيت توقد مصابيحه فى المساء ، ولا عمل تدبره فى المنزل . لا ، إنها عجلى إلى ميعادها ، فهذه أرض شعراء « الفياشتافا » . لقد تركت بيتها ، ونسيت واجبات منزلها ، وليس فيها إلا حنين لا يسبر غوره ، يدفعها قدما – فى أى طريق ؟ ولأى هدف ؟ إنها لا تبالى .

أنا أيضا يتملكنى مثل ذاك الحنين . أنا أيضا فقدت بيتى وضللت طريقى . الغاية والوسيلة كلتاهما غمضتا علىّ . لم يبق إلا الحنين والإسراع . آه ! أيتها الجوابة التعسة بالليل ، حين يحمر الفجر لن تبصرى أثرا لطريق الرجوع . ولكن لم الرجوع ؟ فى الموت غناء عنه . إن كان الظلام الذى عزف على الناى قائدا إلى الهلاك ففيم الشغل بالآخرة ؟ عندما يغمرنى السواد لن أكون ، لا أنا ، ولا الخير ولا الشر ، ولا الضحك ولا الدموع .

- ١٢ -

حين أديرت آلة الزمن فى البنغال - هكذا فجأة - بأقصى قوتها ، سهلت الأشياء العسيرة ، وتتابعت واحدا بعد واحد . لم يعد فى الإمكان أن يكبح جماح شىء ما ، حتى فى ركننا من البلاد . وكان إقليمنا فى المؤخرة أول الأمر ؛ لأن زوجى أبى أن يجبر أهل القرى على شىء ، وكان يقول « حقا أن الذين يضحون فى سبيل بلادهم هم خدامها ، ولكن الذين يجبرون غيرهم على التضحية باسمها هم أعداؤها . إنهم يقطعون الحرية عند الجذور لينالوها فى القمة » .

لكن لما جاء سنديب وأقام هنا ، وبدأ أتباعه يتجولون فى البلاد ، ويخطبون فى المدن والأسواق ، امتدت موجات الحماسة إلينا نحن أيضا . والتفت حوله طائفة من شباب الإقليم ، ومنهم من كانوا يعدون معرة للقرية ، لكن وهج حماستهم الصادقة أضاءهم ظاهرا وباطنا ، وتبين أنه حين تنتظم البلاد أنسام نقية من فرح عظيم وأمل كبير ، تطهر من كل درن وعفن . نعم ، إنه لعسير على الناس أن يكونوا صرحاء مستقيمين أصحاء وبلادهم تعانى آلام البأس .

وهنا تحولت كل العيون إلى زوجى ، إذ كانت ولاياته وحدها هى التى لم يمنع فيها السكر والملح والمنسوجات الأجنبية . وبدا موظفو الإمارة أنفسهم يشعرون بالقلق والخجل من ذلك ، مع أن زوجى حين بدأ - منذ زمن - يستورد البضائع الوطنية إلى قريتنا لامه الشيوخ والشباب على جنونه ، سرا وعلانية . فقد كنا نحتقر « السواديشى » من كل قلوبنا أن تصبح دعوة يستمد منها الفخر .

وما زال زوجى يبرى أقلامه الهندية بمبرأة هندية ، ويكتب بأقلام « البسط » ويشرب الماء فى طاس ، ويعمل بالليل فى ضوء مصباح زيتى قديم . ولكن أسلوبه « السواديشى » الراكد البارد لم يستهونا قط ، بل إننا كنا نخجل دائما من الأثاث الخشن العتيق الطراز فى حجرات استقباله ، وبخاصة حين يزوره قاضى التحقيق أو غيره من الأوروبيين .

وكان زوجي يستخف بمآخذى ، فيقول باسما : لماذا تسمحين لهذه التفاهات أن تزعجك ؟

- سيظنوننا همجا ، أو على الأقل غير متمدنين .

- إن فعلوا فسوف أكافئهم بالظن أن مدنيتهم ليست أعمق من جلودهم البيضاء .

وكان عند زوجي وعاء نحاسي عادى على مكتبه ، يتخذه زهرية . وكثيرا ما حدث أن تسللت إلى حجرته عند سماعى بقدوم زائر أوربى لأضع فى مكانه زهرية بلورية أوربية الصنع .

وأخيرا أنكر فعلى بقوله : انظرى يا بيمالا . إن هذا الوعاء النحاسى لا يشعر بنفسه ، كما لا تشعر تلك الأزهار . أما ذلك الشىء فإنه يعلن عن غرضه بصوت عال ، ولا يصلح إلا للأزهار الصناعية .

وكانت « البارارانى » هى وحدها التى تتملق نزوات زوجى . فمرة تجىء لاهثة لتقول : « أوه يا أخى ! هل سمعت ؟ لقد ظهر صابون هندى بديع ! إن أيام ترفى قد ذهبت ، لكن إذا لم يكن فى هذا الصابون شحم حيوانى فإنى أود أن أجربه » .

ومثل هذا يجعل زوجي يتهلل فرحا ، فإذا بالمنزل يغرق فى العطور الهندية والصابون الهندى . وأى صابون : إنه أشبه بقطع الصودا الكاوية . وبعد فأنا أعلم أن سلفتى لا تستعمل غير الصابون الأوربى المعهود ، أما هذه الأنواع الهندية فإنها تسلم إلى الخادمات لغسل الملابس .

ومرة ثانية تقول : « أوه يا أخى العزيز ! أحضر لى شيئا من أيدى الأقلام الهندية هذه ! » ..

فيتحمس « أخوها » كعادته ، وتمتلىء حجرات البارارانى بكل صنف من العصى القبيحة التى تسمى أيدى أقلام « سواديشى » . وهى لا تبالى بذلك ؛ لأن القراءة والكتابة ليستا من شغلها . ومع ذلك فإن اليد العاجية لا تزال فى صندوق أدواتها الكتابية ، وهى اليد الوحيدة التى تستعملها ، حين تستعمل يد قلم على الإطلاق .

وحقيقة الأمر أن هذا كله كان ضربة موجهة إلىّ ؛ لأنى لا أجارى زوجى فى بداوته . وكان من العبث أن أظهر زيف سلفتى ، فزوجى يتصل وجهه إذا أشرت إلى

ذلك مجرد إشارة . إننا لا نجنى غير التعب ؛ إذ نحاول إنقاذ مثل هؤلاء الناس ممن يحتالون عليهم !

والباراراني تحب الخياطة . وذات يوم لم أتمالك أن انفجرت قائلة : يا لك من كذوب يا أختى ! عندما يكون « أخوك » حاضرا يجرى لعابك إذا ذكرت المقصات « السواديشى » ، ولكنك لا تستعملين إلا المقص الإنجليزى حين تخيطين .

فأجابت : وما الضر ؟ ألا ترين سروره بذلك ؟ لقد كبرنا معا فى هذا المنزل منذ كان صبيا . وأنا لا أطيق مثلك ، أن تبرح الابتسامة وجهه . هذا العزيز المسكين ! إنه لا يجد تسلية إلا هذا اللعب بأشياء الدكاكين . أنت وحدك التى يضيع عليك ماله ، ومع ذلك تريدين أن تهلكيه ؟

فأجبت : مهما تقولى فإن النفاق لا يجوز .

فضحكت سلفتى فى وجهى : يا للتشوتا رانى الصغيرة الصريحة ! مستقيمة كعصا المعلم ، أهو هذا ؟ ولكن المرأة لم تخلق كذلك . إنها ناعمة مرنة ، بحيث تنحنى دون تعوج .

لم أستطع أن أنسى تلك الكلمات : « يضيع عليك ماله ، وتريدين أن تهلكيه ! » واليوم أشعر أن الرجل إن كان لابد له من مسكر فيحسن ألا يكون امرأة .

- ١٣ -

« بسكسار » التي تقع في إمارتنا هي من أكبر المراكز التجارية في الإقليم ؛ فهناك مجرى ماء تعقد على أحد جانبيه سوق يومية ، وعلى الجانب الآخر سوق أسبوعية . وحين يتصل هذا المجرى بالنهرفي وقت الأمطار وتستطيع القوارب أن تبلغه ، تجلب للبيع مقاديركبيرة من الخيوط القطنية والمنسوجات الصوفية للشتاء المقبل .

وفي قمة حماستنا قرر سنديب أن جميع البضائع الأجنبية يجب أن تطرد من بلادنا مع شبح النفوذ الأجنبي .

وقلت وأنا أتأهب للصراع : أجل !

فقال سنديب : لقد تحدثت مع نيكهيل وهو يقول لي إنه يقبل الدعوة إلى ذلك ، ولكنه لا يقر حمل الناس عليه .

فقلت مزهوة بقوتي : سأتولى هذا الأمر .

لقد كنت أعلم عمق محبة زوجي لي ، ولو كنت في رشدي لرضيت أن أمزق إربا ولا أتخذ لنفسي هذا الحق ، في مثل ذلك الوقت ، ولكن كان يجب أن يقتنع سنديب بقوة « الروح » تتمثل فيَّ .

وكان سنديب قد أوحى إليَّ ، بطريقته التي لا تقاوم ، أن الطاقة الكونية تتجلى لكل فرد في شكل جاذبية خاصة . وقال إن فلسفة الفياشنافا تتحدث عن « روح » المسرة التي تسكن في قلب الوجود ، و تجذب دائما حبيبها الخالد .

والناس يتوقون أبدا أن يخرجوا هذه « الروح » من الأعماق المستورة في طبيعتهم ؛ فمن استطاع منا أن يفعل ذلك فإنه يفهم على الفور في وضوح معنى الموسيقى التي تأتينا من الظلام .

وانطلق يغني :

« نايي الذي كان مشغولا بأغنيته .

« الآن يصمت حين التقينا وجها لوجه .

« ندائى ذهب يبحث عنك من سماء إلى سماء .

« وأنت ترقدين مختفية ،

« ولكن صحبتى كلها تلقى بسمتها الآن

فى وجه محبوتى » .

ونسيت وأنا أصغى إلى استعاراته أننى بيمالا العادية البسيطة . لقد كنت « روحا » ، وكنت تجسيدا لفرحة الكون ، لم يكن شىء ليغللنى ، ولا كان شىء مستحيلا علىّ ، فكل ما ألمسه يكتسب حياة جديدة . لقد كانت الحياة من حولى مخلوقة جديدة لى . ألا ترى أن سماء الخريف لم تكن تحتوى على هذه الثروة من الذهب قبل أن تلمسها استجابة قلبى ؟ وهذا البطل ، هذا الخادم للوطن ، هذا العابد لى – هذا الذكاء المتوقد ، هذه الطاقة المشتعلة ، هذه العبقرية المتألقة – إننى أخلقه أيضا من لحظة للحظة . ألم أر كيف يسكب فيه حضورى حياة جديدة مرة بعد مرة ؟

منذ أيام قليلة رجانى سنديب أن أستقبل شابا صغيرا من حوارييه المخلصين اسمه أموليا . وفى لحظه أستطعت أن أرى نورا جديدا يومض فى عينى الفتى ، وعرفت أنه هو أيضا قد تجلت له آية « الروح » ، وأن قوتى الخالقة قد بدأت تعمل فى دمائه . وفى اليوم التالى قال لى سنديب متعجبا : « ما هذا السحر الذى لك ! إن أموليا لم يعد صبيا ، إن فتيلة حياته تسطع اشتعالا . من ذا الذى يقدر أن يخفى نارك تحت سقف بيتك ؟ كل واحد منهم يجب أن تمسه تلك النار إن قريبا وإن بعيدا ، وعندما يشتعل كل مصباح فستشهد البلاد احتفالا رائعا بتجلى الروح .

حين أعمانى بريق مجدى عزمت على أن أمنح عبادى تلك النعمة . وكنت واثقة ثقة ملؤها الكبرياء أن أحدا لن يستطيع منعى مما أريده حقا . فلماذا عدت إلى حجرتى بعد حديثى مع سنديب أرسلت شعرى وعقصته ثانية من فوق ، وكانت مس جلبى قد علمتنى طريقة لتمشيطه من العنق وجمعه فى عقدة على رأسى . وكان زوجى يحب هذا النمط ، وقد قال مرة : « خسارة أن السماء اختارتنى أنا بدلا من الشاعر كاليداس لأنيع كل محاسن جيد المرأة ؛ لعل الشاعر لو رآه لشبهه بعنق زهرة . ولكن لماذا ، أوه ، لماذا أعود إلى ذلك كله ؟

أرسلت فى طلب زوجى . لقد كان فى وسعى قديما أن أخترع مائة علة وعلة ، مقبولة ، أو غير مقبولة لأجعله يأتى إلىّ . أما الآن وقد انقطع ذلك أياما كثيرة فإنى فقدت فن الاختراع .

حكاية نيكهيل

- ٦ -

توفيت زوجة بانشو منذ قليل بعد أن لازمها مرض ذات الرئة مدة طويلة . وكان على بانشو أن يدخل فى مراسم التطهير ليخلص من الإثم ويرضى طائفته . وقد حسبت الطائفة تكاليف ذلك وأخبرته أنها ثلاث وعشرون ومائة روبية .

وصحت غاضبا : ما هذا السخف ! لا تخضع لهم يا بانشو ! ما الذى يستطيعون أن يفعلوا بك ؟

فرفع إلىّ عينيه الصابرتين كعينى دابة مجهدة ، وقال : هناك بنتى الكبرى يا سيدى ، يجب أن تتزوج ، ولابد من إتمام المراسم الأخيرة لزوجتى المسكينة .

فرفعت صوتى بما كان يجرى فى ذهنى : حتى لو كان الذنب ذنبك يا بانشو لقد كفرت عنه بما يكفى فيما سلف .

فوافق بسذاجة : هذا صحيح ياسيدى . لقد اضطررت أن أبيع جزءا من أرضى وأرهن الباقى لأدفع ما يطلبه الطبيب . ولكن لا مهرب من الهبات التى يجب أن أقدمها إلى البراهمة .

ما فائدة الجدل ؟ وسألت نفسى : متى يحين الوقت لتطهير البراهمة أنفسهم وهم الذين يقبلون مثل هذه الهبات ؟

وأسقط فى يد بانشو بعد موت زوجته ودفنها ، وكان من قبل يعيش على شفا الجوع . وحاول يائسا أن ينال شيئا من السلوان بأن تعود الجلوس عند قدمى زاهد جواب آفاق ، واستطاع أن يكتسب قدرا من الفلسفة مكنه من نسيان أن أطفاله جياع . وأغرق نفسه زمنا فى فكرة أن الدنيا غرور ، وأنها وإن كانت خالية من المتاع فالألم أيضا وهم . وأخيرا ترك صغاره ذات ليلة فى كوخهم المتداعى وانطلق يجوب الآفاق مستقلا .

لم أعرف شيئا عن ذلك الأمر في حينه . ففي ذلك الوقت كان الآلهة والشياطين يمخضون المحيط في عقلي ، ولم يخبرني أستاذي أنه حمل أطفال بانشو الضائعين إلى داره وتولى أمرهم ، وإن كان وحيدا في المنزل ، وملزما أن يرعى مدرسته طول النهار .

وبعد شهر عاد بانشو وقد ذهب الكثير من حميته الصوفية ، فالتصق به ابنه الأكبر وبنته الكبرى صائحين : « أين كنت كل هذا الوقت يا أبتاه ؟ » وتربع صغيره على حجره ، وانحنت بنته الثانية على ظهره وقد طوقت عنقه بذراعها ، وبكوا جميعا . وأخيرا قال بانشو لأستاذي منتحبا : « آه يا سيدي ! إنني غير قادر على إشباع هؤلاء الصغار ، ولست حرا لأهرب منهم . ماذا كان ذنبي حتى أعذب هذا العذاب ، ويداي مغولتان وقدماي ؟ » .

وكان خيط علاقات بانشو التجارية الصغيرة قد انقطع ، ولم يعد في استطاعته أن يصله . فظل ملتجئا إلى منزل أستاذي حيث وجد المأوى عند عودته ، ولم يقل كلمة واحدة عن رجوعه إلى منزله . وأخيرا اضطر أستاذي أن يقول له : « انظر يا بانشو ! إن لم تعن بكوخك فإنه سوف يتهدم . سأقرضك بعض النقود لتبيع بها وتشتري ، وتردها إلى شيئاً فشيئا . »

لم يسر بانشو كثيرا بذلك : أما بقي على الأرض شيء اسمه الإحسان ؟ وعندما سأله أستاذي أن يكتب صكا بالمال شعر أن هذه العطية التي يلزم ردها لا تستحق أن تؤخذ . ولكن أستاذي لم يرد أن يقدم منحة ظاهرة تستتبع دينا باطنا ، فقد كان يرى أن تحطيم احترام المرء نفسه تحطيم للكرامة التي يستمدها من مكانة في المجتمع .

وبعد أن وقع بانشو الصك فقدت تحيته لأستاذي كثيرا من مظهرها الخاشع ، فلم يعد يمسح التراب عن قدميه ، وكان أستاذي يبتسم لذلك ، فإنه ماكان يريد شيئا خيرا من الاقتصاد في التبجيل ، وكان يعبر عن ذلك بقوله : الاحترام معطى ومردود يسوى الحساب بين الرجلين ، أما التبجيل فمغالاة » .

وبدأ بانشو يشتري المنسوجات في السوق ويقايض بها في القرية . ومع أنه لم يحصل على كثير من النقود فإن ما استطاع جمعه من السلع كالأرز والقنب وغيرها من المنتجات الزراعية قد ساعده على سداد حسابه ، فاستطاع بعد شهرين أن يرد قسطا من دين أستاذي ، وصاحب ذلك نقص مقابل في عمق انحناءته . ولعله بدأ يشعر أنه كان يقدس رجلا عاديا لم يتسام حتى عن إغراء المال .

وبينما كانت هذه حال بانشو صدمة تيار « السواديشي » بكل قوته .

- ٧ -

كان الوقت عطلة ، وقد عاد كثير من الشباب فى قريتنا وجيرتها من منازلهم وكلياتهم ، والتفوا حول زعامة بسنديب متحمسين ، وانقطع بعضهم عن الدراسة لفرط غيرتهم . وكان كثير من الفتيان تلاميذ بالمجان فى مدرستى التى أنشأتها هنا ، وبعضهم يتلقون منى معونات ليدرسوا فى كلكتا . جاءنى هؤلاء جميعا مطالبين بأن أمنع البضائع الأجنبية من سوق بسكسار .

فقلت لهم إنى لا أستطيع ذلك .

قالوا ساخرين : لماذا يا مهراجا ؟ هل نشق عليك الخسارة ؟

فلم أبال بما فى نبرتهم من الإهانة ، وكدت أرد بأن الخسارة لن تصيبنى بل سوف تصيب التجار الفقراء وزبائنهم ، حين أدلى أستاذى - وكان حاضرا - بقوله : نعم ، إنه هو الذى سيخسر لا أنتم . هذا واضح جلى .

- ولكن الوطن ..

فقاطعهم أستاذى مرة أخرى : الوطن ليس معناه الأرض ، بل الناس الذين عليها . هل أنفقتم قبل اليوم ولو نظرة على ما يحدث لهم ؟ ولكنكم تريدون الآن أن تقرروا أى ملح يأكلون وأى ثياب يلبسون ، لماذا يتحملون مثل هذا الاستبداد ، لماذا تدعهم يتحملونه .

- ولكننا نحن قد ألفنا الملح الهندى والسكر الهندى .

- لكم أن تفعلوا ماتشاءون لتذهبوا ضجركم وتبقوا تعصبكم . فأنتم ميسورو الحال ، ولا حاجة بكم أن تفكروا فى الثمن . إن الفقراء لايعارضونكم ولكنكم مصرون على أن يخضعوا لما تفرضونه . إن كل لحظة من لحظاتهم - على ما هم الآن - لهى صراع حياة أو موت فى سبيل حفظ الرمق ، وليس بوسعكم أن تتخيلوا الفرق الذى يمكن أن تحدثه لهم دوانق قليلة ، فإنكم لا تكادون تشاركونهم فى شىء . لقد قضيتم ماضيكم كله فى طبقة عليا ، والآن تهبطون لتتخذوا منهم أدوات لإنزال غضبكم . إنى أسمى هذا جبنا .

وكانوا جميعا من تلاميذ أستاذى السابقين ، فلم يجرؤوا على أن يسيئوا أدبهم ، وإن ارتعدوا من الغضب والتفتوا إلىّ : إذن فهل تكون الوحيد الذى يضع العقبات أمام سعى البلاد يامهراجا ؟

- ومن أكون حتى أجرؤ على مثل هذا الفعل ؟ أم أننى غير مستعد لأن أهب حياتى فى سبيل تحقيقه ؟

وابتسم طالب الماجستير ابتسامة شوهاء وهو يسأل : هل لنا أن نعلم ماذا تقوم به فعلا فى هذا السبيل ؟

- لقد استوردت غزلا مصنوعا فى الهند وعرضته فى سوق سكسار ، وأرسلت بالات منه إلى الأسواق التابعة للملاك المجاورين .

فصاح الطالب نفسه : ولكننا ذهبنا إلى سوقك يامهراجا ، ولم نجد أحدا يبيع ذلك الغزل .

ليس هذا خطئى ولا خطأ سوقى ، إنما هو دليل على أن البلاد لم تدخل جميعها فى ميثاقك .

ومضى أستاذى يقول : ليس هذا كل شىء . إنه يدل على أنكم ما تعاهدتم إلا على مضايقة غيركم . أنتم تريدون التجار الذين لم يدخلوا فى ميثاقكم أن يشتروا ذلك الغزل ، والنساجين الذين لم يدخلوا فى ميثاقكم أن ينسجوه ، ثم أن تعرض بضائعكم آخر الأمر على مستهلكين لم يدخلوا فى ميثاقكم أيضا . أما الطريقة فهى الصياح منكم والاضطهاد من ملاك الأراضى . وأما النتيجة فهى أن لكم كل الفضل ولهم كل الحرمان .

فعقب طالب علوم : وهل لنا أن نسأل ماذا كان نصيبكم من الحرمان ؟

فأجاب أستاذى : أتريد أن تعلم ؟ أن على نيكهل نفسه أن يشترى هذا الغزل الهندى ، وقد لجأ إلى إنشاء مدرسة نسيج لحياكته ، وإذا حكمنا بأعماله الباهرة السابقة فى هذا الميدان فإن ثمن منسوجاته القطنية عند خروجها من النول سيكون كثمن نسيج الذهب ، ولذلك فلن تكون لها فائدة إلا أن تتخذ ستائر فى حجرة جلوسه ، ولو كانت أرق من أن تستره . عندما تتعبون من ميثاقكم ستضحكون بأعلى صوت عن تأثيرها الفنى . وإن أعجبت صناعتها أحد فإنها لن تعجب غير الأجانب .

لقد عرفت أستاذى طيلة حياتى ، ولكن لم أره قط فى مثل هذه الثورة . ولاح لى أن الألم ظل يتجمع فى قلبه زمنا وهو صامت لفرط حبه لى وأن ما تعوده من امتلاك زمام نفسه قد نيل منه حتى كاد يتداعى .

قال طالب الطب : أنتم أكبر منا سنا ، ولا يليق بنا أن نجادلكم . ولكننا نود أن نعلم أخيرا هل أنتم عازمون على ألا تخلوا سوقكم من البضائع الأجنبية ؟

قلت : لن أفعل ، لأنى لا أملك هذه البضائع .

فقال طالب الماجستير مبتسما : لأن ذلك يسبب لك غراما !

فرد أستاذى : لأن الذى سيغرم هو أولى الناس بأن يحكم .

فتركونا هاتفين : باندى ماترم .

الفصل السادس

حكاية نيكهيل

- ٨ -

بعد أيام جاءنى أستاذى مصاحبا بانشو . وظهر أن مالك الأرض التى يقيم فيها غرمه مائة روبية وهدده بالطرد .

سألت : وبأى ذنب ؟

فقيل لى : لأنه وجد يبيع منسوجات أجنبية وقد رجا « هاريش كوندو » مالك الأرض وتضرع إليه أن يتركه حتى يبيع ما عنده من بضاعة اشتراها بالدين ، وحلف ألا يعود إلى ذلك العمل مرة أخرى ، ولكن صاحب الأرض لم يصغ إليه ، وأصر على إحراق البضائع الأجنبية فى الحال إن أراد إطلاق سراحه . وصاح بانشو متحديا فى غيظه : أنا لا أتحمل هذا . أنت مقتدر فلماذا لا تشتريها كلها وتحرقها ؟ فما كان من هاريش كوندوا إلا أنه صاح وقد احمر وجهه : يجب تأديب هذا اللعين . اضربوه بالأحذية ! وهكذا لقى بانشو المسكين فوق الغرامة إهانة .

- وماذا جرى للقماش .

- لقد أحرقت البالة جميعها .

- ومن كان هناك غيره ؟

- عدد كبير من الناس كانوا كلهم يصيحون : « باندى ماترم » ، وكان فيهم سنديب أيضا ، فتناول بعض الرماد صائحا : أيها الأخوة ! إن هذا أول حريق جنزى توقده قريتكم محيية المراسم الأخيرة للتجارة الأجنبية . هذا رماد مقدس ، فامسحوا أنفسكم به آية على أنكم أخذتم عهد « السواديشى » .

فالتفت إلى بانشو قائلا : يجب أن تقدم شكوى يا بانشو .

فأجاب : لن يشهد لى أحد .

– لن يشهد أحد ؟ .. سنديب ! سنديب !

فجاء سنديب من حجرته حين سمع ندائى ، وسأل : ماذا جرى ؟

– ألا تشهد على إحراق قماش هذا الرجل ؟

فابتسم سنديب قائلا : سأكون لاشك شاهدا فى القضية ، ولكنى سأشهد عليه لا له .

فصحت : ماذا تعنى بشهادتك عليه ؟ ألا تشهد بالحقيقة ؟

– هل الشيء الذى يحدث هو الحقيقة الوحيدة ؟

– وأى حقائق أخرى يمكن أن توجد ؟

– الأشياء التى ينبغى أن تحدث ! إن الحقيقة التى يجب أن نبنيها ستحتاج فى سبيل ذلك إلى كثير مما يخالف الحقيقة . إن أولئك الذين شقوا طريقهم فى الحياة قد خلقوا الحقيقة ولم يسيروا وراءها سيرا أعمى .

– وإذن .. ؟

– وإذن فسأدلى بما يلذ لكم أن تسموه شهادة الزور ، كم فعل أولئك الذين أوجدوا الإمبراطوريات وأقاموا النظم الاجتماعية وأنشأوا المنظمات الدينية . الذين يريدون أن يحكموا لا يخشون مخالفة الحقيقة ! أما قيود الحقيقة فلأولئك الذين يقعون تحت حكمهم . ألم تقرأ التاريخ ؟ ألا تعلم أن الأكاذيب هى المكونات الرئيسية فى داخل تلك الصهاريج الضخمة التى تغتلى فيها التطورات السياسية العظيمة .

– لاشك أن ثمة طبخا سياسيا يجرى على نطاق واسع ، ولكن .

– أوه ، أنا أعلم . أنك لن تشترك فى شيء من الطبخ ، فأنت تفضل أن تكون واحدا من أولئك الذين تدفع الخلطة المطبوخة فى حلاقيمهم . سيقسمون البنغال ويقولون إن ذلك لمصحتك . سيوصدون أبواب التعليم ويسمون ذلك رفعا للمستوى ، ولكنكم ستبقون أبدا أولادا طيبين ، تبكون فى أركانكم . أما نحن الرجال الأشرار فعلينا أن ننظر فى وسيلة لإقامة حصون دفاعية من مخالفة الحقيقة .

فتدخل أستاذى قائلا : لا فائدة من الجدال فى هذه الأمور يا نيكهيل . إنى ممن لا يشعرون بالحقيقة فى داخلهم أن يدركوا أن إخراجها من الظلام إلى النور هو أسمى هدف للإنسان لا المواظبة على تكديس المادة فى الخارج ؟

فضحك سنديب قائلا : أحسنت يا سيدى ! هذه خطبة تليق بمعلم . هذا كلام قرأت مثله فى الكتب ، ولكنى رأيت فى العالم الواقعى أن هم الإنسان هو جمع المادة الخارجية . وأساتذة هذا الفن يروجون أكبر الأكاذيب فى أعمالهم ، ويدخلون الحسابات الزائفة فى سجلاتهم السياسية بأعرض أسنة أقلامهم ويطلقون صحفهم كل يوم محملة بالمغالطات ، ويبعثون الوعاظ إلى الخارج لينشروا الإفك ، كالذباب الذى يحمل جراثيم الوباء . إننى تابع متواضع لهؤلاء العظماء . وعندما كنت متصلا بحزب المؤتمر لم أتردد قط فى أن أخلط عشرة فى المائة من الحقيقة بتسعين فى المائة من الإفك . وإذا كنت قد أصبحت غير منتسب لهذا الحزب فإن ذلك لم ينسنى الأصل الواقع الثابت الذى يقول إن هدف الإنسان ليس الحقيقة بل النجاح :

فصحح أستاذى قوله : النجاح الحقيقى .

فأجاب سنديب : ربما . ولكن ثمرة النجاح الحقيقى لا تنضج إلا برزع حقل الإفك ، بعد تمزيق الأرض وطحنها ترابا . إن الحقيقة تنمو وحدها كالأعشاب والأشواك ، ولا ينظر الثمار منها غير الديدان .

قال ذلك واندفع خارجا من الحجرة ، ونظر أستاذى إلىّ بابتسام . قال : أتدرى يا نيكهيل .. أنا لا أعتقد أن سنديب غير مؤمن . إن دينه هو الوجه الآخر للحقيقة . كالقمر المظلم لايزال قمرا وإن ذهب نوره إلى الجانب الآخر .

فقلت موافقا : لهذا كنت دائما أميل إليه وإن لم نستطع قط أن نتفق . وليس فى وسعى أن أدينه الآن أيضا . وإن كان قد أساء إلىّ إساءة بالغة ، ولعله سيزداد إيذاء لى .

قال أستاذى : لقد بدأت أتبين ذلك . وكثيرا ما سألت نفسى : كيف تستطيع احتماله ، بل إننى نسبتك إلى الضعف أحيانا . والآن أرى أنكما وإن لم تتفقا فى الروى فأنتما من بحر واحد .

فقلت متابعا فكرته : كأن القدر صمم على أن يكتب لى « فردوسا مفقودا » بالشعر المرسل ، فلم ير حاجة إلى صديق موافق .

وتابع أستاذى حديثه الأول سائلا : ولكن ماذا عن بانشو ؟

– تقول إن هاريش كونو يريد أن يطرده من مقر أجداده . فإن اشتريت المكان وأبقيته مستأجرا عندى ؟

– وغرامته ؟

– كيف يحصلها صاحب الأرض إن أصبح مستأجرا عندى ؟

– وبالة القماش التى حرقت ؟

– سأشترى له بالة أخرى . ولعل أحدا يتدخل فى شأن مؤاجر من مؤاجرى ؛ لأنه يتاجر كما يريد !

فقال بانشو بانكسار : أخشى ياسيدى أن يجتمع نسور الشرطة والقانون ويستمتع الجمهور بالمنظر وأنتم تتحاربون معشر الكبراء ، فإذا وصل الأمر إلى القتل جاء دورى أنا المسكين !

– لماذا ؟ أى ضرر يمكن أن يصيبك ؟

– سيحرقون منزلى ياسيدى ، ولن يبقوا على الأطفال !

فقال أستاذى : حسن ، سأعنى بأطفالك . ولك أن تتاجر كما تريد ، فلن يمسوك بأذى .

وفى ذلك اليوم نفسه اشتريت مسكن بانشو ، وأصبحت المالك الرسمى له ، ثم بدأت المتاعب .

كان بانشو قد ورث المسكن عن جده على أنه وريثه الوحيد الباقى على قيد الحياة ، وكان كل امرىء يعلم ذلك ، ولكن فى هذه اللحظة ظهرت زوجة عمه من مكان ما ، ومعها صناديقها وحزمها وسبحتها ، وابنة أخ مترملة . وتربعت فى منزل بانشو وطالبت بنصيبها – مدى الحياة – فى ريع جميع ما يملك .

وذهل بانشو . واحتج بقوله : ولكن زوجة عمى ماتت منذ أمد بعيد !

فأجيب بأنه يعنى زوجة عمه الأولى ، ولكن العم لم ينتظر طويلا حتى اتخذ زوجة ثانية .

وصاح بانشو وقد زادت دهشته : ولكن عمى مات قبل عمتى . فكيف تسنى له أن يتزوج ثانية ؟

ولم ينكر عليه قوله ، ولكنه ذكر بأنه لم يزعم قط مجىء الزوجة الثانية بعد وفاة الأولى ، بل إن عمه تزوج الثانية فى حياة الأولى . ولم تسترح الزوجة الثانية للعيش مع ضرة فبقيت في منزل أبيها حتى وفاة زوجها ، وبعد ذلك تنسكت وأقامت فى أرض براندابان المباركة التى قدمت منها الآن . وكانت هذه الوقائع معروفة لموظفى هاريش كوندو وبعض مؤاجريه . ولو صمم مالك الأرض لوجد أيضا بعض من شهدوا وليمة العرس !

- ٩ -

ذات أصيل كنت مشغولا بعمل كثير ، وإذا برسالة تأتينى فى مكتبى أن بيمالا تطلبنى . فدهشت ، وسألت الرسول : تقول من التى بعثت فى طلبى ؟

– أمنا الرانى .

– البارا رانى ؟

– لا ياسيدى بل أمنا التشوتا رانى .

التشوتا رانى ! كأنما مر قرن منذ بعثت تطلبنى . فتركت الخلق منتظرين هناك ، وذهبت إلى الحجرات الداخلية . وعندما خطوت داخلا إلى حجرتنا أصابتنى دهشة أخرى إذا وجدت بيمالا واقفة فى زينة غير عادية . وكانت الحجرة التى طال إهمالها حتى اكتسبت مظهر الشرود ، قد استعادت شيئا من نظامها القديم فى تلك الساعة . ووقفت صامتا أنظر مستفهما إلى بيمالا .

احمر وجهها قليلا وجعلت أصابع يمناها تلعب بالأسورة على ذراعها اليسرى . ثم قطعت الصمت فجأة : راعنى ! هل يجوز أن تكون سوقنا هى الوحيدة فى البنغال التى تباع فيها البضائع الأجنبية ؟

فسألت : وما السبيل الصحيح إذن ؟

– تأمر بإخراجها !

– ولكننى لا أملكها .

– ألست تملك السوق ؟

– بل هى أولى بأن تكون ملكا لمن يستعملونها فى التجارة .

– فليتاجروا فى البضائع الهندية إذن .

– ليس أدعى لسرورى من هذا . ولكن ماذا إن أبوا ؟

- هراء ! كيف يجرؤون على مثل هذه الوقاحة ؟ ألست ..

- إننى مشغول جدا هذه الساعة ، ولا أستطيع أن أستمر فى الجدل ، ولكننى لن أكون مستبدا .

- لن يكون استبداد من أجل كسب شخصى ، بل من أجل مصلحة الوطن .

- الاستبداد من أجل مصلحة الوطن هو استبداد الوطن . ولكننى أخشى ألا تفهمى هذا أبدا .

قلت ذلك وخرجت ، وفجأة أضاء لى العالم بنور جديد . وكأنما أحسست فى دمى أن الأرض قد فقدت ثقل أرضيتها ، وأن واجبها اليومى فى إمداد الحياة لم يعد يبدو عبئا ، وأنها تدور فى الفضاء بفيض عجيب من القوة ، مسبحة بأيامها ولياليها . يا له من عمل لا ينتهى ، ويا لها من طاقة للحرية لا تحد ! لن يمنعها شىء ما ، لا ولن يمكن أبدا أن يمنعها شىء ! وانبعثت من أعماق وجودى دفقة فرح كأنها نافورة ، وارتفعت إلى عنان السماء .

وسألت نفسى مرة بعد مرة عن معنى هذا الانبعاث ، فلم أجد فى أول الأمر جوابا مفهوما ، ثم وضح لى أن القيد الذى كنت أثور عليه فى باطنى ليل نهار قد انكسر ، وتبينت لدهشتى أن عقلى قد تخلص من كل ضبابية ، واستطعت أن أبصر كل ما يتعلق ببيمالا فى وضوح كأنه مصور على شاشة سينما . كان ظاهرا ملموسا أنها تأنقت فى ملبسها عمدا لتستميلنى إلى إصدار ذلك الأمر ، ولم أكن حتى ذلك الحين قد نظرت قط إلى زينة بيمالا على أنها شىء مستقل عنها ، ولكنها اليوم بدت مجرد زخرفة من الطريقة المصطنعة التى عقصت بها شعرها على النمط الإنجليزى ، وأصبح الشىء الذى كان محملا بسر شخصيتها ، ولم أكن أقدره بثمن ، معروضا للبيع بالثمن الرخيص .

حين خرجت من ذلك القفص المحطم - ذلك المخدع - إلى ضوء الشمس الذهبى فى العراء ، كان صفا أشجار « البوهينيا » على جانبى الدرب المواجه لشرفتى يسكبان على السماء ألقا ورديا ، وكان سرب من الزرازير منطلقا فى ثرثرة عالية تحت الأشجار . وعلى بعد عربة خالية من العربات التى تجرها الثيران ، قد رفعت ذيلها فى الهواء وأنفها على الأرض ، وأحد ثوريها المحلولين يرعى والآخر راقد على العشب ، وعيناه منكستان استرواحا ، بينما كانت بقرة ترقد على ظهرها عاكفة على تحريك رأسها لطرد الحشرات عن جسمها .

كأنما اقتربت من نبضات قلب الأرض العظيمة فى كل بساطة حياته اليومية . لمستنى أنفاسها الدافئة بعطر أزهار البوهينيا ، وبدا كأن نشيدا تدق عذوبته عن الوصف ينبعث من هذا العالم ، حيث أحيا بحريتى فى حرية كل شىء آخر .

نحن الرجال فرسان نبتغى تلك الحرية التى تدعونا إليها مثلنا ، والمرأة التى تصنع لنا العلم الذى نسير تحته هى حق المرأة لنا . يجب أن نمزق قناع تلك التى تنسج شبك الفتنة لنا فى البيت وأن نعرفها على حقيقتها . يجب أن نحاذر من إلباسها سحر أشواقنا وخيالاتنا لتضلنا عن مطلبنا الحق .

اليوم أشعر أنى سأنتصر . وصلت إلى باب البساطة ، وأنا الآن راض بأن أرى الأشياء كما هى . لقد كسبت الحرية لنفسى وسأفتح الحرية للآخرين وفى عملى سيكون خلاصى .

أعلم أن قلبى سيتألم مرة بعد مرة ، ولكننى الآن فهمت ألمه فى كل حقيقته . أستطيع ألا أراعيه . الآن وقد علمت أننى أنا وحدى مداره فماذا يمكن أن تكون قيمته آخر الأمر ؟ سيكون عذاب البشرية كلها هو تاجى .

أنقذنى يا حق ! لا تدعنى أبدا يعاودنى الحنين إلى فردوس الوهم الكاذب ! وإذا كان على أن أسير وحيدا فاجعلنى على الأقل أسلك طريقك . اجعل دقات طبول الحق قائدى إلى النصر .

حكاية سنديب

- ٧ -

استدعتنى بيمالا فى ذلك اليوم ، ولكنها ظلت مدة لا تستطيع أن تنطق بكلمة ، وعيناها تغرورقان وتوشكان أن تفيضا . وأدركت على الفور أنها لم توفق مع نيخيل . لقد كانت على ثقة ملؤها الكبرياء أنها ستظفر بما تريد ، ولكنى لم أشاطرها قط هذه الثقة . فالمرأة تعرف الرجل معرفة حسنة حيث يكون ضعيفا ، ولكنها عاجزة كل العجز عن سبر غوره حيث يكون قويا . والحق أن الرجل لغز للمرأة كما أن المرأة لغز للرجل . ولو لم يكن ذلك صحيحا لكان التمييز بين الجنسين مضيعة لجهد الطبيعة .

الكبرياء ، وما أدراك ما الكبرياء ! لم يكن الخطب أن الأمر الضرورى قد تعذر إنجازه بل إن الرجاء الذى كلفها كل هذا الصراع قد رفض . ما أكثر اللون والحركة والإيمان والخداع حول كلمة « أنا » عند المرأة ! وهنا جمالها - فهى ذاتية أكثر جدا من الرجل . عندما خلق الرجل كان الخالق معلما حقيبته مملوءة بالوصايا والمبادىء ، ولكنه حين خلق المرأة ترك أستاذيته وتحول فنانا ليس له إلا ريشته وصندوق ألوانه .

حين وقفت بميالا هناك صامتة محمرة الوجه باكية فى كبريائها الكسيرة وكأنها سحابة عاصفة مثقلة بالمطر مشحونة بالبرق تحط على الأفق ، بدت حلوة حلوة حتى إنى لم أتمالك أن أسرعت إليها وأمسكت يديها . كانت ترتعد ولكنها لم تنتزعها من يدى . فقلت يا ملكتى ، نحن الاثنان زميلان لأن أهدافنا واحدة . فلنجلس ونتحدث فى الأمر .

وقدتها إلى كرسى وهى لاتقاوم . ولكن أى عجب ! فى هذه اللحظة نفسها انحبس اندفاعى دون سبب معلوم ، كتيار « البادما » الجبار يزأر أتيه - ولا مقاومة - وإذا بعقبة صغيرة تحت السطح تحوله عن الشاطئ المتداعى أمامه . عندما ضغطت على يد بيمالا عزفت أعصابى كأوتار مشدودة ، ولكن السيمفونية توقفت عن الحركة الأولى .

ما الذى اعترض الطريق ؟ لا شىء بمفرده ، بل خليط من أشياء كثيرة - لا شىء ملموس ، ولكن ذلك الشعور المبهم بالتعويق . ومهما يكن من شىء فقد وضح لى أمر

وهو أني لا أستطيع أن أقسم على أن حقيقتي هي كذا ، ومافتنتي بنفسي إلا لأنني لغز محير لعقلي ، ولو مرة عرفت نفسي كاملة لطرحتها كلها بعيدا ووصلت إلى نعيم الروح !

انتسف وجه بيمالا وهي تجلس ، ولابد أنها هي أيضا شعرت بالأزمة التي جاءت وذهبت تاركة إياها لم تصب بأذى . لقد مر المذنب ، ولكن لفحة ذنبه المشتعل هزمتها . ولكي أساعدها على استعادة جأشها قلت : لابد من عقبات ، ولكن دعينا نحارب حتى ننتصر ، وحذار أن نقنط . ألا ترين أن ذلك أفضل ياملكتي ؟

فسعلت بيمالا سعلة صغيرة لتطلق صوتها ؛ إلا أنها لم تزد على أن قالت : نعم .

ومضيت أقول ، وأخرجت من جيبي قطعة من الورق وقلم رصاص : فلنرسم خطتنا للعمل .

وبدأت أكتب قائمة بأسماء المجاهدين الذين انضموا إلينا من كلكتا وأعين لكل واجباته . فقاطعتني بيمالا قبل أن أتم ذلك قائلة بملل : « دع هذا الآن ، سألقاك ثانية هذا المساء » . ثم أسرعت خارجة من الحجرة . وكان واضحا أنها غير قادرة على النظر في شيء ما ، بل يجب أن تخلو إلى نفسها برهة – أو ترقد على سريرها وتبكي حتى تشتفي !

وعندما غادرتني بدأت نشوتي تعمق ، كما تغزر ألوان السحب بعد مغيب الشمس . وشعرت بأني تركت لحظة اللحظات تفلت . أي جبان رعديد كنت ! لابد أنها تركتني اشمئزاز من تورعي – ولقد كانت على حق !

وبينما كنت أغلي بمثل هذه الأفكار جاء خادم وأعلن قدوم « أموليا » أحد فتياننا . وهممت أن أبعده بعض الوقت ، ولكنه دخل قبل أن أعزم ، ثم أخذنا نتناقش في أخبار المعارك التي نشبت في جهات مختلفة حول القماش والسكر والملح ، وسرعان ما صفا الجو من كل أبخرة النشوة وكأنما صحوت من حلم ، فهببت شاعرا أني على أتم استعداد للصراع « باندي ماترم ! ».

كانت الأخبار مختلفة . فمعظم التجار الذين يقيمون في مقاطعة هاريش كوندو قد انضموا إلينا . وكثير من موظفي نيكهيل يناصروننا سرا ، ويدبرون الأمور في الخفاء لمصلحتنا ، وتجار « مروري » مستعدون لدفع غرامة إن نحن تركناهم يتخلصون من البضائع التي في مخازنهم ، ألا أن بعض التجار المسلمين كانوا لا يزالون على عنادهم .

وكان أحدهم يحمل إلى منزله بعض الشيلان الألمانية الصنع لأسرته ، فصادرها أحد فتيان قريتنا وأحرقها ، وتفاقم الأمر ، فعرضنا أن نعوضه أصوافا هندية ، ولكن أين نجد أصوافا هندية رخيصة الثمن ؟ لم يكن في وسعنا أن ننعم عليه بشيلان كشمير ! فجاء نيكهيل شاكيا ، ونصحه هذا بأن يلجأ إلى القانون ، وقد تكفل رجال نيكهيل بأن تذهب القضية سدى ، بل إن محامى الرجل كان في صفنا !

والمشكلة هي أننا لن نستطيع أن ندبر المال إذا كان علينا في كل مرة أن نعوض الأقمشة المحروقة بأقمشة هندية ، ثم ندخل في قضية فوق ذلك ، وأبدع ما في الأمر أن هذا الإتلاف للبضائع الأجنبية يزيد الطلب عليها ويرفع أرباح الأجانب - كماحدث لذلك التاجر السعيد الحظ الذي أغرم « النواب » بتحطيم شمعداناته ، لأنه كان يتلذذ برنين الزجاج المكسور ؟

والمشكلة الثانية هي هل ينبغي أن نتشدد في مقاطعة أصواف الفانلا والمورينو الأجنبية أو نستثنيها من هذه المقاطعة ، ما دامت لا توجد أصواف هندية أنيقة رخيصة ؟

قلت أخيرا مجيبا عن النقطة الأولى : اسمع ! إننا لن نمضي في تقديم هدايا من المنسوجات الهندية إلى أولئك الذين صودرت بضائعهم الأجنبية . إنهم هم المقصودون بالعقوبة لانحن . فإذا لجأوا إلى القضاء فيجب أن نرد بإحراق مخازنهم ! - ما الذي يفزعك يا أموليا ؟ إن منظر النيران لا يخلبني . ولكن يجب أن تعلم أن هذه حرب فإن كنت تخاف إيقاع الأذى فاذهب لتلتمس لك حبا فإنك لن تصلح لهذا العمل !

وحلت المشكلة الثانية بأن قررت ألا أتوسط في أمر البضائع الأجنبية مهما تكن الحال . ففي الماضي حين كانت هذه الشيلان الأجنبية الزاهية الألوان غير معروفة اعتاد فلاحونا الاكتفاء بالملاحف القطنية البسيطة - فليتعلموا ذلك ثانية . ولعلها تبدو أقل جمالا ، ولكن هذا ليس وقت التفكير في المظاهر .

وكان معظم الملاحين قد اقتنعوا بأن يرفضوا نقل البضائع الأجنبية ، ولكن رئيسهم « ميرجان » بقي على عناده . فسألت مدير أعمالنا هنا : ألا تستطيع أن تدبر إغراق قاربه ؟

فأجاب : ليس أسهل من ذلك ياسيدى : ولكن ماذا يكون إن اعتبرت مسئولا بعد ذلك ؟

- ولماذا تسيء التدبير بحيث تترك ثغرة للمسئولية ؟ ومع ذلك فإن وجدت ثمة مسئولية فإن كاهلي يستطيع احتمالها .

كان قارب ميرجان مربوطا قرب المرسى بعد أن نقلت حمولته إلى السوق . ولم يكن فيه أحد ، فقد رتب وكيلنا حفلا دعى إليه الجميع . وبعد الغسق حمل القارب بالنفايات وأرسل مع التيار فغرق في وسط النهر .

وفهم ميرجان الأمر كله فجاءني باكيا مسترحما . وبدأ يقول : لقد كنت مخطئا ياسيدي ..

فسألته ساخرا : وما يجعلك تدرك ذلك فجأة ؟

فلم يجب جوابا صريحا . قال : لقد كان القارب يساوي ألفي روبية . إنني أعرف خطئي الآن ، وإذا سومحت هذه المرة فلن ..

وارتمى على قدمي .

فسألته أن يعود بعد عشرة أيام . لو أننا استطعنا أن ندفع له هذين الألفين فورا لاشتريناه جسما وروحا ، فمثل هذا الرجل يستطيع أن يقدم إلينا خدمة جليلة إذا كسبناه . لن نستطيع أن نتقدم إن لم نضع أيدينا على مال كثير .

ما كادت بيمالا تدخل حجرة الجلوس في ذلك المساء حتى قلت وأنا أنهض لاستقبالها : ياملكتي ! كل شيء معد . والنجاح قريب ، ولكننا يجب أن نحصل على مال .

- مال ! كم من المال ؟

- ليس بالشيء الكثير . ولكننا يجب أن نحصل عليه من أي سبيل ؟

- ولكن كم ؟

- خمسون ألف روبية تكفي الوقت الحاضر .

شحبت بيمالا في باطنها حين سمعت الرقم ، ولكنها حاولت ألا تظهر ذلك . كيف تسلم بالهزيمة مرة ثانية .

قلت : يا ملكتي ! أنت التي تقدرين أن تجعلي المستحيل ممكنا . بل إنك قد فعلت هذا قبل الآن . ليتني أستطيع أن أظهرك على مدى ما حققته كي تعلمي ذلك ، ولكن ليس هذا وقته . إننا الآن نريد النقود !

فقالت : ستنالها .

وخمنت أنها فكرت فى بيع جواهرها : فقلت . جواهرك يجب أن تبقى مصونة . إننا لا ندرى متى نحتاج إليها .

وحملقت بيمالا نحوى صامتة . فأردفت : هذه النقود يجب أن تأتى من خزانة زوجك .

فزادت بيمالا إجفالا . وبعد صمت طويل قالت : ولكن كيف أحصل على هذه النقود ؟

– أليس ماله مالك ؟

قالت وقد مست كبرياؤها الجريحة من جديد : لا !

فصحت : إن لم يكن مالك فليس ماله أيضا : إنما هو مال بلاده الذى حرمها منه فى وقت حاجتها !

فرددت : ولكن كيف أحصل عليه ؟

– ستحصلين عليه ، ويجب أن تفعلى . أنت أدرى بالسبيل . يجب أن تحصلى عليه لتلك التى هى مالكته الحقة . باندى ماترم ! هاتان هما الكلمتان السحريتان اللتان ستفتحان باب خزانته الحديدية وتخترقان جدران حجرته المحصنة ؟ وتتزلان الرعب فى قلوب من لايؤمن بهذا النداء . *قولى يا ملكة : باندى ماترم !*

– باندى ماترم !

الفصل السابع

حكاية سنديب

- ٨ -

نحن رجال ، نحن ملوك فيجب أن نأخذ الجزية . منذ جئنا إلى الأرض ونحن نسلبها ، وكلما أمعنا فى الطلب أمعنت فى الوضوح . منذ أقدم العصور كنا نحن الرجال نقطف الثمار ونقطع الأشجار ونقلب الأرض ونقتل الوحش والطير والسمك . انتزاع ثم انتزاع - من قاع البحر ، من أعماق الأرض ، من بين أنياب الموت نفسه . لم يحترم صندوق مغلق فى خزانة الطبيعة ولا ترك غير منهوب .

والمسرة الوحيدة لهذه الأرض هى أن تفى بما يطلبه الرجال ، لقد أخصبت وجملت وكملت خلال تضحياتها التى لا تنتهى من أجلهم ، ولولا ذلك لضاعت فى القفار ولم تعرف نفسها : أبواب قلبها مغلقة ، وماساتها ولآلئها لا ترى النور .

وكذلك فتحنا نحن الرجال كل مكنونات النساء بقوة مطالبنا وحدها . وفى استسلامهن لنا كسبن دائما عظمتهن الحقة ، ولأنهن الزمن فيجب أن يجلبن كل ماسات سعادتهن ولآلئ حزنهن إلى خزائنتنا الملكية وجدن ثروتهن الحقة . فأن يتقبل الرجال هو حقا أن يعطوا ، وأن تعطى النساء هو حقا أن يكسبن .

على أن مطلبى من بيمالا لهو مطلب كبير ! وقد شعرت بشئ من التحرج أول الأمر ، أليس من عادة عقل الرجل أن يكون فى صراع غير مجد مع نفسه ؟ خلت أنى كلفتها أمرا عسيرا . وكان أول ما هممت به أن أناديها لترجع وأخبرها أننى أفضل ألا أشقى حياتها بجرها إلى كل هذه المتاعب ، ونسيت فى تلك اللحظة أن رسالة الرجل هى أن يعتدى ، أن يجعل وجود المرأة مثمرا بإثارة القلق فى أعماق سجيتها ، أن يبارك الحياة كلها ؛ إذ يمخض هاوية الألم السحيقة ! لهذا كانت يدا الرجل قويتين وقبضته صلبة .

لقد كانت بيمالا تتوق من كل قلبها أن أطلب منها – أنا سنديب – تضحية عظيمة ، أن أدعوها لحتفها . كيف تسعد بغير ذلك ؟ وهل انتظرت كل هذه السنوات المملة إلا أن تسنح لها فرصة لتبكى حتى يشتفى قلبها ، وهى التى أضجرتها رتابة سعادتها الهائلة ؟ لهذا لم تكن ترانى حين أظلم أفق قلبها بسحاب ماطر من أيام عذابها المقبل . فلأى غرض إذن ولدت رجلا إن أنا أشفقت عليها وأنقذتها من أحزانها؟

إن السبب الحقيقى لتحرجى هو أن مطلبى اتفق إن كان مالا . وفى ذلك معنى الشحاذة ، فإن المال للرجل لا للمرأة . ولهذا اضطررت أن أرفع الرقم ، فألف أو ألفان يبدوان سرقة حقيرة ، أما خمسون ألفا منها فلها كل اتساع القرصنة الرومانسية .

آه ، لكن الأموال كان ينبغى حقا أن تكون لى ! كم رغبة لى توقفت مرة بعد مرة وهى فى سبيل التحقيق لا لشئ إلا حاجتى إلى المال ! إن هذا لا يليق بى . ولو كان القدر ظالما فحسب لسامحته ، ولكن فساد ذوقه شئ لا يغتفر . ليس عناء فحسب أن يحار رجل مثلى فى دفع أجرة منزله ، أو يضطر إلى عد نقوده لشراء تذكرة قطار فى الدرجة الثانية – إن هذا فظيع !

وواضح كذلك أن الضياع التى ورثها نيكهيل ليست بذات فائدة له . فلو كان فقيرا لناسبه ذلك ، ولشد مستبشرا أرسان عربة السوقية الفقيرة هو وأستاذه المبجل .

أتمنى أن تتاح لى مرة واحدة فرصة الإلقاء بخمسين ألف روبية فى خدمة بلادى وإرضاء نفسى . لقد ولدت «نوابا» ، وإنه لحلم من أحلامى الكبيرة أن أطرح رداء الفقر هذا ولو يوما واحدا وأرى نفسى على حقيقتها .

على أنى أشك كثيرا فى أن تصل يد بيمالا إلى تلك الروبيات الخمسين ألفا . لعلنا لا نحصل إلا على ألف أو ألفين . إن الرجل العاقل يقنع بنصف رغيف ، بل بكسرة ، فذلك خير من ألا يجد خبزا .

يجب أن أعود إلى هذه التأملات الشخصية فيما بعد ، لقد جاء الخبر أنى مطلوب حالا . هناك عثرة ما ..

يبدو أن الشرطة قد استدلت على الرجل الذى أغرق لنا قارب ميرجان . إنه مجرم عائد ، وهم يتعقبونه الآن ، ولكن خبرته ينبغى أن تمنعه من إذاعة الأسرار . ومع ذلك فمن يدرى ؟ إن نيكهيل ثائر ، وقد لايستطيع وكيله أن يدبر الأمور كما يريد .

قال الوكيل حين رأيته : إذا وقعت ياسيدى فسأضطر إلى جرك معى .

فسألته : وما الحبل الذى يمكنك أن تشدنى به ؟

– لدى رسالة منك وعدة رسائل من أموليا بابو .

لم ألاحظ أن الرسالة التى كانت عليها كلمة «عاجل» والتى سارعت بكتابة ردها كان يقصد بها هذا الغرض وحده على وجه الاستعجال ! لقد بدأت أتعلم أشياء كثيرة .

والنقطة الآن هى أنه يجب رشوة الشرطة وإسكات ميرجان بإعطائه مبلغا من المال عوضا عن قاربه ، وكذلك يظهر أن الجانب الأكبر من ثمن مغامرتنا الوطنية هذه سيتخذ سبيله ربحا إلى جيوب وكيل نيكهيل . ولكننى يجب أن أغمض عينى عن ذلك فى الوقت الحاضر . ألا يهتف « باندى ماترم » بمثل حماستى ؟

إن مثل هذا العمل لابد أن يسير بآنية مخروقة يتسرب منها أكثر مما تأتى به . وفينا جميعا قدر من الحكم الأخلاقى مخبوء ومدخر فى باطننا ، ولهذا كدت أسخط على الوكيل وأدخل فى يومياتى خطبة وعظية فى أن مواطنينا غير جديرين بالثقة . ولكن يجب أن أقر بالشكر لله أن أعطانى عقلا واضح البصيرة لا يسمح بشئ من الغموض فى داخله أو خارجه . إننى قد أخدع غيرى ، ولكنى لا أخدع نفسى أبدا ، ولهذا لم أستطع أن أستمر فى غضبى .

كل ما كان حقيقيا فليس بخير ولا شر، إنما هو حقيقى فحسب ، وذلك هو العلم . ليست البحيرة إلا بقية من الماء لم تتشربها الأرض ، وتحت عقيدة « باندى ماترم» – وفى قرار كل عمل فى هذه الدنيا – هناك منطقة من الوحل يجب أن نحسب حساب قدرتها على الامتصاص . سينال الوكيل مطالبه ، وأنا أيضا لى مطالبى ، وهذه المطالب الأقل هى جزء من مطالب القضية الكبيرة ، فالحصان يجب أن يطعم ، والعجلات يجب أن تشحم إذا أريد المزيد من التقدم .

وأول الأمر وآخره أننا يجب أن نحصل على النقود سريعا ، ويجب أن نأخذ ما يصل إلى أيدينا أولا ؛ لأننا لا نملك أن ننتظر ، وإنى لأعلم أن العاجلة قد تذهب بالآجلة ، وأن خمسة آلاف روبية اليوم قد تضيع علينا خمسين ألفا غدا ، ولكنى يجب أن أقبل هذا الغرم . ألم آخذ على نيكهيل أن الذين يسيرون فى طريق الحكمة ناظرين إلى المستقبل لم يعرفوا قط ما التضحية ؟ إننا نحن الطامعين الذين يجب أن نضحى بطمعنا فى كل خطوة !

من كبائر الإنسان الرغبة ، هذه كبيرة الرجال الذين هم رجال . أما الضلال فإنه للجبناء وحدهم ، وهو للرجال معطل . لأن الضلال يبقيهم مغلفين فى الماضى

والمستقبل، ولكنه هو الشيطان الذى يربك خطاهم فى الحاضر . إن أولئك الذين ينصتون دائما لنداء العبيد مهملين ندائى القريب مثلهم كمثل ساكونتالا[1] التى تستغرقها ذكريات حبيبها ، ويأتى الضيف ولايؤبه له ، وتنزل اللعنة لتحرمهم مما يرغبون فيه .

منذ أيام ضغطت على يد بيمالا . لا تزال هذه اللمسة تهز نفسها كما تتموج فى نفسى . ويجب ألا يميت هزتها التكرار ، فينزل ما هو الآن موسيقى إلى محض جدال . ليس فى عقلها الآن محل للسؤال « لماذا؟» وبيمالا هى إحدى تلك المخلوقات التى لا تستغنى عن الوهم ، فيجب ألا أحرمها كفايتها منه .

أما أنا فعملى كثير حتى إنى يجب أن أقنع فى الوقت الحاضر بحباب كأس العاطفة . إيه يا ابن الرغبة ! اكبح طمعك ، ودرب يدك على مزهر الوهم حتى تبعث كل لطائف الإيماء ، فليس هذا وقت اشتفاف الكأس إلى الثمالة .

(١) بعد أن عاد الملك حبيب ساكونتالا إلى مملكته ، على وعد أن يبعث فى طلبها ، استغرقها التفكير فيه حتى إنها لم تسمع نداء ضيفها الناسك ، فلعنها قائلا بأن من تحبه سينساها نسيانا . (المترجم) .

- ٩ -

عملنا يتقدم بخطا سريعة . ولكننا وإن بححنا أصواتنا معلنين أن المسلمين أخوة لنا فقد بدأنا ندرك أننا لن نستطيع أبدا أن نحولهم إلى صفنا تماما . فيجب إذن كبحهم كبحا تاما وإفهامهم أننا نحن السادة . إنهم الآن يكثرون عن نواجذهم ، ولكن سيأتى اليوم الذى يرقصون فيه كالدببة الأليفة على الأنغام التى نعزفها نحن .

لقد اعترض نيكهيل قائلا : إذا كانت فكرة وحدة الهند فكرة حقيقية ؛ فالمسلمون جزء ضرورى منها .

قلت : أجل ، ولكننا يجب أن نعرف مكانهم ونلزمهم إياه ، وإلا فسوف يثيرون المتاعب دائما .

– إذن فأنت تريد أن تثير المتاعب لتمنع المتاعب ؟

– وما خطتك إذن ؟

فقال نيكهيل ملمحا : ليس هناك إلا طريق واحد معروف لتجنب النزاع .

إنى أعلم أن حديث نيكهيل ينتهى دائما بحكمة ، كالحكايات التى يكتبها الناس الطيبون ، وأعجب ما فى الأمر أنه لايزال يؤمن بالمبادئ الخلقية مع علمه التام بها . فهو لا يمكن أن يخرج أبدا عن حدود التلميذ ، وفضيلته الوحيدة هى إخلاصه . ومصيبة أمثاله هى أنهم لايريدون الاعتراف بأن ثمة نهاية حتى فى الموت نفسه ، بل يبقون عيونهم مشدودة أبدا إلى الآخرة .

وقد كنت أفكر منذ زمن بعيد فى خطة لو استطعت تنفيذها لأرسلت فى البلاد كلها ضراما . فالوطنية الحقة لا يمكن أن تبعث فى أبناء بلادنا إلا إذا استطاعوا أن يتمثلوا صورة الوطن . يجب أن نتخذ من الوطن معبودا .

وقد أدرك زملائى على الفور ما أعنيه فصاحوا : «فلنتخيل صورة مناسبة ! » فوعظتهم : «لن يصلح الأمر إذا تخيلتموها . يجب أن نأخذ صورة من الصور الشائعة التى تعد ممثلة للوطن، فنتجه عبادة الشعب نحوها فائضة فى مجارى العادة العميقة» .

ولكن نيكهيل يأبى إلا أن يجادل حتى فى هذا . قال لى منذ مدة : يجب ألا نستعين بالأوهام على ما نؤمن أنه الحق .

قلت : الأوهام لازمة للعقول المحدودة ، وهذه هى الطبقة التى ينتمى إليها القسم الأكبر من العالم . لهذا تقام الآلهة فى كل بلد حتى تحافظ على أوهام الشعب ، فإن الناس يشعرون أتم الشعور بضعفهم .

فأجاب : كلا . بل إننا محتاجون إلى الله ليبدد أوهامنا . أما المعبودات التى تستبقى الحياة لأوهامنا فإنها آلهة باطلة .

– وأى ضير فى ذلك ، إن لم يكن بد فلندع الآلهة الباطلة نفسها ولا ندع عملنا يفشل . من سوء حظنا أن فى أوهامنا قدرا كافيا من الحياة ، ولكننا لا نعرف كيف نستغلها . انظر إلى البراهمة . إننا نعاملهم كأنهم أنصاف آلهة ولا ننفك نمسح التراب عن أقدامهم ، ولكنهم قوة توشك أن تضيع .

ستبقى أبدا طبقة كبيرة من الناس دأبهم التذلل ، لا يمكنك أن تدفعهم إلى عمل شئ أبداً إلا إذا تلوثوا بتراب قدمى شخص ما ، سواء أكان على رءوسهم أم على ظهورهم . فأى خسارة بعد أن احتفظنا بالبراهمة فى مخزن أسلحتنا طوال هذه العصور – مشحونين صالحين للخدمة – ألا تستطاع الاستفادة منهم لتحريك هذه الغوغاء فى وقت حاجتنا !

ولكن إقناع نيكهيل بهذا كله أمر محال . فإن فى نيكهيل تعصبا للحق – كأنما يمكن أن يوجد واقع موضوعى كهذا ! وكم من مرة حاولت أن أشرح له أنه حيث يوجد الباطل وجودا حقيقيا فإنه يكون هو الحق . لقد كان هذا مفهوما فى بلادنا فى الأزمان الماضية ، ومن ثم وجدوا الشجاعة ليعلنوا أن الباطل هو الحق لضعاف الإفهام . فالذين يمكنهم أن يؤمنوا حقا بأن بلادهم آلهة معبودة أولئك تقوم صورها عندهم مقام الحقيقة. إن طبيعتنا وتقاليدنا تجعلنا عاجزين عن إدراك بلادنا كما هى ، ولكننا نستطيع أن نصل فى سهولة إلى الإيمان بصورتها ، وعلى الذين يريدون أن يعملوا عملا صحيحا ألا يتجاهلوا الحقيقة .

غير أن نيكهيل ثار . وصاح : لأنك فقدت القدرة على السير فى طريق التماس الحق فأنت لا تزال تترقب معجزة ، هبة تهبط عليك من السماء ، لهذا فإن كل ما تستطيع أن تفكر فيه حين تأخرت فى خدمة بلادك قرونا هو أن تتخذ منها صنما وتمد يديك منتظرا منه الهبات .

قلت : إننا نريد أن نصنع المستحيل ، ولهذا يجب أن نتخذ بلادنا إلهاً .

فأجاب نيكهيل : تعنى أنك مشفق من الأعمال الممكنة . ما هو قائم فعلا فليترك ولا يمس ، لكن يجب أن تكون ثمة نتيجة خارقة للطبيعة .

قلت أخيرا وقد استبد بى الغضب : اسمع يانيكهيل ، إن ما تقوله قد يصلح دروسا أخلاقية ، هذه الأفكار قد استنفدت أغراضها فى مرحلة من تطور الإنسان ، كاللبن للرضع ، ولكنها لا تصلح الآن وقد نبتت للإنسان أسنان .

ألسنا نرى أمام أعيننا كيف تنبثق فى كل جانب أشياء لم نحلم قط بأن نلقى بنورها ؟ فبأى قوة ظهرت ؟ بقوة ألوهية بلدنا التى أخذت تتجلى . وعلى عبقرى هذا العصرأن يمنح الألوهية صورتها ، ولعبقرية لا تجادل بل تخلق . ما أنا إلا معط الشكل لما تتخيله البلاد .

سأذيع على الملأ أن الآلهة اصطفتنى بحلم . سأقول للبراهمة إنهم اختيروا كهنة لها ، وأن سبب سقطتهم هو إهمالهم الواجب فى رعى عبادتها . أتقول أنى أتفوه أذن بأكاذيب ؟ ولكنى أقول لا ، إنها الحقيقة ، بل أكثر من ذلك ، إنها الحقيقة التى طالما انتظرت البلاد أن تعلمها من شفتى . لئن تمكنت من إبلاغ رسالتى لترين العجب من فعلها .

قال نيكهيل : الذى أخشاه هو أن عمرى محدود ، وأن الفعل الذى تتحدث عنه ليس بالفعل الأخير ، فسوف تكون له آثار لاتظهر فى الحال . قلت : إنما أبحث عن الفعل الذى ينتمى إلى اليوم .

فأجاب نيكهيل : أما الفعل الذى أبحث عنه فينتمى إلى الزمن كله .

لعل نيكهيل نال قسطه من موهبة البنغال العظمى . أعنى الخيال ، ولكنه سمح لنوع من التحرج أجنبى عنه أن يحجبه حتى كاد يقتله . انظر إلى عبادة « درجا » التى رفعتها البنغال إلى تلك المنزلة العليا . إننى أستطيع أن أقسم على أن درجا آلهة سياسية تصورت فيها روح البطولة أيام كانت البنغال تتضرع للخلاص من سلطان المسلمين ، فأى إقليم آخر فى الهند استطاع أن يعبر عن المثل الأعلى الذى ينشده كروعة هذا التعبير المنظور .

لم يكشف عن فقد نيكهيل لنعمة الخيال المقدسة مثل رده علىّ ؛ إذ قال : لقد طلب المراثا والسيخ الثمار من الأسلحة التى حملوها هم أنفسهم ، أما البنغالى فإنه اكتفى

بوضع الأسلحة فى يدى آلهته والتمتمة بالأدعية لها . ولأن بلاده لم تكن آلهة المقطوعة ، رؤوس الماعز والجاموس المضحى بها . أما يوم أن نطلب خير بلادنا من الطريق المستقيم فسيمنحنا الثمار الحقة من هو أكبر من بلادنا .

الشئ المؤسف هو أن كلمات نيكهيل تبدو جميلة حين توضع على الورق ، ولكن كلماتى لا يراد بها أن تخط على الورق بل أن ترسم فى قلب البلاد . إن الباندیت يسجل « مقالته عن الزراعة » بحبر المطبعة ، ولكن الزارع بسن محراثه يطبع مجهوده عميقا فى الأرض .

عندما رأيت بيمالا فى المرة التالية لم أحجم عن رفع النغمة إلى طبقة عالية . فبدأت بقولى : هل استطعنا أن نؤمن من كل قلوبنا بالإله الذى ولدنا كل هذه الملايين من السنين لنعبده ، حتى تجلى لنا آخر الأمر ؟

ومضيت قائلا : طالما قلت لك إننى لو لم أرك لما استطعت أبدا أن أعرف بلادى كلها على أنها « واحد » . لست أدرى بعد أن كنت تفهمين ما أعنيه . إن الآلهة تكون غير مرئية فى سمائها فقط - أما على الأرض فإنها تظهر نفسها للبشر .

فنظرت بيمالا إلىّ نظرة غريبة وهى تجيب بوقار : بل إننى أفهمك ياسنديب . وكانت هذه هى أول مرة تناديني فيها « سنديب » مجردا .

ومضيت أقول : إن كريشنا الذى لم يكن أرجونا يعرفه عادة إلا على أنه سائق عربة ، كانت له أيضا صورته الكونية ، وقد رأى أرجونا هذه الصورة أيضا ذات يوم . وفى ذلك اليوم رأى الحق . لقد رأيت صورتك الكونية فى بلادى . إن الكنج والبراهما هما سلاسل الذهب التى تلتف وتلتف حول عنقك ، وفى الغابات التى تحف بالشواطئ البعيدة لمياه النهر الداكنة رأيت أهدابك المكحلة ، وبريق ساريك القلاب يلمع أمامى فى لعب النور والظل على أعواد القمح الأخضر المتمايلة ، وحرارة الصيف المتقدة التى تجعل السماء كلها ترقد لاهثة كأسد أحمر اللسان فى الصحراء ما هى إلا ضياؤك القاسى .

وإذا أنعمت الآلهة على عبدها بتجليها فى هذا المظهر الرائع فعلىّ أن أعلن عبادتها فى طول البلاد وعرضها ، وعند ذلك سوف تكون للبلاد حياة جديدة . « فى معبد بعد معبد نصنع صورتك »[1] ، ولكن شعبنا لم يدرك ذلك بعد حق الإدراك . لهذا أريد أن أدعوهم باسمك وأقدم لعبادتهم صورة لا يستطيع أحد أن يضن عليها باعتقاده . امنحينى تلك النعمة وذلك السلطان.

(١) بيت من النشيد الوطنى « باندى ماترم » لبانكيم تشاترجى .

مالت أهداب بيمالا إلى أسفل وتصلبت فى كرسيها كتمثال من الحجر . فلو مضيت فى كلامى لأصابتها غيبوبة . وعندما سكت فتحت عينيها الواسعتين وتمتمت وهى شاخصة ببصرها كأنها غائبة عن الوعى « أيها المسافر فى طريق الهلاك ! منذا الذى يستطيع صدك ؟ ألست أرى أن أحدا لن يقف فى سبيل رغباتك ؟ سيضع الملوك تيجانهم عند قدميك ، ويسارع الأغنياء بفتح خزائنهم لمرضاتك ، والذين لا يملكون غير حياتهم سيضرعون أن يؤذن لهم بتقديمها . يا مليكى ، يا إلهى ! أنا لا أدرى ماذا رأيت فىّ ، ولكنى رأيت جلال عظمتك فى قلبى . من أنا أو ما أنا فى محضرها ؟ يالقوة التدمير الرهيبة ! إننى لن أعرف الحياة الحقيقية أبدا حتى تقتلنى وتمحقنى ! إننى لم أعد أستطيع احتمالها . قلبى ينشق .

وانزلقت بيمالا عن كرسيها وترامت عند قدمى ، وعانقتهما وراحت تبكى وتبكى وتبكى .

هذه هى المغناطيسية حقا ، السحر الذى يمكنه أن يخضع العالم ! لا مادة ولا أسلحة بل ضلال الإيحاء الذى لا يقاوم . منذا الذى يقول : « إن الحق سينتصر؟»[1] الضلال هو الظاهر فى النهاية . لقد فهم البنغالى ذلك حين تخيل صورة الآلهة ذات الرؤوس العشرة ممتطية صهوة أسدها ، ونشر عبادتها فى البلاد . يجب أن تخلق البنغال الآن صورة جديدة لتسحر العالم وتغزوه . باندى ماترم !

رفعت بيمالا برفق إلى مقعدها ، ولكيلا يظهر رد الفعل رحت أقول دون أن أضيع وقتا : يامليكتى ! لقد كلفتنى الأم المقدسة أن أؤسس عبادتها فى البلاد ، ولكنى – ويا للأسف – فقير .

وكانت بيمالا لا تزال متضرجة الوجه ، غائمة العينين ، غليظة النبرات ، حين أجابت : أنت فقير ! أليس كل ما يمتلكه كل واحد هو لك ؟ لماذا تمتلئ صناديقى بالحلى ؟ خذ منى كل ذهبى وجواهرى لعبادتك . فليس لها فائدة عندى !

لقد عرضت بيمالا علىّ حليها من قبل ، ومع أنى لم أتعود وضع الحدود فقد وجدت من الضرورى أن أضع حدا فاصلا هنا[2] . وإنى لأعلم لماذا أشعر بهذا التردد ، فالرجل هو الذى يجب أن يقدم الحلى للمرأة ، وأن يأخذها منها جرح لرجولته .

(١) اقتباس من الأوبانيشاد .

(٢) هناك عالم من العواطف يرتبط بالحلى التى تلبسها المرأة فى البنغال . فهى لا تشير إلى حب المعطى واحترامه فحسب، بل إن لبسها يرمز لكل معنى عزيز فى الزوجية : لعناية الزوجة الدائمة بخير زوجها ، لقيامها بواجبات المنزل المادية والروحية الموكولة إلى رعايتها . وعندما يموت الزوج وتنتقل المسئولية عن المنزل إلى امرأة أخرى تهجر الحلى كلها علامة على ابتعاد الأرملة عن مشاغل الدنيا .. والتخلى عن الحلى فى غير هذه الحالة هو دائماً علامة شقاء بالغ . ولذا يثير شهامة أى بنغالى يتفق أن يراه (المترجم).

ولكننى يجب أن أنسى ذاتى . هل « أنا » الذى أخذها ؟ إنها للأم المقدسة ! كى تصب عند قدميها عبادة لها . ولكن يجب أن يكون حفلا للعبادة لم تر البلاد مثيلا له من قبل . يجب أن يكون يوما مذكورا فى تاريخنا . ليكونن تراثى الأكبر الذى أتركه للأمة . إن الجهلاء يعبدون الآلهة ، وأنا – سنديب – سأخلقها .

ولكن هذا كله شأو بعيد . فماذا عن الأمر العاجل ؟ إننا بحاجة ماسة إلى ثلاثة آلاف على الأقل ، ولو كانت خمسة لوفت بما نريد . ولكن كيف لى أن أذكر النقود بعد أن حلقنا هذا التحليق ؟ ومع ذلك فإن الوقت ثمين !

دست كل تردد تحت قدمى حيث هببت واقتحمت الموقف :

– يا ملكة ، إن كيسنا فارغ ، وعملنا يوشك أن يتوقف ! وأجفلت بيمالا . واستطعت أن أرى أنها لاتزال تفكر فى تلك الخمسين ألفا المتعذرة . أى حمل – ولاشك– كان يثقل صدرها ، ولعلها كانت تكابده خلال ليالٍ مسهدة ! وأى شئ آخر لديها لتعبر عن عبادتها التى ملؤها الحب ؟

لقد حيل بينها وبين أن تقدم قلبها عند قدمى ، فهى تتوق إلى أن تحمل هذا القدر من المال الذى تئودها ضخامته رسالة مشاعرها الحبيسة . إن التفكير فيما لابد قد عانته يبعث فىّ وخزة ألم . فإنها اليوم كلها لى . لقد ذهبت شدة اقتلاع النبات من الجذور ، وكل ما بقى الآن هو تعهده بالرعاية والغذاء .

قلت : يامليكتى ! هذه الخمسون ألفا غير لازمة الآن . خمسة آلاف بل ثلاثة – على ما أقدر – يمكن أن تكفى فى الوقت الحاضر .

وثب قلبها من فرحة الخلاص . قالت : سأحضر لك خمسة آلاف – فى نبرات كأنها انطلاق أغرودة ، الأغرودة التى أنشدتها راديكا فى أغانى الفياشنافا :

« لحبيبى سأعقد فى شعرى

زهرة لا نظير لها فى العوالم الثلاثة ! »

نفس النغمة ونفس الأغنية : خمسة آلاف سأحضر لك ! تلك الزهرة سأعقد فى شعرى !

ضيق الناى يجلب هذه الغنائية . يجب ألا أسمح لضغط الطمع أن يفرطح القصبة وإلا فإنى أخشى أن تحل محل الموسيقى هذه الأسئلة : لماذا ؟ فيم يلزم هذا كله ؟ من أين أحصل عليه؟- ولا كلمة واحدة من هذا تتفق قافيتها مع أغنية راديكا ! لهذا أقول : إن الوهم وحده هو الواقع - إنه الناى نفسه ، أما الحقيقة فليست إلا جوفه الفارغ . لقد بدأ نيكهيل أخيرا يشعر بهذا الفراغ المطلق - إنه ظاهر فى وجهه وهذا شئ مؤلم ، حتى لى أنا . ولكن نيكهيل كان يفخر بأنه يطلب الحقيقة ، بينما كان فخرى بأنى لن أدع الوهم يفلت من قبضتى أبدا . وكل نال مايهواه ، فلم الشكوى ؟

ولكى أستبقى قلب بيمالا فى هواء المثالية المنقى قطعت كل حديث آخر فى الخمسة آلاف روبية . وعدت إلى الآلهة ماحقة الشياطين وما ينبغى لها من العبادة . متى يقام الحفل وأين ؟ إن سوقا سنوية كبيرة تعقد فى «رويمارى » داخل إمارة نيكهيل ، ويجتمع فيها مئات الألوف من الحجاج . سيكون هذا مكانا رائعا لإدخال عبادة آلهتنا !

واشتعلت حماسة بيمالا . لم يكن هذا إحراقًا للأقمشة الأجنبية أو لبيادر الناس فلن يكون لنيكهيل نفسه اعتراض ما . هكذا فكرت ، ولكنى ابتسمت بينى وبين نفسى . ما أقل ما يعرف هذان الشخصان عن أحدهما الآخر ، هذان الشخصان اللذان عاشا معا ليل نهار ، تسع سنوات كاملة ! لعلهما يعرفان شيئا عن حياتهما البيتية ، ولكنهما إذا جاءا إلى المشاغل الخارجية ضلا ضلالا مبينا . لقد كانا مطمئنين إلى الاعتقاد بتمام الانسجام بين البيت والخارج ، وهما اليوم يعلمان - لخسارتهما - أن الوقت قد فات بحيث لا يستطاع إصلاح إهمال السنين ، وإيجاد الانسجام بينهما الآن .

وما قيمة ذلك ؟ فليعرف المخطئون خطأهم حين يصطدمون بالعالم . ماذا يعنينى أنا من ارتباكهم ؟ إننى الآن أجد من الممل ترك بيمالا تحلق طويلا « كنفاخة » أسيرة فى أجواء أثيرية . الأفضل أن أفرغ تماما من الأمر الذى فى يدى .

حين نهضت بيمالا منصرفة وكادت تبلغ الباب قلت أشد ما أكون عدم اكتراث : إذن فالنقود ..

فتوقفت بيمالا وواجهتنى مرتدة وهى تقول : عند نهاية الشهر ، حين تستحق رواتبنا ..

- أخشى أن يكون الوقت قد فات .

- متى تريدها إذن ؟

- غدا .

- غدا تأخذها .

الفصل الثامن

حكاية نيكهيل

- ١٠ -

بدأت الصحف المحلية تنشر فقرات ورسائل ضدى ، وقد سمعت أن الصور الكاريكاتورية والمقطوعات الهجائية آتية على الأثر . والنكات والفكاهات تتناثر هنا وهناك ، والبلاد كلها ثائرة للأكاذيب التى تنشر على هذا النحو : هم يعلمون أن لديهم احتكار القذف بالوحل ، ولا يمكن أن ينجو العابر البرىء دون أن يلوث .

هم يقولون إن سكان إمارتى بقضهم وقضيضهم مؤيدون «للسواديشى » ، ولكنهم لايجرؤون على الظهور خوفا منى ، والقليلون الذين وجدوا الشجاعة الكافية ليتحدونى قد شعروا بوطأة اضطهادى . وثمة اتفاق سرى بينى وبين الشرطة ، واتصال شخصى بينى وبين قاضى التحقيق . ويعتقد أن جهودى الجنونية لإضافة لقب أجنبى من كسبى إلى اللقب الذى ورثته لن تذهب سدى .

ولكن الصحف مملوءة بالمديح لأولئك الأبناء البررة للوطن ، ملاك الأراضى من آل «كوندو» و«تشاكرافارتى » ، ولو كان فى البلاد - كما يقولون - عدد قليل آخر من مثل هؤلاء الوطنيين المخلصين لذبت مصانع منشستر نفسها على نغمة «باندى ماترم» .

ثم تأتى رسالة بالحبر الأحمر الدموى تسرد أسماء ملاك الأراضى الخونة الذين أحرقت خزائنهم ؛ لأنهم امتنعوا عن تأييد القضية . وتمضى الرسالة لتقول : إن النار المقدسة قد بعثت لتؤدى وظيفتها السامية فى تطهير البلاد ، وأن ثمة هيئات أخرى تعمل أيضا لمنع أولئك الذين ليسوا بأبناء أوفياء للوطن من الأثقال على حجره . والتوقيع ظاهر أنه اسم مستعار .

ولم يخف علىَّ أن هذا من فعل طلاب الأقاليم. فبعثت إلى بعضهم وأريتهم الرسالة .

فأنبأني طالب البكالوريوس عابسا أنهم قد سمعوا أيضا بأن عصبة من الوطنيين المستقلين قد تكونت ، وأنهم لن يحجموا عن شئ فى سبيل إزالة كل العقبات التى تعترض نجاح « السواديشى » .

قلت : لو خضع واحد من مواطنينا لهؤلاء المغامرين الأدعياء لتكونن هذه هزيمة للبلاد !

فقال طالب التاريخ : إننا لانفهم ماذا تعنى يامهراجا .

فحاولت أن أشرح : لقد أشرفت بلادنا على الموت بسبب الخوف وحده - من خوف الآلهة إلى خوف الشرطة . وإذا أسستم باسم الحرية خوف غول جديد مهما يكن اسمه ، وإذا أردتم أن ترفعوا علمكم الظافر على جبين البلاد بوسيلة القهر الصريح ، فلن يستطيع محب صادق للوطن أن يخضع لقراركم .

فاستمر طالب التاريخ يقول : هل ثمة بلد من البلاد ياسيدى يكون فيه الخضوع للحكومة غير ناشئ عن الخوف ؟

فأجبت : إن الحرية التى توجد فى بلد ما يمكن أن تقاس بمدى سلطان الخوف هذا . فحيث يكون تهديده مصورا على أولئك الذين يميلون إلى الإضرار أو السلب تستطيع الحكومة أن تدعى أنها حررت الإنسان من عدوان الإنسان . ولكن إذا كان الخوف هو الذى يقرر ماذا يلبس الناس أو أين يتاجرون أو ماذا يأكلون فهنا تكون حرية إرادة الإنسان غير معترف بها على الإطلاق ، ومعنى الإنسانية قد أتلف من الجذور .

وعاد طالب التاريخ يقول : ألسنا نرى ممثل هذا القهر للإرادة الفردية فى البلاد الأخرى أيضا ؟

فقلت : ومن ينكر ذلك ؟ ولكن الإنسان فى كل بلد قد أهلك نفسه بقدر سماحه للعبودية أن تزدهر .

وتدخل ماچستير فى الآداب قائلا : أليس هذا أدعى إلى إثبات أن النخاسة فطرة فى الإنسان - حقيقة أساسية فى طبيعته ؟

وقال أحد الخريجين : لقد أوضح سنديب بابو الأمر كله . فضرب لنا مثلا بهاريش كوندو ، المالك المجاور لكم . إنك لاتستطيع أن تخرج أوقية واحدة من الملح الأجنبى من ولايته . لماذا ؟ لأنه ظل يحكم دائما بيدٍ من حديد . إن أكبر المصائب لمن هم بطبعهم عبيد هى ألا يكون لهم سيد قوى .

وجاراه فى نغمته طالب لم يتخرج بعد : ألم تسمع ياسيدى بذلك المؤاجر المزعج عند تشاكرا فارتى ، المالك الآخر الغريب - كيف سلط عليه القانون حتى انتهى إلى الفقر المدقع ؟ ولما لم يجد ما يأكله آخر الأمر لجأ إلى بيع حلى زوجته الفضية ، ولكن أحدا لم يجرؤ على شرائها . ثم عرض عليه وكيل تشاكرا فارتى خمس روبيات فى الجميع ، وكانت تساوى ثلاثين ، ولكنه كان مضطرا أن يقبل أو يموت جوعا . وبعد أن أخذ الوكيل منه الصرة قال له ببرود إن هذه الروبيات الخمس ستخصم من إيجاره ! وقد هممنا أن نقطع كل صلاتنا بتشاكرا فارتى ووكيله بعد هذا ، ولكن سنديب بابو قال لنا إننا لو أقصينا كل الأحياء فلن نجد إلا جثثا من المحارق لنواصل العمل معها !

وأوضح لنا أن هؤلاء الرجال الأحياء يعرفون ماذا يريدون وكيف يحصلون عليه ، فقد ولدوا سادة . أما أولئك الذين لايعرفون كيف تكون لهم رغائبهم فإنهم يجب أن يعيشوا وفقا لرغبات أمثال هؤلاء أو يموتوا من أجلها . وقارن سنديب بابو بينهما - كوندو وتشاكرافارتى - وبينكم يامهراجا . وقال إنكم على نبل مقاصدكم لن تنجحوا فى غرس « السواديشى » فى ولايتكم .

قلت : إن رغبتى هى أن أغرس شيئا أعظم من « السواديشى» . إننى لا أريد أخشابا ميتة بل أشجارا حية ، وهذه تحتاج إلى وقت لتنمو .

فقال طالب التاريخ مستهزئا : أخشى ياسيدى ألا تحصل على خشبة ولا شجرة . إن سنديب بابو يعلمنا - وتعليمه الحق - أن من أراد الحصول على شئ فعليه أن ينتزعه . وكلنا نحتاج إلى وقت لنتعلم هذا ، فهو مناقض لما لقناه فى المدرسة . لقد رأيت بعينى أن جابيا من جباة هاريش كوندو حين لم يجد عند مؤاجر شيئا يباع ليفى بالإيجارة عمد إلى بيع زوجته الشابة ! ولم يعوزه المشترون ، ونال المالك ما طلب . الحق أقول لك ياسيدى : إن منظر مصيبة هذا الرجل قد منع منى النوم ليالى ! ولكننى على الرغم من تأثرى أدركت أن من يعرف كيف يحصل على النقود التى يطلبها ولو ببيع زوجة مدينه هو رجل أفضل منى . وإنى لاأعترف أن ذلك فوق طاقتى ، فإنى ضعيف ، تمتلئ عيناى بالدموع . لئن كان فى مقدور أحد أن ينقذ بلادنا ليكونن أمثال كوندو وتشاكرا فارتى وموظفيهما هم منقذيها !

لقد جزعت لما سمعته جزعا تقصر عنه الكلمات ، وصحت : إن كان ما تقوله حقا فإنى أرى جليا أن جهد حياتى يجب ألا ينصرف لشئ غير إنقاذ البلاد من أمثال كوندو وشاركرا فارتى وموظفيهما هؤلاء . إن العبودية التى نفذت إلى عظامنا تنطق فى هذه

الفرصة استبدادا فظيعا . لقد تعودتم الخضوع للسلطة من طريق الخوف حتى أمنتم أن إخضاع الآخرين دين . ليكن صراعي ضد هذا الضعف ، ضد هذه القسوة .

هذه الأشـيـاء التي تبـدو بسـيطة للناس العـاديين تلتـوي في عـقـول أصـحـاب البكالوريوسات والماجستيرات عندنا ، وكأن الغرض الوحيد من مناقشاتهم التاريخية هو إزهاق الحق .

- ١١ -

إننى حائر فى أمر زوجة عم نانشو المزيفة . فمن العسير إثبات كذب ادعائها ، لأن الحادثة الحقيقية قد يكون شهودها قليلين أو معدومين ، ولكن من الممكن دائما أن تحشد براهين لا تحصى على شئ لم يحدث . وظاهر أن الغرض من هذه الخطوة هو جعل بيع منزل بانشو إلى شيء كأن لم يكن .

ولما لم أجد مخرجا آخر ففكرت أن أقطع بانشو مكانا فى أرضى وأسمح له بإقامة كوخ عليه . ولكن أستاذى أبى علىّ ذلك ، وقال إننى يجب ألا أنهزم أمام تلك الأساليب الوضيعة بهذه السهولة ، وتطوع أن يتولى الأمر بنفسه . فصحت بدهشة شديدة : أنت ياسيدى !

فأجاب : نعم أنا .

ولم أستطع أن أرى بشئ من الوضوح ماذا عسى أن يفعل أستاذى ليفسد هذه الحيل القضائية . وفى ذلك المساء لم يظهر فى الوقت الذى تعود أن يجيئنى فيه . وحين سألت عنه قال خادمه إنه غادر المنزل ومعه أشياء قليلة فى حقيبة صغيرة ، وفراش خفيف ، قائلا : إنه سيعود بعد أيام ، فحسبته خرج ليبحث عن شهود فى قرية عم بانشو . ولكننى كنت موقنا أنه إن كان هذا مطلبه فلن يظفر بطائل ..

فى أثناء النهار نسيت نفسى فى عملى . حين يكتهل نهار الخريف تربد ألوان السماء ، وكذاك مشاعر نفسى . كثيرون فى هذه الدنيا تقيم نفوسهم فى منازل مبنية بالآجر ، فهم يستطيعون أن يتجاهلوا ما يسمى بالخارج . ولكن نفسى تعيش فى الخلاء تحت الأشجار ، وتستقبل الرسائل التى تحملها الرياح الطليقة دون وساطة ، وتستجيب من أعماق قلبها لكل ترانيم النور والظلام .

فى إشراق النهار حيث تتزاحم الدنيا بسعيا وراء أعمالها التى لا تحصى ، يبدو لى أن حياتى لا تريد شيئا آخر . لكن حيث تذوى ألوان السماء وتقفل العرش على نوافذها يقول لى قلبى : إن المساء لا ينزل إلا ليحجب الدنيا . ليحدد الوقت الذى يجب

أن يمتلئ فيه الظلام « بالواحد » . هذه هى الغاية التى تتآمر من أجلها الأرض والسماء والمياه ، ولست بقادر على أن أقسى إحساسى بحيث لا أتقبل معناها . لذلك حين يعمق الغسق فوق الدنيا كرنوة عيون المحبوبة السود يقول لى وجودى كله إن العمل لايمكن أن يكون هو وحده حقيقة الحياة ، وأن العمل ليس كل ما فى الإنسان ولا كل ما ينتهى إليه الإنسان ، فالإنسان ليس عبدا فحسب ، ولو كانت عبودية للحق والخير .

واحسرتاه يانيكهيل ! هل فارقت إلى الأبد ذاتك تلك التى كانت تنطلق تحت ضوء النجوم ، لتغوص فى أعماق ظلمة الليل اللانهائية بعد أن ينتهى النهار ؟ ما أشد وحشة الذى يفتقد الرفيق فى زحمة الحياة .

منذ أيام وقد بلغ الأصيل نقطة التقاء النهار بالليل لم يكن لدى عمل ولا ميل إليه ، ولم يكن أستاذى معى ليؤنسنى ، وبقلب خاو تائه يتوق إلى أن يرسو على شئ ما قادتنى خطاى إلى الحدائق الداخلية . وكنت مولعا بالأقاحى ، لدى صفوف منها على اختلاف أنواعها مرصوصة فى أصص بحذاء حائط من سور الحديقة ، وكانت حين تزهر تبدو كموجة من الخضرة تتكسر زبدا قزحيا . لقد مضى وقت لم أذهب فيه إلى ذلك الجانب من الأرض ، ومنيت نفسى بلقاء أقاحى بعد فراقنا الطويل .

وحين دخلت كان البدر قد أطل – ولما يكد – من فوق السور ، وأشعته المائلة تترك أسفل السور فى ظل عميق . وبدا كأنه جاء من الخلف على أطراف أصابعه ، ووضع كفيه على عينى الظلام وهو يبتسم بخبث . ولما اقتربت من صفوف الأقاحى رأيت أمامها شبحا ممددا على العشب ، ودق قلبى دقة عنيفة مفاجئة ، كما أن الشبح قعد مستوفزا لوقع خطاى .

كيف العمل بعد ذلك ؟ كنت أسأل نفسى : هل يحسن أن أسرع بالانسحاب ؟ وكذلك كانت بيمالا ولاشك تتلمس سبيلا للهرب . ولكن الذهاب لم يكن أقل إحراجا من البقاء ! وقبل أن أعزم على أمر نهضت بيمالا وجذبت طرف ساريها على رأسها ومضت إلى الحجرات الداخلية .

كانت هذه الوقفة القصيرة كافية لإشعارى بفداحة ما تتحمله بيمالا من شقاء . فزال منى الرثاء لحياتى أنا فى لحظة ، وناديت : بيمالا !

فانتبهت وتوقفت ، ولكنها لم تلتفت . ودرت حتى واجهتها . كان وجهها فى الظل ، ونور القمر على وجهى ، وكانت عيناها منكستين ويداها مطبقتين .

قلت : بيمالا ! ما الذى يدعونى إلى أن أسجنك فى قفصى هذا المغلق ؟ ألست أعلم أن هذا لن يكون إلاسببا لذبولك وانكسارك ؟

فظلت ساكنة لا ترفع عينيها ولا تنطق بكلمة .

فمضيت أقول : أنا أعلم أنى لو صممت على إبقائك أسيرة فلن تكون حياتى كلها إلا قيدا من حديد . فأى مسرة لى فى ذلك ؟

فلم تخرج عن صمتها . وأنهيت مقالى : لهذا أقول لك حقا يابيمالا : أنت حرة .

وعلى ذلك ذهبت إلى الحجرات الخارجية .

لا ، لا . لم يكن أريحية منى ولا عدم اكتراث . ولكنى كنت قد فهمت أخيرا أنى لن أكون حرا حتى أعطى الحرية . فلو حاولت أن أبقى بيمالا عقدا حول عنقى لكان معنى ذلك أن أبقى على قلبى ثقلا . ألم أكن أضرع بكل قولى : إن لم تكن السعادة لى فلتذهب ، إن كان الشقاء نصيبى فليأت ، لكن لا أبقين فى الأغلال . فلا معنى لأن يمسك المرء بالباطل كما لو كان حقا إلا أن يخنق نفسه . ليتنى أقى إهلاك نفسى هذا الهلاك !

عندما دخلت حجرتى وجدت أستاذى ينتظرنى هناك . وكانت مشاعرى المضطربة لا تزال تموج فى باطنى ، فبدأت أقول بغير احتفال بلا تحية ، ولا بسؤال : الحرية ياسيدى هى أعظم ما للإنسان ، فلا شئ يمكن أن يوزن بها ، لا شئ على الإطلاق !

وتطلع إلىّ أستاذى صامتا وقد أدهشه انطلاقى المفاجئ . ومضيت أقول : إن المرء لايستطيع أن يفهم شيئا من الكتب . إننا نقرأ فى الكتب المقدسة أن رغباتنا قيود تغللنا نحن كما تغلل الآخرين ، ولكن هذه الكلمات وحدها لا تعنى شيئا . ولابد لنا أن نصل إلى حد إطلاق الطائر من قفصه حتى ندرك كيف جعلنا الطائر أحرارا . فكل شئ نحسبه يقيدنا برغبة أغلالها أقوى من سلاسل الحديد . أقول لك ياسيدى إن هذا هو ما عجز العالم عن أن يفهمه . كلهم يحاولون إصلاح شئ خارج أنفسهم ، والإصلاح إنما يطلب فى رغبات المرء ، لا فى أى مكان آخر ، لا فى أى مكان آخر !

قال : نحن نحسب أننا سادة أنفسنا حين تقبض أيدينا على الشئ الذى نرغبه ، ولكننا لا نكون سادة أنفسنا حقا إلا حين نستطيع أن نطرح رغباتنا من نفوسنا .

فمضيت أقول : سيدى ، إننا حين نضع هذا كله فى كلمات يبدو أشبه بموعظة سخيفة ، ولكننا إذا أدركنا ولو بعضا منه وجدناه هو تلك « الأمريتا » التى شربت منها الآلهة وأصبحت خالدة .

إننا لا نقدر أن نرى الجمال حتى نرسله من قبضتنا . لقد كان بوذا هو الذى غزا العالم لا الإسكندر . إن هذا يبدو باطلا حين نعبر عنه بكلام منثور جاف . أوه ، متى نستطيع أن نغنيه ؟ متى تفيض هذه الحقائق الكونية العميقة من صفحات الكتب المطبوعة وتقفز إلى نهر مقدس كنهر الكنج ؛ إذ ينطلق من عليائه المقدسة .

وتذكرت فجأة غياب أستاذى هذه الأيام الأخيرة وجهلى بسببه . وشعرت أنى أشبه بالأحمق حين سألته : وأين كنت طوال هذه المدة ياسيدى ؟

فأجاب : كنت مقيما مع بانشو .

فصحت : حقا ! أكنت هناك كل هذه الأيام ؟

– أجل . أردت أن أنتهى إلى اتفاق مع المرأة التى تسمى نفسها زوجة عمه . كادت لا تصدق أنه يمكن أن يوجد بين السادة شخص غريب كذلك الذى تضيفهم . قلت لها: لن تتخلصى منى يا أماه ولو شتمتنى ! وما دمت مقيما فسيقيم بانشو أيضا . ألا ترين أنى لا أستطيع أن أقف وأنظر إلى أطفاله الذين لا أم لهم يطردون إلى الشوارع ؟

ظلت تستمع لمثل هذا الكلام منى يومين دون أن تقول نعم أو لا . وفى هذا الصباح وجدتها تربط صررها . قالت : « إننا عائدتان إلى برندابان ، أعطنا مصروفات السفر » . وعلمت أنها غير ذاهبة إلى برندابان ، وأن أجر رحلتها سيكون كبيرا ، ولهذا جئت إليك .

فقلت : سيدفع الأجر المطلوب .

ومضى أستاذى يقول متأملا : ليست هذه العجوز امرأة شريرة . إن بانشو لم يكن واثقا إلى أى طائفة تنتمى ، فأبى أن يسمح لها بلمس جرته أو شئ من أدواته ، ولهذا كانا دائمى الشجار ، ولكنها حين وجدتنى لا آبى ذلك عليها خدمتنى بإخلاص . إنها طباخة ماهرة .

ولكن ما بقي من احترام بانشو قد زال . لقد كان يظنني حتى ذلك الوقت رجلا عاديا على الأقل ، فإذا بى أخاطر بعزة طائفتي دون تحرج لأستميل العجوز إلى غرضى . ليس هذا كأن أحاول التغلب عليها بإحضار شاهد زور إلى المحكمة ، فالمكر يجب أن يقابل بالمكر . أما الحيلة على حساب التقوى فشئ لا يمكن احتماله !

قلت : قد نستطيع إنقاذه وقد لا نستطيع ذلك ، ولكننا إن متنا فى سبيل إنقاذ بلادنا من الحبائل الكثيرة التى لا يألُ هؤلاء القوم جهدا فى نشرها ، حبائل الدين والتقاليد والأنانية ، فإننا على الأقل سنموت سعداء .

- ١٤ -

من كان يظن أن ذلك كله يمكن أن يحدث فى هذه الحياة الواحدة ؟ لكأنى مررت بسلسلة من الولادات ، كان الزمن يمر سريعا سريعا حتى لم أشعر بحركة ، إلى أن جاءت الصدمة منذ أيام .

حين عزمت على أن أطلب إلى زوجى منع البضائع الأجنبية من سوقنا كنت أعلم أن سيكون بيننا كلام . ولكننى كنت موقنة أنى لن أحتاج إلى مقابلة الحجة بالحجة ، فقد كان الهواء الذى يحيط بى نفسه مشبعا بالسحر ، ألم يسقط جبار مثل سنديب عاجزا عند قدمى كموجة من البحر العظيم تتكسر على الشاطئ ؟ هل ناديته ؟ لا ، بل ناداه ذلك السحر المحيط بى . وأموليا - ذلك الصبى العزيز المسكين - كيف احمر تيار حياته كالنهر عند الفجر حين جاءنى لأول مرة ! لقد عرفت حقا كيف تشعر الآلهة حين تنظر إلى وجه عابدها المشرق .

للثقة التى اكتسبتها من هذه الدلائل على قدرتى كنت مستعدة للقاء زوجى كسحابة مشحونة بالكهرباء . ولكن ماذا حدث ؟ لم أر قط طوال هذه السنوات السبع مثل تلك النظرة البعيدة الشاردة فى عينيه - كسماء الصحراء - لا ندى رحيم فيها ولا لون منعكس مما تنظر إليه . ولو انفجر غضبه لشعرت براحة أى راحة ، ولكنى لم أستطع أن أجد فيه شيئا يمكننى أن ألمسه . شعرت أنى كاذبة كحلم ، حلم لن يترك حين ينقضى إلا سواد الليل .

فيما مضى كنت أغار من سلفتى لجمالها . ثم سكنت إلى الشعور بأن السماء لم تمنحنى قوة خاصة بى ، وأن كل قوتى هى فى الحب الذى يغدقه زوجى علىّ . والآن وقد أفرغت كأس القوة حتى الثمالة - ولا غنى لى عن نشوتها - أجدها فجأة محطمة عند قدمى ، لم تترك لى شيئا أعيش من أجله .

كم كنت محمومة حين جلست لأعقص شعرى ذلك اليوم ! أوه ، يا للعار ، ياخجلتى ، يا ما أشد خزيى ! لقد صاحت سلفتى حين مرت بى : « آه تشوتا رانى ، شعرك يكاد ينط . لا تتركيه يحمل رأسك معه » .

ومنذ أيام ، في الحديقة .. ما أسهل ما قال لي زوجي ، إنه يمنحني حريتي ! ولكن هل الحرية - الحرية الفارغة - يمكن أن تعطى وتؤخذ بهذه السهولة ؟ إن هذا أشبه بإطلاق الحرية لسمكة في السماء ؛ فكيف يمكنني أن أتحرك أو أعيش خارج جو الحب العطوف الذي كان يحييني دائما ؟

عندما دخلت حجرتي اليوم لم أر غير الأثاث - الفراش ، المرآة ، المشجب - لا القلب الذي ينفذ إلى كل شئ ، والذي كان يهيمن على كل ما هناك . بدلا منه كانت هناك الحرية ، لا شئ غير الحرية ، الفراغ المطلق ! مجرى جاف تعرت صخوره وحصباؤه . لا شعور ، بل أثاث فقط !

حين وصلت إلى حالة من الحيرة الشاملة وسألت نفسي إن كان قد بقي في حياتي شئ صادق وأين عساه يكون ، صادفت سنديب مرة أخرى . وهنا اصطدمت حياة بحياة ، وتطاير الشرر كدأبه في القديم . هنا كانت الحقيقة ، الحقيقة الهوجاء التي تندفع وتتجاوز كل الحدود ، حقيقة أصدق ألف مرة من البارا راني ووصفتها ، وثاكو وأغانيها البلهاء ، وسائر من يتكلمون ويضحكون ويذهبون ويجيئون ..

لقد قال سنديب : خمسون ألفا !

وصاح قلبي المنتشي : وما خمسون ألفا ؟ ستكون بين يدك !

كيف الحصول عليها ، ومن أين ؟ مسائل فرعية لا تستحق الاهتمام . انظر إليّ ؛ ألم أرتفع ، في لحظة واحدة ، من العدم الذي كنت فيه إلى قمة فوق كل شئ ؟ كذلك ستأتي الأشياء كلها حين أشير إليها بإصبعي . سأحصل عليها ، هذا ما لاريب فيه .

هكذا تركت سنديب منذ أيام . ثم حين تلفت حولي .. أين كانت ، تلك الشجرة الدائم أكلها ؟ أوه ، لماذا يهين هذا العالم الخارجي القلب ؟

ولكنني يجب أن أحصل عليها. كيف لا يعنيني كيف . فلا يمكن أن يكون ثمة إثم . إن الإثم لا يلوث غير الضعفاء ، وأنا « بروحي » فوق متناوله . لا يكون اللص إلا رجلا من العامة ، أما الملك فإنه يغزو ويغنم .. يجب أن أعرف مكان الخزانة ، ومن يضع فيها المال ، ومن يحرسها .

أمضيت نصف الليل واقفة في الشرفة الخارجية أتطلع إلى صف أبنية الإدارة . ولكن كيف الحصول على تلك الروبيات الخمسين ألفا من قبضة هذه القضبان الحديدية ؟ لو استطعت برقية ما أن أجعل كل أولئك الحراس يسقطون موتى في أمكنتهم لما ترددت - إلى هذا الحد كنت أشعر أني قاسية !

ولكن منزل الراجات الكبير كان ينام فى سلام ، بينما ترقص عصبة كاملة من اللصوص رقصة الحرب فى رأس ملكته الدائر . وكانت الساعة تدق ساعة بعد ساعة ، والسماء من فوق تطل فى هدوء .

وأخيرا بعثت إلى أموليا . قلت له : إن القضية الوطنية محتاجة إلى مال . فهل تستطيع أن تحصل عليه من الخزانة ؟

فقال ، ونفخ صدره : لم لا ؟

وا أسفاه ، أتراني قلت « لم لا » لسنديب بهذه الطريقة نفسها ؟ إن ثقة الصبى المسكين لم تستطع أن تثير فى نفسى أملا ما .

سألت : كيف ستفعل ذلك ؟

إن الخطط العجيبة التى بسطها لى لا تحتمل إلا على صفحات رواية رخيصة مليئة بالرعب .

قلت بقسوة : لا يا أموليا . يجب ألا تكون طفلا .

فقال: حسنا إذن دعيني أرشو أولئك الحراس .

– ومن أين لك بالنقود ؟

فانفجر قائلا دون إجفال : يمكننى أن أنهب السوق .

– دع هذا كله . إن عندى حليى ، وهى تكفينا .

قال أموليا : ولكنى دهش لأن الصراف لا تمكن رشوته . لا بأس . هناك سبيل آخر أيسر .

– وما ذاك ؟

– ما حاجتك إلى سماعه ؟ إنه جد يسير .

– أحب أن أعلمه مع ذلك .

فبحث أموليا فى جيب سترته وأخرج أولا نسخة صغيرة من الجيتا[1] وضعها على المنضدة ، ثم مسدسا أراني إياه ، ولكنه لم يزد قولا .

(١) البهاجافاد جيتا : أهم الكتب المقدسة عند الهنود (المترجم) .

يا للفظاعة ! إنه لم يحتج إلى لحظة واحدة ليقرر قتل صرافنا العجوز الطيب[١] ولو نظرت إلى وجهه الصريح الطلق لما ظننته قادرا على أن يؤذى نبابة ، ولكن الكلمات التى انبعثت من فمة كانت جد مختلفة ، لقد كان واضحا أن مكان الصراف فى العالم لايعنى شيئا بالنسبة له . إنه مجرد فرا غ لا حياة فيه ولاشعور ، ليس فيه إلا عبارات محفوظة من الجيتا . « من يقتل الجسم يقتل عدما ! » .

صحت أخيرا : ما الذى تعنيه يا أموليا ؟ ألا تعلم أن لهذا الشيخ العزيز زوجة وأطفالا وأنه ...

فقاطعنى قائلا : وأين نجد رجالا ليس لهم زوجات وأطفال ؟ انظرى يامهرانى ، إن الشئ الذى نسميه شفقة ليس فى صميمه إلا إشفاقا على أنفسنا . إننا لانستطيع أن نحتمل جرح غرائزنا الرقيقة ، ولهذا لا نضرب أبدا . الشفقة حقا ! إنها غاية الجبن !

أذهلنى سماع عبارات سنديب من فم ذلك الصبى . كم كانت سذاجته جميلة محببة - كان فى تلك السن التى لا تزال تستطيع أن تؤمن بالخير على أنه خير ، فى تلك السن التى يحيا فيها المرء حقا وينمو ، واستيقظت فى الأم .

لى أنا لم يبق خير ولا شر . لم يبق إلا الموت ، الموت الجميل المغرى . ولكن جسمى كله ارتجف لسماع هذا الغلام يتحدث بهدوء عن قتل شيخ مسالم على أنه ما ينبغى عمله. وبدا لى الإثم فظيعا فى كلماته بقدر ما وضح لى أن قلبه خلو من كل إثم . وكأنما رأيت آثام الآباء يحملها طفل برئ .

مس أوتار قلبى منظر عينيه الكبيرتين تلمعان إيمانا وحماسة . لقد كان منطلقا كالمسحور إلى أنياب البيثون[٢] ، حيث لا رجوع لداخل . كيف يمكن إنقاذه ، لماذا لا تصبح بلادى مرة أما حقيقية ، تحضنه وتصيح : «أوه يا ولدى ، يا ولدى ، أى ربح فى أن تنقذنى إن لم أستطع إنقاذك ؟ » .

أنا أعلم ، أنا أعلم أن كل قوة فى الأرض تتعاظم حين تلتحم بالشيطان ، ولكن هناك الأم تدين هذا التقدم الشيطانى وتقف فى سبيله ولو كانت وحيدة . إن الأم لا

(١) الصراف هو أكثر الموظفين اتصالا بالسيدات فى بيت ملاك الأراضى ، فهو يتلقى منهن مباشرة ما يطلبنه لحاجات البيت ، ويتسوق لهن ، ولهذا يصبح أقرب من غيره إلى أن يعد فردا من الأسرة (المترجم) .

(٢) فى الأساطير اليونانية : أفعى خرافية قتلها أبولو (المترجم) .

تبالى بالنجاح وحده مهما يكن عظيما ، إنها تريد أن تمنح الحياة ، وأن تنقذ الحياة . وإن روحى اليوم لتمد يديها مشتاقة إلى إنقاذ هذا الصبى .

منذ لحظة أوحيت إليه بالسرقة . ومهما أقل الآن منفرة منها فسيفسره بضعف المرأة . إنهم لا يحبون ضعفنا إلا حين يجر العالم فى شباكه !

قلت له أخيرا . لا حاجة بك أن تفعل شيئا ما يا أموليا . سأدبر أمر النقود .

وحين كاد يبلغ الباب ناديته ليرجع . قلت : أموليا . إننى أختك الكبيرة ليس هذا يوم الأخ(١) فى التاريخ ، لكن كل أيام السنة هى فى الواقع أيام الأخ . فلتكن بركتى معك ، وليحرسك الله أبدا .

فوجئ أموليا بهذه الكلمات غير المتوقعة من شفتى ، فوقف برهة لايتحرك ، ثم عاد إليه إدراكه فركع عند قدمى قبولا منه لهذه الصلة ، وأحنى رأسه إجلالاً . وعندما نهض كانت عيناه مغرورقتين بالدموع .. أوه يا أخى الصغير ! إننى مسرعة إلى موتى ، فدعنى أحمل كل ذنبك معى ، ولا تلوثن برائتك أبدا وصمة واحدة منى !

قلت له : فلتكن هدية إجلالك هى ذلك المسدس !

– ما حاجتك إليه يا أختى ؟

– سأتدرب على الموت .

– إن نساءنا أيضا يجب أن يعرفن كيف يمتن ، وكيف يصنعن الموت !

قال ذلك وناولنى المسدس .

وكأنما لون إشراق وجه الصبى حياتى بلمسة فجر جديد . فوضعت المسدس بين ملابسى . فلتكن هدية الإجلال هذه هى الملجأ الأخير فى ضائقتى ..

(١) للابنة معزة خاصة فى البيت البنغالى (ولعل ذلك صحيح بالنسبة إلى البيوت الهندوسية عامة في جميع أنحاء الهند) لأن التقاليد تقضى بزواجها المبكر . ولهذا تحمل معها ذكريات المحبة والحنان إلى بيت زوجها ، حيث يتحتم عليها أن تبدأ غريبة قبل أن تحتل مكانتها . وقد اتخذ الشعور الناشئ عن ذلك عند ربة البيت الجديد بالنسبة إلى البيت الذى تركته صورة عرفية فى « يوم الأخ » ، الذى يدعى فيه الأخوة إلى منازل أخواتهم المتزوجات . وإذا كانت الأخت أكبر سنا فإنها تعطى بركتها وتتلقى إجلال أخيها . والعكس بالعكس ، ويتبادلان الهدايا ، وتسمى هدايا الإجلال أو البركة . (المترجم) .

حين فتح الباب إلى غرفة الأم في قلبي الأنثوي حسبت أنه سيظل مفتوحا أبدا . ولكن هذا المعبر إلى الخير الأسمى أغلق حين حلت الحبيبة محل الأم وأغلق ثانية . في اليوم التالي نفسه رأيت سنديب . ورقص الجنون على قلبي عريان معربدا .

ما كان هذا ؟ أهذه إذن هي نفسي الأصدق ؟ كلا ! إنني لم أعرف قط هذه النفس المستهترة القاسية فيَّ . لقد جاء الساحر زاعما أنه سيخرج هذا الثعبان من بين طيات ملابسي ، ولكنه لم يكن هناك قط ، بل كان ثعبانه ولم يزل . لقد استولى على شيطان ، وما أفعله اليوم هو من أفاعيله ، ولا شأن لي به .

لقد جاءني هذا الشيطان في ثوب إله ، جاءني ذلك اليوم بمشعله الساطع قائلا : « أنا بلادك . أنا رجلك سنديب . أنا أقرب إليك من كل ما لديك . « باندي ماترم !» وأجبته وقد أطبقت يدي : « أنت ديني . أنت جنتي . كل مالي سواك سيجرفه حبي لك . باندي ماترم ! » .

أهي خمسة آلاف ؟ فلتكن خمسة آلاف ! تريدها غدا ! غدا تأخذها ! في هذه السكرة القاتلة ستكون هدية الخمسة آلاف أشبه بحبات الخمر – وبعدها هيا إلى الصخب المعربد ! العالم المستقر سيتزلزل تحت أقدامنا ، والنار ستندلع من عيوننا ، وستزأر في آذاننا عاصفة ، ويقيم الذي أمامنا كالذي ليس أمامنا . ثم بخطا مترنحة نغوص في موتنا ، وفي لحظة تطفأ كل النار ، وينتثر الرماد ، ولا يبقى شيء بعدنا .

الفصل التاسع

حكاية بيمالا

- ١٥ -

حرت مدة فى سبيل الحصول على هذه النقود . ثم مثلت أمامى الصورة كلها فى وضوح تحت ضوء القلق الشديد . كان ذلك منذ أيام .

فى كل عام يقدم زوجى هدية إجلال إلى سلفتى مقدارها ستة آلاف روبية فى موسم درجا بوجا . وفى كل عام تودع باسمها فى المصرف فى كلكتا . وقد قدمت الهدية هذا العام كالعادة ، ولكنها لم ترسل بعد إلى المصرف . ولم تزل محفوظة فى خزانة حديدية فى ركن من حجرة الملابس المتصلة بمخدعنا .

وكان زوجى نفسه يأخذ النقود إلى المصرف كل عام ، ولكنه لم يتح له الذهاب إلى المدينة هذا العام . كيف كان يمكننى ألا أرى يد القدر فى هذا ؟ لقد أبقيت النقود ؛ لأن البلاد فى حاجة إليها .

من كان يستطيع أن يأخذها منها ليضعها فى المصرف ؟ وكيف أستطيع أنا الامتناع عن أخذ النقود ؟ إن الآلهة التى تطرب للتدمير تمد كأسها الملطخ بالدم صائحة : « أعطينى أشرب. إننى ظمأى » . سأعطيها دم قلبى مع هذه الخمسة آلاف . أماه ، إن التى تفقد هذه النقود لن يؤذيها فقدها كثيرا ، ولكننى أنا التى ستدمريننى تدميرا !

كثيرا ما كنت – قديما – أسمى الرانى الكبرى بينى وبين نفسى لصة ، لأنى كنت أتهمها بخداع زوجى الطيب ، وكثيرا ما كانت بعد موت زوجها تستخلص لنفسها أشياء من ملك الولاية ، وكنت أنبه زوجى إلى ذلك، ولكنه يلزم الصمت، فأغضب وأقول : « إن كنت أريحيا فلك أن تهب كما تشاء ، ولكن لماذا تسمح بأن تسرق ؟ » ولابد أن القدر كان يضحك وقتئذ لشكاوى هذه ، فإننى الليلة فى طريقى إلى سرقة نقود سلفتى من خزانة زوجى .

وكانت عادة زوجي أن يبقى مفاتيحه في جيوبه حين يخلع ملابسه قبل النوم ويتركها في حجرة الملابس . فأخذت مفتاح الخزانة وفتحتها . وخيل إليّ أن الصوت الصغير الذي أحدثته سيوقظ العالم كله . وعرتني قشعريرة مفاجئة جعلت يدي وقدمي باردة كالثلج ، وارتجف جسمي كله .

كان في داخل الخزانة درج – وحين فتحته وجدت النقود . لم تكن أوراقا بل قطعا ذهبية ملفوفة في قراطيس . ولم أجد وقتا لأعد ما أحتاج إليه . كان هناك عشرون لفافة أخذتها جميعا وربطتها في حاشية ساري .

كم كانت ثقيلة ! إن عبء السرقة رزح على قلبي حتى ألصقه بالترب . ولعلها لو كانت أوراقا لبدا الأمر أقل شبها بالسرقة ، ولكنها كانت كلها ذهبا .

بعد أن تسللت إلى حجرتي كاللصة بدت كأنها لم تعد حجرتي . لقد اختفت كل حقوقي الغالية عليها حين لمست المال المسروق ، ورحت أتمتم لنفسي وكأنني أردد بعض الرقى : «باندي ماترم . باندي ماترم ، يا بلادي ، يا بلادي الذهبية ، لك كل هذا الذهب لا لأحد غيرك ! » .

ولكن العقل يضعف في الليل . لقد عدت إلى المخدع حيث كان زوجي نائما ، وأغمضت عيني وأنا أعبره خارجة إلى الشرفة المشكوفة وراءه ، حيث انبطحت على وجهي وأنا أضم إلى صدري حاشية الساري التي صرت على الذهب ، وبعثت في كل لفافة هزة ألم .

ووقف الليل الصامت هناك رافعا سبابته . ولم أستطع أن أفكر في منزلي على أنه منفصل عن بلادي : لقد سرقت منزلي ، لقد سرقت بلادي . وبسبب هذه الخطيئة لم يعد منزلي منزلي ، وكذلك بلادي أصبحت غريبة عني . لو أنني مت وأنا أشحذ من أجل بلادي – ولو دون جدوى – لكانت تلك الشحاذة عبادة تتقبلها الآلهة . ولكن السرقة لا تكون عبادة أبدا ، فكيف يمكنني إذن أن أهب هذا الذهب ؟ تعسا لي ! إنني مقضي عليّ بالموت ، فهل يجب أن أدنس بلادي بلمستي الشريرة ؟

لا سبيل لي إلى النقود . ليست لدي القوة لأعود إلى الحجرة ، وأخرج ذلك المفتاح ثانية ، وأفتح الخزانة من جديد – لأموتن على عتبة باب زوجي . إن السبيل الوحيد الباقي هو سبيل التقدم . ليست لدي القوة أيضا لأجلس هادئة وأعد النقود . فلتبق خلف أغطيتها ، إنني غير قادرة على الحساب .

كانت سماء الشتاء خلوا من الضباب ، والنجوم تلمع ، فقلت لنفسى وأنا راقدة هناك : لو كان على أن أسرق هذه النجوم كالقطع الذهبية واحدة واحدة من أجل بلادى – هذه النجوم المحفوظة بعناية فى حضن الظلام – إذن لعميت السماء ، وترمل الليل أبدا ، ورزأت سرقتى العالم كله . لكن هذا الذى فعلته .. أليس هذا أيضا سرقة للعالم كله ، لا سرقة للمال فحسب ، بل الثقة والأمانة ؟

قضيت الليل راقدة فى الشرفة ، حتى إذا أصبح الصباح وأيقنت أن زوجى قد استيقظ وغادر الحجرة ، هنالك فقط استطعت أن أعود أدراجى إلى الحجرة بعد أن أرخيت ملفحتى على رأسى .وكانت سلفتى تجول بقدرها النحاسية تسقى نباتاتها . فلما بصرت بى مارة على بعد صاحت : هل سمعت الخبر ياتشوتا رانى ؟

فوقفت صامتة أرتعد . وخيل إلى أن لفافات الذهب تبرز من الملفحة ، وخفت أن تتمزق وترن متساقطة لتفضح أمام خدم المنزل جميعا تلك اللصة التى أفقرت نفسها حين سرقت ثروتها .

ومضت سلفتى قائلة : إن عصابة اللصوص الذين معك قد بعثوا رسالة مجهولة ينذرون فيها بنهب الخزانة .

فظللت صامتة صمت اللصوص . وأردفت مازحة .

– كنت أنصح لأخى نيكهيل أن يلجأ إلى حمايتك . أعدى صبيانك عنا أيتها الملكة السارقة ! سنقدم القرابين لإلهك « باندى ماترم » إن أنت أنقذتنا . ما أعجب ما يجرى فى هذه الأيام ! لكن بحق الله أعفى منزلنا من السرقة على الأقل .

وأسرعت إلى حجرتى دون أن أجيب . لقد وضعت قدمى على رمل موار ، ولم يعد فى استطاعتى أن أسحبها الآن ، فلن يزيدنى التملص إلا غوصا .

متى أسلم النقود إلى سنديب ! لم أعد أستطيع احتمالا ، لقد كان ثقلها يحطم أضلاعى .

كان الوقت لايزال مبكرا حين تلقيت كلمة أن سنديب فى انتظارى . لم أبال اليوم بزينتى ، بل ذهبت إلى الحجرات الخارجية مشتملة بملفحتى كما كنت .

وحين دخلت حجرة الجلوس رأيت سنديب وأموليا هناك معا . فخيل إلىّ أن كل كرامتى وشرفى يجريان مشتعلين فى جسمى من الرأس إلى القدم ويغيبان فى الأرض.

أفحتم عليّ أن أكشف أقصى عار امرأة أمام عيني هذا الصبي ! أتراهما كانا يتحدثان عن فعلتي في اجتماعهما ؟ وهل بقيت لي بقية من قناع لعزة أو وقار ؟

نحن النساء لن نفهم الرجال أبدا . إنهم حيث يصممون على شق طريق للوصول إلى هدف ما لايبالون أن يحطموا قلب العالم قطعا كي يمهدوه لسير مركبتهم . وحين تذهب بعقولهم نشوة الخلق يفرحون بتدمير ما صنعه الخالق . إن عاري هذا الذي يمزق القلب لم يكن ليسترعي من أعينهما نظرة . إنهما لايشعران بالحياة نفسها : كل حماستهما منصبة على غرضهما . وهل أنا لهما إلا زهرة من زهور المروج في طريق سيل دفاق ؟

وما نفع دماري هذا لسنديب ؟ خمسة آلاف روبية فقط ؟ أما كنت أصلح لشئ أكثر من خمسة آلاف روبية فقط ؟ أجل ، أجل ! ألم أتعلم هذا من سنديب نفسه ، أو لم أكن قادرة بفضل هذه المعرفة على أن أحتقر كل شئ آخر في عالمي ؟ لقد كنت واهبة النور والحياة و«الروح» والخلود ، وبذلك الاعتقاد ، وبذلك الفرح ، كسرت حدودي كلها وبرزت . ولو أن أحدا حقق لي ذلك الفرح عندئذ لحييت في موتي ، ولما فقدت شيئا إذ أفقد كل شئ .

هل يريدان أن يقولا لي الآن : إن ذلك كله كان باطلا ؟ ونشيد ثنائي الذي غنى بذلك الولاء ، هل أنزلني من سمائي ليجعل السماء نفسها كالتراب ، لا ليجعل الأرض كالسماء ؟

- ١٦ -

قال سنديب ونظرته الحادة منصبة كلها على وجهى : النقود ياملكة ؟

وكذلك ثبت أموليا نظرته علىّ . إن هذا الصبى العزيز ليس ابن أمى ، ولكنه أخ لى ، فـإن الأم أم فى كل مكان على الأرض . نظر إلىّ بوجـهـه الصـافى ، وعـينيـه الحنونتين ، وشبابه البرىء . وأنا.. كيف استطعت أن أقدم إليه السم وأنا امرأة كأمه - ألأنه طلبه ؟

« النقـود ياملكة ! » رن سـؤال سنديب الوقح فى أذنى ، ووددت لخـجلى وغـيظى وحدهما أن أقذف بذلك الذهب على رأس سنديب . بمشقة استطعت أن أحل عقدة السارى ، فقد كانت أصابعى ترتجف أى ارتجاف . وأخيرا سقطت اللفافات على المنضدة .

واسود وجه سنديب ... لابد أنه حسب اللفافات من فضة ... أى احتقار كان فى نظراته ! أى اشمئزاز من ذلك العجز ! كأنما كان يهم بضربى ! لابد أنه خالنى جئت لأفاوضه ، لأنزل بالخمسة آلاف التى طلبها إلى بضع مئات . ومرت لحظة ظننت أنه سيخطف اللفافات ويرميها من النافذة معلنا أنه ليس شحاذا ، بل ملك يطلب الجزية .

وسأل أموليا وفى صوته نبض شفقة جعلتنى أود لو أجهش بالبكاء: أهذا كل شئ؟

وأحكمت كبح قلبى ، واكتفيت بأن أومأت برأسى .

وظل سنديب واجما ، لم يلمس اللفافات ، ولا نطق بحرف .

ومست مذلتى قلب الصبى ، فصاح بحماسة مفاجئة مصطنعة : هذا كثير . إنه يكفى كل حاجتنا . لقد أنقذتنا .

وبهذه الكلمات مزق غطاء إحدى اللفافات .

وبرقت الجنيهات الذهبية . وفى لحظة بدا كأن الغطاء الأسود قد رفع عن وجه سنديب أيضا ، فأضاءت قسماته سرورا ، ولم يستطع التحكم فى انقلاب شعوره ،

فوثب عن كرسيه نحوى . ولست أدرى ماذا كان يهم أن يفعل ، فقد رميت نظرة كالبرق نحو أموليا ، فإذا بوجه الصبى يشحب كأنما لسعه سوط . ثم دفعت بسنديب عنى بكل قوتى ، ففقد توازنه واصطدم رأسه بحافة المنضدة الرخامية ، وسقط على الأرض . وبقى هناك برهة لا يتحرك ، أما أنا فهبطت على مقعدى وقد أنهك المجهود قواى .

وأشرق وجه أموليا إشراق الفرح ، حتى إنه لم يلتفت إلى سنديب ، بل أقبل علىّ ومسح التراب عن قدمى ، وبقى هناك جالسا إزائى على الأرض . آه يا أخى الصغير ، ياطفلى ! إن تحية إجلالك هذه هى آخر لمسة من السماء بقيت فى عالمى المقفر ! لم أعد أستطيع أن أتمالك نفسى . وفاضت دموعى انسكابا ، فغطيت عينى بطرف سارى وضغطت على وجهى بكلتا يدى ورحت أنتحب وأنتحب ، وكلما شعرت بلمسته الرقيقة على قدمى تحاول تهدئتى تجدد بكائى .

ولما أفقت بعد قليل ورفعت يدى عن وجهى رأيت سنديب عند المنضدة يجمع الجنيهات فى منديله كأن شيئا لم يحدث . ونهض أموليا من مكانه عند قدمى إلى كرسيه وعيناه المخضلتان تبرقان .

ونظر سنديب إلى وجهى ببرود وهو يقول : إنها ستة آلاف .

فصاح أموليا : ما حاجتنا إلى هذا القدر ياسنديب بابو ، إن كل ما يلزمنا لعملنا ثلاثة آلاف وخمسمائة .

فأجاب سنديب : إن حاجتنا ليست لهذا المكان وحده . وسوف نحتاج إلى كل ما نستطيع الحصول عليه .

قال أموليا : قد يكون هذا . ولكنى أتعهد بأن آتيك بكل ما نحتاج إليه فى المستقبل . أما هذا فأرجوك أن ترد ألفين وخمسمائة منه إلى المهرانى .

فنظر سنديب إلىّ مستفهما . فابتدرته : لا ، لا ، لن أمس هذه النقود ثانية ، افعل بها ما تريد .

قال سنديب ناظرا نحو أموليا : هل يستطيع الرجل يوما أن يعطى كما تعطى المرأة ؟

فوافقه أموليا بحماسة : إنهن آلهات !

ومضى سنديب يقول : نحن الرجال نستطيع على الأكثر أن نعطى من قدرتنا ، ولكن النساء يعطين أنفسهن . من حياتهن يلدن ، ومن حياتهن يغذون . مثل هذه

العطايا هى العطايا الحقة . ثم التفت إلىّ قائلا : يا ملكة ! لو كان من أعطيتنا إياه هو المال وحده لما لمسته ، ولكنك أعطيت ما هو أكبر عندك من الحياة نفسها !

لابد أن فى الإنسان شخصين مختلفين . فأحد هذين الشخصين قادر على أن يفهم أن سنديب يحاول خداعي، والشخص الآخر راض بأن يخدع. إن لسنديب قدرة ، ولكن ليست له قوة العدالة . وسلاحه الذى يبعث الحياة يضربها ثانية حتى الموت . إن لديه جعبة الآلهة التى لا تنفد ، ولكن السهام التى فيها من الشياطين .

لم يتسع منديل سنديب للنقود كلها فسأل : يا ملكة ، هل يمكنك أن تعطينى منديلا آخر ؟

ولما أعطيته منديلى لمس جبينه به فى خشوع ثم ركع على الأرض فجأة وأحنى رأسه قائلا : يا إلهة ! إنما اقتربت منك لأقدم تحية إجلالى ، ولكنك رفضتنى ورميتنى فى التراب. فإن كان هذا فإنى أقبل رفضك نعمة منك علىّ، وأرفعه إلى رأسى تحية لك.

قال ذلك وأشار إلى موضع الصدمة من رأسه .

هل أسأت فهمه إذن ؟ هل كانت يداه الممدودتان موجهتين إلى قدمى حقا ؟ إن أموليا نفسه قد رأى الانفعال الذى اشتعل فى عينيه ووجهه . ولكن سنديب بارع فى وضع الموسيقى لأغنية ثنائه بحيث لا أستطيع جدالا . إننى لأفقد قدرتى على رواية الحقيقة ويغيم بصرى كعينى مخدور . وهكذا رد لى الضربة التى أنزلتها به ضعفين ، وكانت عاقبة الجرح فى رأسه أن جعل قلبى يدمى . وحين تلقيت تحية سنديب بدا كأن سرقتى تكتسب كرامة ، والذهب على المائدة يبتسم فينسى كل خوف العار ، وكل وخز الضمير .

وكما رجعت رجع أموليا . واشتعل ولاؤه لسنديب ثانية بعد أن أصيب بصدمة قصيرة ، وامتلأت زهريته من جديد بهدايا العبادة لسنديب ولى ، وأضاء إيمانه فى عينيه بنور صاف كنور نجمة الصباح عند الفجر .

بعد أن أهديت العبادة وتلقيتها بدا إثمى مشرقا . وحين نظر أموليا إلى وجهى رفع يديه المطبقتين محييا وصاح : « باندى ماترم ! » . لم أكن لأتوقع أن تظل هذه العبادة محيطة بى أبدا ، ومع ذلك فقد أصبحت هى السبيل الوحيد لإبقاء احترامى لنفسى .

لم أعد أستطيع أن أدخل مخدعي . الفراش كأنه يمد يدا ليمنعني ، والخزانة الحديدية تعبس لي . أريد أن أهرب من هذه الإهانة المستمرة لنفسي ، هذه الإهانة التي تعمل في باطني . أريد أن أهرع إلى سنديب كل حين ليغني بمديحي . لم يبق إلا هذا المحراب الوحيد للعبادة يبقي رأسي مرفوعا فوق أعماق خزيي التي شملت كل شيء، ولهذا أريد أن أتعلق به ليل نهار ، فإنني حيثما أبتعد عنه لا أجد إلا فراغا .

الثناء ، الثناء ، أريد ثناء متصلا . لا أستطيع أن أحيا إن ترك كأسي فارغا لحظة واحدة . لهذا أريد سنديب اليوم دون الخلق أجمعين ؛ لأنه هو ثمن حياتي .

عندما يأتى زوجى فى هذه الأيام ليتناول طعامه أشعر أنى لا أستطيع الجلوس أمامه ، ولكن الابتعاد عنه أمر مخجل حتى إنى لا أقدر أن أفعل ذلك أيضا . لهذا أجلس بحيث لا يستطيع أحدنا أن ينظر إلى وجه الآخر ، وعلى هذه الصورة كنت أجلس منذ أيام حين جاءت البارا رانى وانضمت إلينا . قالت : لك أن تضحك يا أخى من خطابات التهديد هذه ، ولكنها تخيفنى أيما خوف . هل أرسلت تلك النقود التى أعطيتنى إياها إلى مصرف كلكتا ؟

فأجاب زوجى : لا ، لم أجد وقتا بعد لإرسالها .

– أنت مهمل يا أخى العزيز . يجب أن تحترس ..

فقال زوجى بابتسامة مطمئنة : إنها فى الخزينة الحديدية فى قلب حجرة الملابس الداخلية .

– وإن وصلوا إلى هناك ؟ من يضمن ؟

– إذا بلغوا إلى هذا الحد فإنهم قد يسرقونك أيضا !

– لا تتم ، لن يأتى أحد للمسكينة التى هى أنا ، إن الإغراء الحقيقى هو فى حجرتك ! ولكن دعنا من المزاح الآن ، يجب ألا نخاطر بترك النقود فى الحجرة هكذا .

– إنهم سيحملون حصيلة الحكومة إلى كلكتا بعد بضعة أيام ، سأرسل هذه النقود إلى المصرف مع الحراس .

– هذا حسن . لكن حذار أن تنسى الأمر كله ، فأنت كثير النسيان .

– حتى لو فقدت هذه النقود وهى فى حجرتى فلن يكون فقدها عليك، يا أختى الرانى .

– لا ، لا ياأخى . إن هذا الكلام يغضبنى جدا . هل جعلت فرقا بين مالك ومالى ؟ لنفرض أن نقودك ضاعت ، ألا يسوءنى ذلك ؟ إذا كان القدر قد شاء أن يستأثر بحظى من الدنيا فإنه لم يتركنى جاحدة لفضل أخلص أخ منذ أيام لاكشمان[١] .

(١) من أبطال الرامايانا . وقصة وفائه لأخيه الأكبر راما وزوجة أخيه سيتا أصبحت مضرب الأمثال . (المترجم)

حسنا ياتشوتا رانى ! هل انقلبت دمية من الخشب ؟ إنك لم تقولى كلمة واحدة حتى الآن . هل تعلم يا أخى أن تشوتا رانى تظننى أتملقك ؟ لو اضطررت إلى ذلك فلن أتردد ، ولكنى أعلم أن أخى العجوز العزيز لا يحتاج إلى الملق !

وهكذا مضت البارا رانى تثرثر ! غير ناسية أن تنبه أخاها بين حين والحين إلى هذه الطرفة أو تلك فيما يقدم من ألوان الطعام . كل ذلك ورأسى يدور . إن الأمة تقترب مسرعة . لابد من عمل شئ لإعادة النقود .. وبينما أسائل نفسى عما يمكن عمله ، وكيف يجب عمله ، كانت دمدمة سلفتى تبدو أشق احتمالا كل حين .

والذى زاد الأمر سوءا أن عينى سلفتى الحادتين لم يكن ليفوتهما شئ ، وكانت ترمقنى عن عرض بين لحظة وأخرى . ولست أدرى ماذا استطاعت أن تقرأ فى وجهى ، ولكننى كان يخيل إلىّ أن كل شئ مكتوب عليه بوضوح .

ثم أقدمت على أمر شديد الحماقة . تصنعت ضحكة لاهية ناعمة وقلت : أرى أن شكوك البارا رانى كلها منصبة علىّ ، وليس خوفها من اللصوص إلا ادعاء . وابتسمت البارا رانى بخبث وقالت : أنت علىّ حق يا أختى. إن سرقة المرأة هى أفدح السرقات ، ولكن كيف تروغين من رقابتى ؟ أرجل أنا حتى تخدعينى ؟ ..

فأجبت : إن كنت تخافيننى كل هذا الخوف فدعينى أستودعك جميع ما أملكه ليكون ضمانا ، فإن سببت لك خسارة رددتها إلى نفسك .

فأجابت على ضحكتى بمثلها ، وقالت ملتفتة إلى زوجى : اسمع لها ، صغيرتنا الساذجة التشوتا رانى ! أليست تعلم أن من الخسائر ما لا يعوضه ضمان ، لا فى هذا العالم ولا فى العالم الآخر ؟

لم يدخل زوجى فى نقاشنا، وعندما فرغ من طعامه ذهب إلى الحجرات الخارجية ، فإنه لا يقيل فى حجرتنا هذه الأيام .

كانت كل جواهرى الثمينة مودعة فى الخزانة فى عهدة الصراف ، ومع ذلك فإن ما أحتفظ به لابد كان يساوى ثلاثين ألفا أو أربعين ألفا من الروبيات .

فأخذت صندوق حليى وذهبت إلى حجرة البارا رانى وفتحته أمامها قائلة : إننى أترك هذه عندك يا أختى . ستجعلك فى مأمن من كل خوف .

فأشارت البارا رانى إشارة جزع مصطنعة ، وقالت : إنك تدهشيننى حقا ياتشوتا رانى ! أتحسبيننى حقا لا أنام الليل خوفا من أن تسرقيننى ؟

- وأى بأس فى أن تخافى منى خوفا ينفعك؟ هل يعرف أحد أحدا فى هذه الدنيا؟

- أتريدين أن تلقنينى درسا بائتمانك إياى ؟ لا ، لا ، تكفينى حيرتى فيما أفعل بحليى عن حراسة حليك . خذيها ياعزيزتى . هناك كثير من الخدم يتجسسون .

خرجت توا من حجرة سلفتى إلى حجرة الجلوس الخارجية ، واستدعيت أموليا . فجاء معه سنديب أيضا . وكنت فى عجلة شديدة ، فقلت لسنديب : معذرة . أريد أن أقول لأموليا كلمة أو كلمتين . هل تسمح ؟

فابتسم سنديب ابتسامة شوهاء : إذن فأنا وأموليا شخصان منفصلان فى نظرك ؟ إذا كنت قد بدأت تفطمينه عني فيجب أن أعترف بعجزى عن الاحتفاظ به .

فلم أجب ، بل وقفت منتظرة .

وأردف سنديب قوله : ليكن ما تريدين ، أتمى حديثك الخاص مع أموليا ، ولكنك يجب أن تمنحينى حديثا خاصا لى وحدى أنا أيضا ، وإلا كان معنى ذلك هذيمة لى . إن نصيبى يجب أن يكون دائما نصيب الأسد . لا يزال هذا عراكى الدائم مع القدر . إنى أريد أن أهزم حظى ولا أتلقى الهزيمة من يديه .

وخرج من الحجرة بعد أن حدج أموليا بنظرة ساحقة .

قلت : أموليا ، يا أخى الصغير العزيز ، يجب أن تصنع شيئا من أجلى .

- إننى أخاطر بحياتى فى أى واجب تلقينه على عاتقى يا أختاه . فأخرجت صندوق حليى من بين ثنايا شالى ووضعته أمامه وقلت : بع هذه أو ارهنها ، وهات لى ستة آلاف روبية بأسرع ماتستطيع .

قال أموليا مستنكرا : لا ، لا يا أختى الرانى . دعى هذه الحلى كما هى . ولكنى سأتيك بستة آلاف .

قلت نافذة الصبر : أوه ، لا تكن أبله لا وقت لشئ من العبث ، خذ هذا الصندوق ، واذهب إلى كلكتا بقطار الليل ، وأحضر النقود إلىّ بعد غد على التحديد .

فتناول أموليا عقدا ماسيا من الصندوق ورفعة إلى الضوء ثم رده مكتئبا . قلت :

- اعلم أنك لن تحصل على الثمن المناسب لهذه الماسات ، ولهذا أعطيك حليا تساوى ثلاثين ألفا . إننى لا أبالى أن تذهب جميعها ، ولكن يجب أن أحصل على هذه الستة آلاف بدون إبطاء .

قال أموليا : أتعلمين يا أختي الراني أنني أختلف مع سنديب بابو بشأن هذه الستة آلاف التي أخذها منك ؟ إنني لا أستطيع أن أصف لك مقدار خجلي . ولكن سنديب بابو يرى أننا يجب أن نتخلى حتى عن الخجل من أجل بلادنا . قد يكون ذلك صحيحا ، ولكن هذا الأمر مختلف بعض الاختلاف . إنني لا أخاف الموت في سبيل الوطن ، لقد منحت هذا القدر من « الروح » ، ولكني لا أستطيع أن أنسى خجلي لأخذ النقود منك . إنني لا أبلغ شأو سنديب في هذا . فهو لايعرف الندم ولا تأنيب الضمير . هو يقول إننا يجب أن نتخلص من فكرة أن النقود ملك لمن يتفق أن توجد في خزانته ، وإن لم نستطع فأين بسحر « باندى ماترم » ؟

وازدادت حماسة أموليا وهو يتكلم، فحديثه يكتسب حرارة دائما حين أستمع إليه . وأردف : تقول لنا الجيتا : لا أحد يمكنه أن يقتل الروح . فالقتل مجرد كلمة . وكذلك أخذ المال. مال من هو؟ إن أحدا لم يخلقه ، ولا أحد يأخذه معه حين يفارق هذه الدنيا ، فإنه ليس جزءا من روحه . اليوم هو لي ، وغدا لابني ، وبعد غد لدائنه . وبما أن النقود ليست ملكا لأحد في الواقع فأي لوم يمكن أن يقع على رجالنا الوطنيين إذا هم أخذوها لينتفعوا بها بدلا من تركها لولد فاسد ؟

إن جسمي كله يرتجف حين أسمع كلمات سنديب ينطقها هذا الفتى . ليلعب السحرة بالثعابين ما شاءوا ، فإن أصابهم أذى فإنهم مستعدون له . ولكن هؤلاء الصبية فيهم من البراءة ما يستنفر العالم كله ليحميهم ببركته . إنهم يلاعبون الثعبان جاهلين بطبعه ، وحين نراهم يبتسمون في ثقة وهم يضعون أيديهم حيث تبلغ نأباه ، عند ذلك ندرك ما في الثعبان من خطر فظيع . إن سنديب على حق حين يشك أني وإن رضيت لنفسي الموت على يديه فسوف أفطم منه هذا الصبي وأنقذه .

سألت مبتسمة : إذن فالمال مطلوب لينتفع به رجالكم الوطنيون ؟

فقال أمواليا بفخر : أجل ! أليسوا ملوكنا ؟ إن الفقر ينتقص من قدرتهم الملكية . أتعلمين أننا نصر دائما على أن يسافر سنديب بابو في الدرجة الأولى ؟ وهو لا ينفر قط من علائم التكريم الملكي - إنه يتقبلها لا من أجل نفسه بل لعزتنا جميعا . لقد أنبأنا سنديب بابو أن أعظم سلاح عند أولئك الذين يحكمون العالم هو مغناطيسية مظهرهم . فليس التزام الفقر بالنسبة إليهم قمعا للنفس فحسب ، بل إنه انتحار .

وهنا دخل سنديب الحجرة بلا صوت ، فطرحت شالي على صندوق الحلي بحركة سريعة . وسأل بنبرة ساخرة : لم ينته الحديث الخاص بعد ؟

فقال أموليا معتذرا : بلى ، قد انتهينا . لم يكن أمرا ذا بال .

فقال سنديب : إذن فليخرج سنديب للمرة الثانية ؟

– إذا سمحت .

– وماذا عن عودة سنديب ...

– اليوم لا . إن وقتى لا يتسع .

فقال سنديب وعيناه تبرقان : هكذا .. ! الوقت لا يسمح إلا بالأحاديث الخاصة !

إنها الغيرة ! عندما يبدى الرجل القوى ضعفا ، هنالك لايملك الجنس الأضعف إلا أن يدق طبول النصر . وهكذا كررت فى حزم : حقا إن وقتى لايتسع .

فخرج سنديب وقد أربد لونه . وانزعج أموليا انزعاجا شديدا .

قال مجادلا : يا أختى الرانى ، إن سنديب غاضب .

فقلت بشىء من الحدة : لا شئ يدعوه إلى الغضب ، ولا حق له فى أن يغضب . دعنى أحذرك من شئ واحد يا أموليا : لا تخبر سنديب بابو بشئ عن بيع حليى – بحياتك لا تفعل !

– لن أفعل .

إذن يحسن ألا ننتظر . اذهب بقطار الليل .

وغادرنا الحجرة أنا وأموليا معا . وحين خرجنا إلى الشرفة كان سنديب واقفا هناك، ولم يخف علىّ أنه كان منتظرا ليتصيد أموليا . ولأمنع ذلك كان لابد أن أشغله . فسألته : ماذا أردت أن تقول لى ياسنديب بابو ؟

– ليس لدى شئ بعينه أريد قوله ، لكن بعض الحديث ، ومادام وقتك لا يتسع ...

– أستطيع أن أمنحك قليلا منه .

وكان أموليا قد ذهب . فسألنى سنديب ونحن ندخل الحجرة : ما ذلك الصندوق الذى حمله أموليا ؟

إن الصندوق لم يخف عن عينيه . بيد أنى ظللت راسخة . قلت : لو كان لى أن أخبرك لأعطيته إياه فى حضورك !

- أتظنين إذن أن أموليا لن يخبرنى ؟

- لن يفعل .

ولم يعد بسنديب قادرا على إخفاء غضبه . فانفجر صائحا : أتحسبين أنك سوف تعلين علىّ ؟ إن ذلك لن يكون أبدا . أموليا هذا لو رضيت أن أدوسه تحت قدمى لمات سعيدا . إننى لن أسمح لك ما حييت بأن تجعليه يركع عند قدميك !

أوه ، الضعيف ، الضعيف ! أخيرا أدرك سنديب أنه ضعيف أمامى ! هذا سبب غضبته المفاجئة . لقد فهم أنه لايستطيع أن يقابل سلطانى بالقوة وحدها . فأنا أستطيع بنظرة أن أجعل أقوى حصونه يتداعى . إذن فلابد له أن يلجأ إلى التهديد . واكتفيت بأن ابتسمت فى احتقار صامت . أخيرا استطعت أن أعلو عليه . يجب ألا أتخلى عن موقعى هذا أبدا . يجب ألا أهبط ثانية . وسط كل انحدارى يجب أن تبقى لى هذه القطعة من الكرامة !

قال سنديب بعد هنيهة : أنا أعلم أنه كان صندوق حليك .

قلت : لك أن تخمن ما تشاء ! ولكنك لن تظفر بشئ منى .

- إذن فأنت تثقين بأموليا أكثر مما تثقين بى ؟ أتعلمين أن هذا الصبى هو ظل ظلى ، صدى صداى ، إنه لا شئ إن لم أكن بجانبه ؟

- حيث لايكون صداك يكون هو نفسه ، أى أموليا ، وهناك أثق به أكثر مما أستطيع أن أثق بصداك !

- لا تنسى أنك أخذت على نفسك عهدا بأن تهبى كل حليك لعبادة الأم المقدسة . بل إنك قدمت هذه الهبة فعلا .

- مهما تبق لى الآلهة من حلى توهب للآلهة . ولكن كيف أهب ما سرق منى ؟

- انظرى ! عبثا تحاولين الروا غ منى هكذا . لقد حان وقت العمل العبوس ، فلينته هذا العمل ، ولك بعد ذلك أن تبدى من كيدك النسوى ما يبهج فؤادك ، وسوف أساعدك فى لعبتك .

منذ سرقت نقود زوجى ودفعتها إلى بسنديب توقفت الموسيقى التى كانت فى علاقتنا . لم أضيع كل قيمتى بإرخاص نفسى فحسب ، بل إن قدرات سنديب فقدت مجال نشاطها الكامل أيضا . إنك لا تستطيع أن تبدى مهارتك فى الرماية إذا كانت

الرمية فى قبضتك ، وكذلك فقد سنديب منظر البطل ، ودخلت فى كلماته نبرة شجار سوقى .

ظل سنديب مثبتا عينيه اللامعتين على وجهى حتى بدتا وكأنهما تتلهبان بكل ظمأ سماء الظهيرة . وحرك قدميه مستوفزا مرة أو آخرين بحكاياتك . إنك غير مطالب بتوجيه اتهام إلى هاريش كوندو أو إلى غيره .

حين عدت إلى المنزل دعوت أستاذى . فهز رأسه بحزن وقال : أنا لا أرى فى هذا خيرا . هذا الاطراح للضمير وإحلال الوطن محله . الآن ستنطلق كل آثام البلاد مروعة لا تستحى .

- من تظنه ...

- لا تسألنى . ولكن الإثم يستشرى . اطردهم جميعا . اطردهم فورا من هنا .

- لقد أعطيتهم يوما آخر ، وسوف يرحلون بعد غد .

- وشئ آخر .. خذ بيمالا إلى كلكتا . إنها تنظر إلى العالم الخارجى من هنا نظرة جد ضيقة ، فهى لا تستطيع أن ترى الناس والأشياء فى نسبها الحقيقية . دعها تر الدنيا - الناس وعملهم - أتح لها نظرة أوسع .

- هذا بعينه ما كنت أفكر فيه .

- إذن فلا تتوان عن تنفيذه . واعلم يانيكهيل أن تاريخ الإنسان يجب أن يبنى بتضافر جهود جميع الأجناس فى العالم ، ولذا فلن ينفع بيع الضمير هكذا من أجل أسباب سياسية ، وجعل وطن المرء معبودا خاصا له . أنا أعلم أن أوربا لا تسلم بذلك فى صميم قلبها . ولكنها لا تستطيع أن تدعى لنفسها الحق فى الوقوف منا فى هذا الأمر موقف المعلم . إن الرجال الذين يموتون فى سبيل الحق يخلدون ، وإذا استطاع شعب بأسره أن يموت فى سبيل الحق فإنه سيخلد أيضا فى تاريخ البشرية . فليصبح هذا الشعور نحو الحق واقعا هنا فى أرض الهند ، بين ضحك الشيطان الذى يخترق السماء ! أى وباء من الإثم مروع حمل إلى بلادنا من أراض جنبية .

مر اليوم كله فى دوامة من التحقيق . وكنت منهكا حين أويت إلى فراشى مؤجلا إرسال نقود زوجة أخى إلى الخزانة حتى الصباح التالى .

وصحوت من نومي في سكون الليل . كانت الحجرة مظلمة . وخلت أني سمعت أنينا في مكان ما . لابد أن أحدا كان يبكي . جاءت أصوات النحيب مثقلة بالدموع كنفثات الريح في ليل مطير . وخيل إليّ أن الصراخ ينبعث من قلب حجرتي . كنت وحيدا ، فقد نقلت بيمالا سريرها منذ بضعة أيام إلى حجرة مجاورة لحجرتي ، فقمت وحين خرجت وجدتها في الشرفة منبطحة على وجهها فوق الأرض العارية .

هذا شئ لايمكن أن يكتب بكلمات . إنما يعلمه من هو مستو في صدر العالم يتلقى نبضات الألم منه في قلبه هو . السماء بكماء ، النجوم خرساء ، الليل هامد ، وفي وسط هذا كله صرخة واحدة لا تنام !

إننا نعطي هذه العذابات أسماء ، رديئة أو حسنة ، حسبما تصنفها الكتب ، لكن هل ثمة اسم لهذا الوله النابع من قلب ممزق ، يصب في الظلام الذي لا قرار له ؟ عندما نظرت إلى ذلك الشبح ، في قلب ذلك الليل ، وأنا واقف تحت النجوم الصامتة ، عرتني رهبة وقلت لنفسي : « من أنا حتى أدينها ؟ » يا حياة ، ياموت ، يا الله ، يا من تقصر عن وجودك الحدود ، إنني أحني رأسي صامتا أمام سرك .

فكرت مرة أن أرجع ، ولكني لم أستطع فجلست على الأرض قرب بيمالا ، ووضعت يدي على رأسها . عند أول لمسة بدا كأن جسمها كله تصلب ، ولكن الصلابة استرخت في اللحظة التالية ، وانفجرت الدموع . وأمررت أصابعي برفق على جبينها ، وفجأة أمسكت يديها المتلمستين بقدمي واحتضنتهما بقوة حتى ظننت أن قلبها ينشق .

الفصل العاشر

حكاية بيمالا

- ١٨ -

موعد أموليا أن يعود من كلكتا هذا الصباح . أمرت الخدم أن ينبئونى بساعة وصوله ، ولكنى لم أستطع أن أقر فى مكانى. وأخيرا خرجت لأنتظره فى حجرة الجلوس.

أخالنى لم أكن أفكر فى غير نفسى عندما أرسلته ليبيع الحلى . فلم يخطر ببالى أن مثل هذا الصبى الصغير يتعرض للشبهة على الفور إذا حاول أن يبيع حليا ثمينة كهذه . نحن النساء ضعيفات الحيلة حتى إننا لنحمل غيرنا عبء الخطر المحدق بنا ، وعندما ننساق إلى موتنا نجر من حولنا إليه .

لقد قلت فى فخر إننى سأنقذ أموليا . كأنما تستطيع الغريقة أن تنقذ غيرها . ولكننى بدلا من أن أنقذه أرسلته إلى هلاكه . يا أخى الصغير ، أى أخت كنت لك ! لاشك أن الموت ابتسم فى يوم الأخ ذاك حين منحتك بركتى - أنا التى أهيم شاردة اللب تحت عبء خطاياى .

أشعر اليوم أن الإنسان يهاجمه الشر أحيانا كما يهاجمه الوباء . جرثومة تجد طريقها من مكان ما ، وفى مدى ليلة يدخل الموت بخطاه الخشبية . لماذا لا يبعد المصاب عن سائر الناس ؟ أنا على الأقل عرفت فظاعة العدوى ، كمشعل نارى يحترق ليضرم النار فى العالم .

دقت التاسعة . ولم أستطع أن أتخلص من فكرة أن أموليا فى مأزق ، وأنه قد وقع فى أيدى الشرطة. لابد أن هناك هياجا شديدا فى مركز الشرطة- من صاحبة الحلى ؟ - من أين حصل عليها ؟ وعلىّ أخيرا أن أقدم الجواب علنا ، على رؤوس الأشهاد .

مـاذا يكون ذلك الجـواب ؟ هذا يـومك يا بارا رانـى ، أنت التى طالما احـتـقـرتك . ستتالين قصاصك وأنت فى صورة الجمـهور ، فى صورة الدنيا . رباه ! جنبنى هذه الساعة ، فأطرح كل كبريائى عند قدمى سلفتى .

لم أعد أطيق صبرا . فذهبت توا إلى البارا رانى . كانت فى الشرفة تقطع أوراق « التنبول » كعادتها وثاكو بجانبها . وأجفلت لحظة حين رأيت ثاكو ، ولكنى تغلبت على كل تردد ، وانحنيت انحناءة عميقة ومسحت التراب عن قدمى سلفتى . فصاحت : عجبا لك ياتشوتا رانى ! ماذا أصابك ؟ لم هذه التحية المفاجئة ؟

قلت : إنه يوم ميلادى يا أختى . لقد سببت لك آلاما كثيرة . فامنحينى بركتك اليوم حتى لا أعود إلى ذلك . إن عقلى صغير .

وكررت انحناءتى وتركتها مسرعة ، ولكنها نادتنى :

– لم تخبرينى قط أن هذا يوم ميلادك ياحبيبتى « تشوتى » ! يجب أن تتغدى عندى اليوم . يجب ، يجب .

رباه ، اجعله حقا يوم ميلادى ! ألا يمكن أن أولد من جديد ؟ امسح أوضارى ياربى ، طهرنى واختبرنى مرة أخرى !

ذهبت ثانية إلى حجرة الجلوس لأجد سنديب هناك ، فخيل إلىّ أن شعورا بالتقزز يسمم دمى نفسه. لم يكن فى وجهه الذى رأيته فى ضوء الصباح شئ من ألق العبقرية. صحت : اخرج من الحجرة !

فابتسم سنديب قائلا : مادام أموليا غير موجود فأظن أن دورى قد جاء لحديث خاص .

كان قدرى ينصب علىّ من جديد . كيف أنزع حقا أنا منحته .

كررت : أحب أن أبقى وحيدة .

قال : يا ملكة ، إن وجود شخص آخر لايمنع أن تكونى وحيدة . لا تحسبينى واحدا من الدهماء . أنا – سنديب – وحيد أبدا ، ولو كان حولى ألوف .

– أرجوك أن تأتى فى يوم آخر . إننى فى هذا الصباح ..

– تنتظرين أموليا ؟

وتحولت من غيظي لأترك الحجرة ، وإذا بسنديب يخرج من بين ثنايا عباءته صندوق حليي ويضعه بقوة على المنضدة الرخامية . وتملكتني الدهشة ، فصحت : ألم يذهب أموليا إذن ؟

- إلى أين ؟

- إلى كلكتا .

فتهاتف سنديب : لا .

إذن فقد صحت بركتي على الرغم من كل شئ . لقد أنقذ . فليقع عقاب الله عليّ ، فأنا الأصل ، وليبق أموليا في مأمن !

أثار تغير طلعتي احتقار سنديب ، فقال ساخرا : كل هذا السرور يا ملكة ! أهذه الحلى ثمينة جدا إلى هذا الحد ؟ كيف استطعت إذن أن تتغلبي على نفسك حتى تهبيها للآلهة ؟ لقد أعطيت هبتك فعلا ، أتحبين أن ترجعي فيها الآن ؟

إن الكبرياء تدافع عن نفسها حتى الموت ، وترفع مخالبها إلى اللحظة الأخيرة . لقد وضح لي أنني يجب أن أبدى لسنديب استهانتي بهذه الحلى ، فقلت : خذها إن كانت تثير طمعك .

فأجاب سنديب : إن طمعي اليوم يحيط بكل ثروة البنغال . هل هناك قوة أعظم من الطمع ؟ إنه ركوبة عظماء الأرض ، كما أن الفيل إيراوات ركوبة أندرا . هذه الحلى هي إذن لي ؟

وبينما كان سنديب يتناول الصندوق ويعيده تحت عباءته اندفع أموليا داخلا . كانت تحت عينيه حلقات سوداء ، وكانت شفتاه جافتين ، وشعره مشعثا ، وكأنما ذبلت نضرة شبابه في يوم واحد . واعتصر الألم قلبي حين نظرت إليه . صاح وهو يمضي إلى سنديت دون أن ينظر نحوي : صندوقي ! هل أخذت صندوق الحلى هذا من حقيبتي ؟

فقال سنديب ساخرا : صندوق حليك ؟

- إنها حقيبتي !

فانفجر سنديب ضاحكا : لقد أصبحت ضعيف التمييز بين مالك ومالي يا أموليا . وما أحسبك إلا ستموت واعظا دينيا .

غاص أموليا فى كرسى وقد أخذ وجهه بين يديه . فذهبت إليه ووضعت يدى على رأسه وسألته : ما يحزنك يا أموليا ؟

فأجاب وهو يقف معتدلا : لقد منيت نفسى يا أختى الرانى أن أرد هذه الحلى إليك بيدى . وكان سنديب بابو يعلم ذلك ، ولكنه سبقنى .

قلت : وما قيمة الحلى لى ؟ فلتذهب . إننى لن أضار .

فسأل الفتى مذهولا : تذهب ؟ أين ؟

قال سنديب : إن الحلى لى . هبة من ملكتى !

فصاح أموليا ثائرا : لا ، لا ، لا ! لن يكون ذلك يا أختى الرانى ، لقد أحضرتها لك ، فلن تعطيها لإنسان آخر .

قلت: إننى أقبل هديتك يا أخى الصغير . ولكن دع من يحلم بها يرضى طمعه .

فحملق أموليا فى سنديب كوحش ضار ، وزمجر : اسمع يا سنديب بابو ، أنت تعلم أنى لا أخاف الشنق نفسه ، لو جرؤت على أن تأخذ هذا الصندوق ..

فقال سنديب وهو يحاول أن يصطنع ضحكة سخرية : ينبغى أن تكون قد علمت أيضا يا أموليا أنى لست بالرجل الذى يخافك .

ومضى يقول ملتفتا إلىّ : يا ملكة ، إننى لم آت إلى هنا اليوم لآخذ هذه الحلى ، بل لأقدمها إليك . فلو أخذت هديتى من يدى أموليا لكنت مخطئة . لقد كان علىّ أن أجعلها ملكا خالصا لى أولا حتى أمنع ذلك . والآن أهدى إليك جواهرى هذه . إليك ! تفاهمى مع هذا الفتى كما تشائين ، فإنى ذاهب . لقد شغلتما بأحاديثكما الخاصة كل هذه الأيام ، وجعلتمانى بمعزل . فإن حدثت أمور خاصة الآن فلا تلومانى .

وأردف : أموليا ! لقد أرسلت حقائبك وأمتعتك إلى مسكنك . فلا تبق شيئا مما تملكه فى حجرتى بعد الآن .

أطلق سنديب هذه الرصاصة الأخيرة ، واندفع خارجا من الحجرة .

قلت لأموليا : لم أعرف راحة القلب منذ بعثتك لتبيع حليى .

- لماذا يا أختى الرانى ؟

- خفت أن تقع فى المتاعب بسببها ، فيشكوا أنك لص . وكان أهون علىّ أن أستغنى عن هذه الستة آلاف من الروبيات . الآن يجب عليك أن تفعل شيئا آخر من أجلى . عد إلى بيتك حالا . عد إلى أمك .

فأخرج أموليا ربطة صغيرة وقال : ولكننى أحضرت الستة آلاف يا أختى .

- من أين ؟

فمضى يقول دون أن يجيب عن سؤالى : لقد اجتهدت فى أن أحصل على ذهب ، ولكنى لم أستطع ، فاضطررت أن أحضرها أوراقا .

- قل لى الحق يا أموليا . احلف بحياتى . من أين حصلت على هذه النقود ؟

- هذا ما لن أخبرك به .

ورأيت كل شئ يظلم أمام عينى . صحت : ما هذا الأمر الفظيع الذى أتيته يا أموليا ؟ أهو إذن ...

- أعلمك ستقولين أنى حصلت على هذه النقود من طريق سيئ . حسن جدا . إنى أعترف بذلك . ولكنى دفعت ثمن إساءتى كاملا . وإذن فالنقود الآن لى .

لم تعد بى رغبة إلى معرفة المزيد ، تقلصت عروقى نفسها ، حتى جعلت جسمى كله ينكمش . وتضرعت : خذها يا أموليا . ردّها كما أخذتها .

- إن هذا جد عسير !

– ليس بعسير يا أخي العزيز . لقد كانت لحظة منحوسة تلك التي جئتني فيها أول مرة . حتى بسنديب لم يستطع أن يؤذيك كما آذيتك .

وكأنما كان اسم بسنديب طعنة له . صاح : بسنديب ! إنك أنت وحدك التي جعلتني أعرف هذا الرجل على حقيقته . أتعلمين يا أختي أنه لم ينفق دانقًا من تلك الجنيهات الذهبية التي أخذها منك ؟ لقد أغلق على نفسه باب حجرته بعد أن خرج من عندك وراح يتأمل الذهب بعينين مشدوهتين ، وقد صبه في كومة على الأرض . وكان يصيح : « ليست هذه نقودا . إنها أوراق الزهور في لوتس القدرة ، أنغام متبلورة من موسيقى النايات التي تعزف في جنة الثراء ! إن قلبي لايطاوعني على تبديلها ، فإني أراها مشتاقة إلى استيفاء حظها بتزيين جيد الجمال . أموليا يا ولدى ، لا تنظر إلى هذه بعين جسمك ، إنها ابتسامة لاكشمي ، ضياء ملكة أندرا الساطع . لا ، لا ، إني لا أستطيع تسليمها لذلك الوكيل الجلف . أنا واثق يا أموليا أنه كان يكذب علينا . إن الشرطة لم تهتد إلى الرجل الذي أغرق ذلك القارب . إن الوكيل هو الذي يريد أن يخرج بشيء من الصفقة . يجب أن نسترد تلك الخطابات منه » .

وسألته كيف نفعل ذلك ، فأمرني أن أستخدم العنف أو التهديد . وقبلت أن أنفذ قوله إن هو رد الذهب . فقال إنه سيفكر بعد في هذا الأمر . ولن أثقل عليك يا أختي بالحديث عن كل ما فعلته لأخيف الرجل حتى سلم هذه الخطابات وأحرقتها ، فهذه قصة طويلة . وفي تلك الليلة نفسها جئت إلى بسنديب وقلت : نحن الآن آمنون . أعطني الجنيهات الذهبية لأردها غدا إلى أختي المهراني . ولكنه صاح : ما هذه الفتنة منك ؟ إن ثوب أختك العزيزة يوشك أن يحجب البلاد كلها عن عينيك . قل « باندى ماترم » وأبعد عنك الروح الشريرة .

إنك تعلمين يا أختي الراني قوة سحر بسنديب . لقد بقي الذهب معه ، وأمضيت الليل الطويل المظلم على درج البحيرة أتمتم : « باندى ماترم » .

ثم لما أعطيتني الحلي لأبيعها ذهبت ثانية إلى بسنديب . فلم يخف عليّ أنه غاضب مني . وإن حاول ألا يظهر ذلك . قال وهو يلقي إليّ بمفاتيحه : « إن كنت لا أزال أكنزها في صندوق من صناديقي فلك أن تأخذها » . ولم أعثر لها على أثر ، فقلت : أخبرني أين هي ؟ قال : « سأخبرك حين تذهب عنك هذه الفتنة » .

ولما رأيت أني لن أستطيع زحزحته اضطررت أن ألجأ إلى طرق أخرى . فحاولت أن أحصل منه على الجنيهات الذهبية إزاء أوراقي المالية وهي ستة آلاف روبية . فقال :

« سآتيك بها » . ثم غاب في حجرة نومه وتركني أنتظر خارجها . وهناك فض حقيبتي وجاء إليك بصندوقك من طريق آخر . لقد أبى عليّ أن أحضرها ، والآن يجرؤ على أن يسميها هديته . كيف أصف لك مقدار ما حرمني منه ؟ إنني لن أغفر له أبدا .

ولكن سلطانه عليّ قد انمحى تماما يا أختي . وأنت التي محوته .

قلت : يا أخي العزيز إن صح ما تقوله فإن حياتي لم تذهب عبثا . لكن لاتزال هناك أعمال أخرى يا أموليا . فلن يكفي تدمير السحر حتى يغسل دنسه . لا تؤجل الأمر أكثر من هذا . اذهب من فورك ورد النقود حيث أخذتها . ألا يمكنك أن تفعل ذلك أيها لعزيز ؟

– ببركتك كل شئ ممكن يا أختي الراني .

– تذكر أن ذلك لن يكون تكفيرا عنك وحدك بل عني أيضا . فأنا امرأة ، والعالم الخارجي مغلق أمامي ، ولولا ذلك لذهبت بنفسي . إن أشد عقاب أتحمله هو أني أحملك وزري .

– لا تقولي هذا يا أختي . إن الطريق الذي سرت فيه لم يكن طريقك . لقد اجتنبني بأخطاره ومصاعبه . والآن وقد ناداني طريقك فليكن أصعب ألف مرة وأشد خطرا . فتراب قدميك سيساعدني على الظفر . أتأمرين إذن برد هذه النقود ؟

– أنا لا آمر يا أخي العزيز ، ولكنه أمر السماء .

– عن هذا لا أعلم شيئا . يكفيني أن هذا الأمر السماوي يصدر من شفتيك ، ثم إنني يا أختي كنت أحسب لي دعوة ههنا . لست بمضيعها . أعطيني « البراساد »[1] قبل ذهابي . وإن استطعت فسوف أتم واجبي في المساء .

واغرورقت عيناي بالدموع حين حاولت أن أبتسم وأنا أقول : فليكن ماتريد .

(١) طعام باركته لمسة شخص مبجل (المترجم) .

الفصل الحادى عشر

حكاية بيمالا

- ٢٠ -

لما رحل أموليا غاص قلبى بين جنبى . إلى أى مهلكة بعثت هذا الابن الوحيد ؟ رباه ! لماذا يكون لتفكيرى كل هذه الفخامة والاحتفال ؟ ألا يسمح لى بأن أتعذب وحدى دون أن أدعو كل هذا الجمع إلى مشاركتى فى عقابى ؟ رباه ! لا تدع هذا الطفل البرىء يسقط ضحية لغضبك .

لقد ناديته ثانية : أموليا !

وكان صوتى ضعيفا فلم يبلغه ، فسرت إلى الباب وناديت ثانية : أموليا !

كان قد ذهب .

– من هناك ؟

– أمنا الرانى !

– اذهب وقل لأموليا إننى أريده .

ولست أدرى ماذا حدث بالضبط . لعل الرجل لم يكن يعرف اسم أموليا ، ولكنه عاد من فوره يتبعه سنديب . قال وهو يدخل : لحظة طردتنى كنت أشعر أنك ستنادينني ثانية . إن جاذبية القمر نفسه تحدث الجزر والمد جميعا . لقد كنت واثقا من استدعائى حتى إنى انتظرت فى الدهليز ، وما كدت ألمح خادمك خارجا من حجرتك حتى قلت : « نعم ، نعم ، أنا آت ، أنا آت على الفور ! » – قبل أن يستطيع النطق بكلمة واحدة . لقد دهش هذا الغبى وحملق فىّ فاغر الفم ، وكأنه يحسبنى عالما بالسحر .

واستطرد سنديب : كل المعارك فى العالم يا ملكة هى فى واقع الأمر معارك بين قوى مغناطيسية . سحر يقذف بسحر – أسلحة لا صوت لها ، تصل إلى أهداف قد لا تبصرها العين . وأخيرا لقيت فيك كفوًا لى .

إننى أعلم أن جعبتك ملأى ، أيتها الملكة المحاربة الماكرة ! أنت وحدك فى العالم التى استطعت أن تطردى سنديب وتستدعيه على هواك . حسنا ، إن صيدك عند قدميك ؛ فماذا أنت فاعلة به الآن ؟ هل تجهزين عليه أم تبقينه فى قفصك ؟ دعينى أحذرك مقدما يا ملكة ، ستجدين التعجيل بقتل الوحش صعبا كاستبقائه فى الأسر . على كل حال ، لماذا ضياع الوقت فى تجربة أسلحتك السحرية ؟

لابد أن سنديب شعر بظل الهزيمة المقتربة ، فراح يحاول كسب الوقت بالثرثرة دون أن ينتظر جوابا . وأحسبه كان يعلم أنى بعثت الرسول فى طلب أموليا ، ولابد أن الرجل ذكر اسمه ، ومع ذلك فقد تعمد أن يلعب لعبته ، وهو الآن يحاول ألا يدع لى ثغرة لأخبره أن أموليا هو من أردت لا إياه ، ولكن هذه الحيلة لم تنتج . فقد استشففت منها ضعفه . يجب ألا أتزحزح قيد شعرة عن الأرض التى كسبتها .

قلت : سنديب بابو ! يدهشنى كيف تستطيع أن تمضى بلا توقف فى هذه الخطب التى لاتنتهى . هل تحفظها مقدما عن ظهر قلب ؟

فاحمر وجه سنديب فى الحال ، ومضيت أقول : لقد سمعت أن خطباءنا المحترفين لديهم كتاب ملئ بجميع أنواع الخطب الجاهزة التى يمكن إدخالها فى أى موضوع . ألديك أنت أيضا كتاب ؟

فطحن سنديب جوابه بين أسنانه : لقد أعطاكن الله - معشر النساء - نصيبا وافيا من الدل ابتداء . ثم وجدتن فوق ذلك عونا من الحائك والجوهرى . ولكن لا تحسبن أننا نحن الرجال ضعاف الحيلة حتى ..

- خير لك أن ترجع وتذاكر كتابك ياسنديب بابو ، لقد أسمعت كلماتك كلها خطأ ، وهذا عيب الترديد دون فهم .

فصاح سنديب وقد فقد كل سلطان على نفسه : أنت ! أنت تهينيننى هذه الإهانة ! ماذا بقى منك لا أعرفه حتى القرار ؟ ماذا ...

وأرتج عليه .

إن سنديب صاحب الرقى السحرية يصاب بالعجز المطلق حين تأبى رقيته أن تحدث أثرا . لقد هوى من ملك إلى سوقة . أوه ، ما أحلى رؤية ضعفه ! وكلما ازداد غلظة تدفقت الفرحة فى نفسى ، إن حلقاته الثعبانية التى كان يأسرنى بها قد ذهبت

قوتها – إننى حرة ، لقد نجوت، نجوت ، اعنف بى، أهنى ، فذلك يظهرك على حقيقتك ، لكن أعفنى من أغنيات مديحك الكاذبة .

دخل زوجى ونحن على هذه الحال . ولم يجد بسنديب من المرونة ما يمكنه أن يملك نفسه فى لحظة كعادته فيما مضى . فنظر زوجى إليه دهشا . ولو حدث هذا منذ أيام لشعرت بالخجل ، ولكننى اليوم مسرورة – مهما يظن زوجى . لقد أردت أن أفرغ من أمر خصمى المتهالك .

تردد زوجى قليلا حين وجدنا كلينا صامتين متحفزين، ثم جلس على حافة كرسى. قال : سنديب ، لقد كنت أبحث عنك ، وقيل لى إنك هنا .

فقال سنديب بشئ من التأكيد : إننى هنا . الملكة أرسلت إلىّ فى الصباح الباكر ، وأنا العامل المسكين فى الخلية تركت كل شىء لأتلقى أوامرها .

– أنا ذاهب إلى كلكتا غدا . وأنت آت معى .

– ولماذا بربك ؟ أتحسبنى واحدا من حاشيتك ؟

– أوه ، حسنا . هب أنك ذاهب إلى كلكتا ، وأنى تابعك .

– ليس لى عمل هناك .

– هذا أدعى لذهابك . فإن أعمالك هنا أكثر مما ينبغى .

– لست أنوى الانتقال .

– إذن فأنا أنوى نقلك .

– بالقوة ؟ !

– بالقوة .

– حسنا . سأتحرك إذن . ولكن العالم ليس مقسما بين كلكتا وضياعك . هناك أماكن أخرى على الخريطة .

– لم يكن يبدو من مسلكك أن فى العالم مكانا آخر غير ضياعى .

فنهض سنديب وقال : يحدث أحيانا أن ينحصر عالم المرء فى بقعة واحدة . وقد وجدت عالمى فى حجرة جلوسك هذه ، ولذلك أطلت البقاء .

ثم التفت إليّ قائلا : لن يفهم كلماتي غيرك يا ملكة . ولعلك أنت أيضا لن تفهميها . أني أحبيك . أتركك وفي قلبي عبادة . لقد تغير شعاري منذ وقعت عليك عيناي . لم يعد « باندى ماترم » . حييت يا أم . بل حييت ياحبيبة ، حييت يا ساحرة ، إن الأم ترام ، والحبيبة تقود إلى الهلاك – ولكنه هلاك حلو . لقد جعلت أصوات الخلاخيل في رقصة الموت ترن بقلبي . لقد غيرت إمامي ، أنا عابدك . صورة هذه البنغال بلادنا ، البلاد الرقيقة ، بلاد الماء النمير والجنى الحلو التي لطفتها أنفاس النسيم[1] . إنك لا تعرفين الرحمة يا حبيبتي . لقد جئت إليّ بكأسك المسموم وسأشربه إلى آخر قطرة . فإما أن أموت معذبا وإما أن أعيش منتصراً على الموت .

ومضى يقول : أجل . لقد ذهب يوم الأم . آه ياحبيبتي ، ياحبيبتي ، لقد جعلت الحقيقة والعدل والسماء نفسها هباء عندي . كل الواجبات أصبحت كالظلال ، كل القواعد والحدود انكسرت قيودها . ياحبيبتي ، ياحبيبتي ، إنني أستطيع أن أشعل النار في العالم كله غير هذه الأرض التي تضعين عليها قدميك الجميلتين ، وأرقص في فرح مجنون فوق الرماد . هؤلاء رجال هادئون . هؤلاء رجال طيبون ، يريدون أن يفعلوا الخير للجميع – كأن هذا الجميع له واقع ! لا ، لا ! ليس في العالم واقع واحد إلا حبي هذا . إني أحبيك . إن ولائي لك جعلني قاسيا ، وعبادتي أضرمت شعلة التدمير الهائجة في نفسي . أنا لست فاضلا . أنا لا أومن بشئ ، أنا لا أومن إلا بمن استطعت أن أجدها فوق كل شئ في العالم .

عجيب ! إن هذا عجيب ! منذ لحظة كنت أحتقر هذا الرجل من كل قلبي . ولكن ما كنت أظنه رمادا خابيا ومضى الآن بنار حية . إن النار فيه صادقة ولاريب . أوه ، لِمَ جعل الله الإنسان كائنا فيه كل هذه الأخلاط ؟ أليظهر قدرته المعجزة ؟ منذ دقائق ظننت أن بسنديب الذي حسبته مرة بطلا لم يكن إلا بطلا مسرحيا في فاجعة ، ولكن هذا غير صحيح ، إنه غير صحيح ؛ حتى خلف بهارج المسرح قد يختفي بطل حق .

إن في بسنديب كثيرا من الغلظ والحسية والزيف ، غشاوات من الجسدية بعضها فوق بعض . ولكن – ولكن من الخير أن نعترف بأن في أعماقه الكثير مما لا نفهمه ولا نستطيع أن نفهمه – وإن كان موجودا في أنفسنا أيضا . عجيب هو الإنسان ، لايعلم الغرض العظيم الخفي من خلقه إلا «الرهيب»[2]. ولكننا نئن تحت صدمة هذه المعرفة . شيفا إله الفوضى . إنه فرح كله . إنه سيحطم قيودنا .

(١) اقتباس من النشيد الوطني (باندى ماترم) .
(٢) (رودرا) أو (الرهيب) اسم من أسماء شيفا .

لا أستطيع إلا أن أشعر مرة بعد مرة أن فيّ شخصيتين : إحداهما تنفر من سنديب في صورته الفوضية المرعبة، والأخرى تجد هذه الصورة نفسها حلوة الإغراء . إن السفينة الغارقة تجر إلى القاع كل من يسبحون حولها ، وما أشبه سنديب بهذه القوة المدمرة .

فجاذبيته العظيمة تستولى على المرء قبل أن يستطيع الخوف إنقاذه ، وفى طرفه عين يسحب بقوة لا تقاوم ، بعيداً عن كل نور . كل خير ، كل حرية فى السماء ، كل هواء يستطيع أن يتنفسه- بعيدا عن مقتنيات العمر، ومشاغل اليوم ، إلى قرار الفناء .

من عالم من النكبات جاء سنديب رسولا . وبينما يقطع الأرض بخطاه الخشبية الواسعة متمتما برقى خبيثة يلتف حوله الصبية والشباب جميعا . الأم الجالسة فى زهرة اللوتس حيث قلب البلاد تندب حتى يكاد قلبها يذهب فى العويل ، فقد اقتحموا مخزنها وعربدوا فيه . خمرتها ، شراب الخالدين ، هرقوها فى التراب ، آنيتها العتيقة جعلوها جذاذا . حقا إننى أعطف عليها ، غير أنى لا أملك مع ذلك إلا تعدينى ثورتهم .

لقد بعث إلينا الحق نفسه هذا الإغراء ليختبر أمانتنا فى حفظ وصاياه . السكر يتنكر فى لبوس إلهى ويرقص أمام الحجيج صائحا « حمقى أنتم يا من تسلكون طريق الزهادة العقيم . إن شقته بعيدة ، ووقته بطئ المرور. لهذا أرسلنى إليكم رب الصاعقة . انظروا ، أنا الجميل الجديد ساقبلكم ، فى عناقى سوف تجدون كمالكم » .

بعد وقفة خاطبنى سنديب ثانية : ياربة . لقد حان وقت رحيلى عنك . هذا خير . ففعل قربك قد تم . وما كان التلكؤ بعد ذلك إلا لينقضه قليلا قليلا . كل شئ يضيع إذا حاولنا بطمعنا أن نرخص ما هو أعظم شئ على الأرض . ما هو أبدى فى اللحظة يعود ضحلاً إذا امتد على الزمان . لقد كدنا نفسد لحظتنا الأخيرة عندما أدركتنا صاعقتك المصلتة. أنت جئت لإنقاذ طهارة عبادتك ، وحين أنقذتها أنقذت عابدك أيضا . إننى أستأذنك اليوم فى الرحيل ؛ إذ عبادتك أعظم شئ . ياربة ، أنا أيضا أسلمك حريتك اليوم . فمعبدى الصلصال لم يعد يسعك ، فى كل لحظة كان يوشك أن يتداعى . اليوم أرحل لأعبد منك صورة أكبر فى معبد أكبر . فإنى لا أستطيع أن أجدك حقا إلا حين أبتعد عنك. هنا لقيت إحسانك فحسب، وهناك سأحظى بنعمتك .

كان صندوق حليى على المنضدة ، فرفعته قائلة : « إننى أعهد إليك أن تحمل حليى هذه إلى معبودى . من وهبته إياها على يديك ».

ظل زوجى صامتا . وغادر سنديب الحجرة .

- ٢١ -

مـا كـدت أجلس لأصنع شـيـئـا من الكعك لأمـوليـا حـتى ظهـرت البـارا رانى . فصاحت: ياالله ! هل بلغ الحال أن تصنعى كعك عيد ميلادك بنفسك ؟

فسألت : أليس هناك أحد آخر يمكن أن أصنع الكعك له ؟

– ولكن ليس هذا هو اليوم الذى تفكرين فيه أن تولى لغيرك . علينا نحن أن نولم لك . لقـد كنت أفكر منذ لحظة فى صنع شئ لك[١] ، عندمـا سـمـعت النبـأ المذهل الذى أطار عقلى . يقولون إن عصـابة من خـمسـمـائة رجل أو سـتـمـائة هـجموا على إحدى خزائننا وهربوا بستة آلاف روبية ، وهم يتوقعون أن ينهب منزلنا على الأثر .

وشعرت براحة عظيمة . إذن فقد كانت نقودنا على كل حال . وأردت أن أبعث إلى أموليا على الفور لأخبره أنه ما عليه إلا أن يسلم هذه النقود لزوجى ويترك لى تفسير الأمر .

وانفجرت سلفتى صائحة وقد رأت التغير فى طلعتى : إنك لمخلوق عجيب ! ألا تعرفين حقا شيئا اسمه الخوف ؟

قلت : أنا لا أستطيع تصديق أنهم سيهـجـمـون على خزائننا ؟ فلم أجب ، بل انحنيت على كعكاتى أحشوها بجوز الهند .

قالت البارا رانى بعد أن حدقت فىّ طويلا : حسنا ، إنى ذاهبة . يجب أن أرى أخى نيكهيل وأعمل على إرسال نقودى إلى كلكتا قبل أن يفوت الوقت .

ولم تكد تذهب حتى تركت الكعكات وشأنها وأسرعت إلى حجرة الملابس وأغلقت علىّ البـاب . كانت سترة زوجى لا تزال معلقة هناك والمفاتيح فى جيبها ، فقد كان شديد النسيان . فأخذت مفتاح الخزانة الحديدية من الحلقة واحتفظت به مخبأ فى ثنايا ملابسى .

(١) كل طرفة من طعام تقدم فى احتفال ينبغى أن تصنعها سيدة البيت بنفسها . (المترجم) .

ثم سمعت دقة على الباب . فناديت : « إنى ألبس » . وسمعت البارا رانى تقول : عجبا ! منذ دقيقة واحدة رأيتها تصنع كعكا ، والآن هى مشغولة باللبس . وماذا بعد ؟ لست أدرى ! لعله أحد اجتماعات « باندى ماترم » . ثم نادتنى قائلة : اسمعى أيتها الملكة السارقة ! هل تعدين غنائمك ؟

ولست أدرى ما الذى جعلنى أفتح الخزانة بعد أن ذهبا . لعلها بقية أمل فى أن يكون الأمر كله حلما . ماذا لو فتحت الدرج الداخلى ووجدت لفافات الذهب هناك كما كانت من قبل ؟ .. وا أسفاه ! لقد كان كل شئ خاويا كالأمانة التى اغتيلت .

واضطررت أن أمثل مهزلة اللبس ، واضطررت أن أعقص شعرى من جديد دون ضرورة . وعندما خرجت سخرت سلفتى منى : « كم مرة ستلبسين اليوم ؟ » .

قلت : إنه عيد ميلادى !

فمضت تقول : أوه ، أى عذر يصلح . ما أكثر من رأيت من النساء المعجبات بأنفسهن ، ولكنك تبذين الجميع .

وكنت على وشك أن أبعث خادما فى طلب أموليا عندما جاء أحد الرجال برسالة صغيرة سلمها إلىّ . كانت من أموليا ، وقد كتب يقول : « أختى ، لقد دعوتنى عصر اليوم ، ولكنى رأيت ألا أتأخر ، فأذنى لى أن أنفذ أمرك أولا ثم آتى لآخذ (البراساد) . قد أتأخر » .

لمن تراه سيرد تلك النقود ؟ وإلى أى مأزق جديد يندفع الصبى المسكين ؟ أوه أيتها المرأة الشقية ، إنك تستطيعين أن ترسليه كالسهم ، ولكنك لا تستطيعين أن تسترديه إذا أخطأت هدفك .

كان يجب أن أعلن على الفور أنى وراء هذه السرقة ، ولكن النساء يعشن على ثقة محيطهن ، فهذه الثقة هى كل عالمهن ، وإذا ظهر مرة أن هذه الثقة قد ديست فى الخفاء فإنهن يفقدن مكانتهن فى عالمهن ، ويلزمهن الوقوف على شظايا ما حطمنه ، فتجرحهن حروفه المسننة فى كل خطوة . الإثم سهل ، ولكن التكفير عنه هو على المرأة جد عسير .

لقد مضى زمن منذ أغلق أمامى كل سبيل للاتصال بزوجى ، فكيف أفاجئه بهذا الخبر الفظيع ؟ اليوم تأخر كثيرا فى المجئ للغداء ، كانت الساعة الثانية تقريبا ، وكان شارد الذهن ، ولم يكد يقرب الطعام . لقد فقدت حتى الحق فى حضه على الأكل ، واضطررت أن أحول وجهى لأمسح دموعى .

كم كنت مشتاقة أن أقول له: «تعال إلى حجرتنا واسترح قليلا. إنك تبدو متعبا » . ولم أكد أطلق حلقى بسعلة صغيرة حتى جاء أحد الخدم مسرعا ليقول إن مفتش الشرطة قد أحضر بانشو إلى القصر ، فترك زوجى طعامه وخرج وقد ازداد وجهه إظلاما .

وبعد قليل أقبلت البارا رانى وقالت شاكية : « لماذا لم تبعثى إلىّ حين جاء أخى نيكهيل ؟ لقد فكرت أن أنتهى من حمامى حتى يجئ . وكيف فرغ من غدائه بهذه السرعة ؟

– لماذا ؟ هل كنت تريدينه فى شئ ؟

– ما هذا الذى يقال عن ذهابكما معا إلى كلكتا غدا ؟ كل ما يمكننى قوله هو أنى لن أبق هنا وحدى . سأموت من الخوف كلما سمعت صوتا وهؤلاء اللصوص كلهم حولنا . هل عزمتما حقا على السفر غدا ؟

– نعم .

قلتها مع أنى لم أسمع بالخبر قبل الآن ، بل لم أكن واثقة أن قصتنا لن تتحول قبل الغد إلى اتجاه يجعل الرحيل والبقاء بمنزله سواء . لم أكن لأتصور كيف يصبح بيتنا وحياتنا بعد ذلك ، فقد بدا لى المستقبل مغلفا بالضباب ، أشبه بالأشباح .

بعد بضع ساعات سيصبح مصيرى المجهول ظاهرا . ألا أحد يؤجل مرور هذه الساعات أبدا ، يوما بعد يوم ، حتى يمكننى إصلاح الأمور بقدر ما أستطيع ؟ إن الزمن الذى تقضيه البذرة كامنة فى الأرض لطويل ، طويل حقا حتى لينسى المرء أن هناك خطرا من انبثاقها . ولكن شطأها لايكاد يظهر على السطح حتى ينمو وينمو مسرعا بحيث لا يمكن ستره ، لا بالثوب ، ولا بالجسم ، ولا بالحياة نفسها .

لن أحاول التفكير فى الأمر من جديد . بل سأجلس ساكنة ، فى سلبية وجمود ، وأدع الانهيار يأتى متى شاء ، بعد غد سيكون كل شئ قد انتهى . الفضيحة ، والضحك ، والانتحاب ، والأسئلة ، والشروح ، وكل شئ .

ولكنى لا أستطيع أن أنسى وجه أموليا – جميلا مشرقا بالولاء . إنه لم ينتظر فى يأس أن تقع ضربة القدر . بل أسرع إلى زحمة الخطر . فى شقائى أحبيه . إنه إلهى الصبى . بحجة لعبة حمل عنى إصرى . مراده إنقاذى بأن يتلقى عقوبتى على رأسه ، ولكن كيف أتحمل هذه الرحمة الرهيبة من إلهى ؟

آه ياولدى ، ياولدى ، إنى أحبيك . يا أخى الصغير ، إنى أحبيك . نقى أنت ، جميل أنت . إني أحبيك . ليتك تأتى إلى ذراعى فى المولد الثانى ابنا لى . هذا هو دعائى .

- ٢٢ -

نشطت الشائعات من كل جانب . وكانت الشرطة دائمي الدخول والخروج ، وخدم المنزل في اضطراب عظيم .

جاءتني وصيفتي « خيما » وقالت : « أوه يا أمي الراني ! بالله ضعي قلادتي الذهبية وأسورتي في خزانتك الحديدية » . لن أقول إن الراني نفسها قد نسجت كل هذه الشبكة من الاضطراب ، وأنها واقعة فيها أيضا ؟ لم أجد بدا من تمثيل دور الحامية الكريمة وقبول وديعة خيما من الحلي ووديعة ثاكو من النقود . وأحضرت اللبانة بدورها صندوقا لتحفظه في حجرتي . كان فيه « ساري » من صنع بنارس وبعض مقتنياتها الأخرى . وقالت لي : «لقد حصلت على هذه الأشياء في زفافك » .

عندما تفتح خزانتي الحديدية غدا أمام هؤلاء - خيما وثاكو واللبانة والجميع .. إنني لا أريد أن أفكر في هذا ! خير لي أن أفكر كيف يكون الحال عندما يعود هذا اليوم الثالث من « ماغ » مرة أخرى بعد أن يمر عام . هل ستكون كل الجراح في حياتي البيتية حية بعد كالعهد بها ؟

كتب أموليا أنه سيعود في المساء . لا أستطيع أن أبقى وحيدة مع أفكاري ، لا أعمل شيئا . لهذا أجلس ثانية لأصنع كعكا له . لقد صنعت منه الشئ الكثير ، ولكني يجب أن أستمر . من سيأكله ؟ سأوزعه على الخدم . يجب أن أفعل هذا الليلة . الليلة موعدي ، والغد لن يكون في يدي .

مضيت أعمل دون ملل ، أقلي كعكة بعد كعكة . وكان يخيل إليّ بين لحظة وأخرى أن ثمة ضوضاء من نحو حجراتي في الطبقة العليا ، ترى هل افتقد زوجي مفتاح الخزانة ، وجمعت البارا راني الخدم لمساعدته في البحث عنه ؟ لا ، يجب ألا ألتفت إلى هذه الأصوات ، فلأغلق الباب .

ونهضت لأفع ذلك وإذا بثاكو تقبل لاهثة : « أمي الراني ! أوه . أمي الراني ! » .

فقاطعتها ثائرة : اذهبي ! لا تشغليني !

ومضت تقول : أمنا البارا رانى تريد أن تراك . لقد أحضر ابن أختها آلة عجيبة من كلكتا . إنها تتكلم كالإنسان . بالله تعالى واسمعيها !

لم أدر هل أضحك أم أبكى . هكذا يجب أن يظهر على المسرح فى مثل هذا الوقت حاك يردد فى كل لغة أغانيه المسرحية ذات الرنين الأخنف ! ما أفظع ما يحدث عندما تقلد الآلة إنسانا !

بدأت ظلال المساء تهبط . كنت أعلم أن أموليا لن يرجئ ظهوره ، ولكنى لم أستطع أن أنتظر . فدعوت خادماً وقلت : «اذهب وقل لأموليا بابو يأتى إلى هنا حالا» . فعاد الرجل بعد لحظة ليقول : إن أموليا لم يكن موجودا ، ولم يعد منذ ذهابه ! » . وقعت الكلمة الأخيرة على أذنى كالعويل فى غبشة الظلام . أموليا ذهب ! هل كان إذن كشعاع من الشمس الغاربة ذهب إلى الأبد ؟ مرت بعقلى كل أنواع المخاطر الممكنة وغير الممكنة . إننى أنا التى أرسلته إلى حتفه . هبه كان غير هياب ، إنما يدل هذا على عظمة قلبه ، ولكن كيف يمكننى أن أعيش وحدى بعد هذا ؟

لم يكن لدى تذكار من أموليا سوى ذلك المسدس ، هدية إجلاله . خيل إلىّ أنه كان آية من القدر . هذا الذنب الذى أفسد حياتى من جذورها جاءنى إلهى فى صورة طفل وترك لى وسيلة إزالته ثم اختفى. أوه ، يا للهدية المحبة ، ويا للخلاص الذى يكمن فيها!

فتحت صندوقى وأخرجت المسدس ، ورفعته فى خشوع إلى جبينى . وفى هذه اللحظة رنت الدقات من المعبد الملحق بمنزلنا ، فانبطحت على الأرض للصلاة .

وفى المساء دعوت من فى البيت جميعا إلى كعكاتى . فصاحت سلفتى : « لقد هيأت وليمة ميلاد رائعة ، وكل ذلك وحدك ! ولكنك يجب أن تتركى لنا شيئا نفعله » . قالت ذلك وأدارت حاكيها فأطلقت أصوات ممثلات كلكتا الندية الحارة تملأ المكان ، فكان إسطبلا يضج بصليل المهار .

تقدم الليل قبل أن ينتهى الحفل . وشعرت بشوق مفاجئ إلى أن أختم عيد ميلادى بمسح التراب عن قدمى زوجى . فصعدت إلى المخدع ووجدته مستغرقا فى النوم ، فقد كان يومه شاقا مرهقا ، فرفعت طرف الكلة بلطف شديد ووضعت رأسى عند قدميه ، ولابد أن شعرى لمسه فقد حرك رجليه فى نومه ودفع رأسى بعيدا .

ثم خرجت وجلست فى الشرفة الغربية . وكانت هناك شجرة قطن حريرى تقف بعيدا وقد نفضت كل أوراقها فكأنها هيكل عظمى ، ومن خلفها كان الهلال يغرب ،

وفجأة شعرت بأن نجوم السماء نفسها خائفة مني، وأن عالم الليل كله ينظر إليّ شزرا . لماذا ؟ لأني كنت وحيدة .

لا شئ في الخليقة أغرب من إنسان وحيد . حتى ذلك الذى مات أحباؤه جميعا واحدا بعد واحد ليس بوحيد ، فالصحبة تأتيه من خلف ستار الموت . أما الذى تكون عشيرته معه ولكنهم لم يعودوا قريبين إليه ، الذى انقطع عن كل ضروب الصحبة في البيت الكامل ، فذلك يبدو عالم النجوم نفسه ، وكأنه يقشعر من النظر إليه في ظلامه .

أنا لا أوجد حيث أوجد . أنا نائية عن أولئك الذين يحيطون بي ، أنا أعيش وأتحرك فوق هوة من الانفصال عرضها العالم كله ، قلقة كنقطة الندى على ورقة اللوتس .

لماذا يتغير الناس تغيراً تاما حين يتغيرون ؟ عندما أنظر في قلبي أجد أن كل ما كان فيه لايزال فيه ، إلا أنه انقلب رأسا على عقب . الأشياء التى كانت مرتبة أصبحت ملقاة بعضها فوق بعض . الجواهر التى كانت منظومة في عقد أصبحت ترقد في التراب . ولهذا قلبي يتصدع .

أشعر أني أريد الموت ، لكن في قلبي كل شئ ما زال يحيا - وحتى في الموت لايمكنني أن أرى النهاية ، بل أخال أن في الموت مزيدا من الأسى . ما يجب إنهاؤه فلينه في هذه الدنيا - فليس غير هذا سبيل .

أواه ، سامحني هذه المرة ، هذه المرة وحدها يارباه ! كل ما وضعته في يدى ذخرا لحياتي حولته إصرا لي . ولم أعد أستطيع احتماله ولا التفريط فيه . آه ياربي ، أطلق من جديد أنغام الناى تلك التى عزفتها لي قديما على حاشية صباحي الوردية . واجعل كل عقدى يسيرة سهلة . لا شئ غير موسيقى نايك يمكن أن يجبر ما انكسر ، ويطهر ما تدنس ، أخلق بيتي من جديد بموسيقاك ، فإني لا أرى سبيلا آخر .

انبطحت بوجهي على الأرض وأجهشت بالبكاء . للرحمة كان دعائي ... لرحمة قليلة من مكان ما ، لمأوى ألتجئ إليه . لآية غفران ، لأمل قد يأتي بالنهاية . وقطعت على نفسي عهدا : « رباه ، سأرقد هنا ، أنتظر وأنتظر ، لا أمس طعاما ولاشرابا ، إلا أن تبلغني نعمتك » .

وسمعت وقع خطا . ممن يقول إن الآلهة لا تتجلى لبني الموت ! لم أرفع وجهي ناظرة حتى لا تذهب الرؤية بالمعجزة . تعال . تعال ، تعال ولتمس قدماك رأسي . تعال وضع قدمك على قلبي النابض ، وعندها دعني أموت .

جاء وجلس قرب رأسي . من ؟ زوجي ! شعرت أني موشكة أن أغيب عن الوعي عند أول لمسة من حضوره . ثم تفجر الألم في قلبي فيضا قاهرا من الدموع ، يمزق في طريقه كل عروقي وأعصابي . وضممت قدميه بشدة إلى صدري - أواه ، لماذا لم يبق أثرهما هناك إلى الأبد ؟

مسح على رأسي بلطف ، وتلقيت بركته ، الآن يمكنني أن أحمل وزر مذلتي غدا على رؤوس الأشهاد ، وأقدمه - مخلصة - قربانا عند قدمي معبودي .

ولكن ما يطحن قلبي هو أن نايات الفرح التي عزفت في زفافي منذ تسع سنوات ، مرحبة بقدومي إلى هذا المنزل ، لن ينطلق صوتها لي مرة أخرى في هذه الحياة . أي تفكير قاس يمكن أن يعيدني مرة أخرى إلى مكاني على تلك المنصة ، عروساً مجلوة لزوجها ؟ كم من السنين ، كم من الأجيال والعصور يجب أن تمر حتى أجد طريقي مرة أخرى إلى ذلك اليوم قبل تسع سنين ؟

الفصل الثاني عشر

حكاية نيكهيل

- ١٥ -

اليوم نذهب إلى كلكتا . إذا مضينا نكدس أفراحنا وأتراحنا فإنها ترزح فوقنا . خطأ أن نحفظها وأن نكبسها . أنا في موقف صناعي بوصفي رب المنزل ، فالواقع أني مسافر في طريق الحياة . لهذا يجرح رب البيت الحقيقي في كل خطوة ، وأخيرا يأتي جرح الموت الأكبر .

كان ارتباطي معك ياحبيبتي هو بعض الطريق . كان خيرا طالما سلكنا طريقا واحدا ، ولن يكون إلا عائقا لنا إن حاولنا الإبقاء عليه بعد ذلك . إننا الآن نترك قيوده خلفنا . إننا الآن نبدأ رحلتنا من بعده ويحسبنا لو استطعنا أن نرمي نظرة كل لصاحبه أو نحس تلامس أيدينا ونحن نمر . وبعد ذلك ؟ بعد ذلك طريق العالم الأكبر ، تيار الحياة الكونية الذي لا ينتهي .

ما أقل ما يمكنك حرماني منه ياحبيبتي بعد كل شئ ! كلما أصغيت أسمع صوت الناي ، تتدفق ألحانه من وقفات الفراق . إن شراب الآلهة الخالد لا ينفد أبدا . أحيانا تكسر الكأس الذي نشربه فيها وتضحك إذا ترانا جزعين للخسارة الهينة . لن أقف لألتقط كأسي المكسورة ، سأمضي في سيري وإن كان قلبي ظمآنا .

جاءت البارا راني وسألتني : قل لي يا أخي ما معنى كل هذه الكتب التي تربط وترسل في الصناديق ؟

فأجبت : لا معنى لها إلا أني لم أستطع بعد أن أشفى من غرامي بها .

– ليتك تبقى مغرما بأشياء أخرى أيضا ! هل تعني أنك لن تعود إلى دارك أبدا ؟

– سأجئ وأذهب ، ولكني لن أحبس نفسي هنا مرة أخرى .

– أوه ، صحيح ؟ إذن تعال إلى حجرتى وانظر كم من الأشياء لم أستطع « أنا » التخلص من حبى لها .

قالت ذلك وأمسكت بيدى وسارت بى .

وجدت فى حجرة أرملة أخى عددا لا يحصى من الصناديق والصرر المربوطة المعدة . وفتحت أحد الصناديق وقالت : « انظر يا أخى إلى كل هذه الأدوات التى أصنع بها المضاغ[1] ! فى هذه الزجاجة مسحوق الفوفل المطيب بلقاح أزهار الكاذى ، وهذه العلب الصفيح الصغيرة كلها لشتى أنواع التوابل . ولم أنس ورق لعبى ولا لوحة عساكرى ، فإذا شغلتما عنى كلاكما ففى وسعى أن أجد هناك أصدقاء آخرين يشاطروننى اللعب . أتتذكر هذا المشط ؟ إنه أحد الأمشاط الوطنية التى اشتريتها لى ..

– ولكن لم كل هذا يا أختى الرانى ؟ لماذا تحزمين أنت كل هذه الأشياء ؟

– أتظن أنى لا أذهب معكما ؟

– أى فكرة غريبة !

– لا تخف ! لست ذاهبة إلى هناك لأغازلك ولا لأتشاجر مع التشوتا رانى ! لابد من الموت عاجلا أو آجلا ، فلأنتظر على شاطئ الكنج المقدس قبل أن يفوت الأوان . ما أفظع أن أحرق فى محرقتكم هذه الحقيرة ، تحت شجرة « البانيان » المقروضة ! لهذا أبيت أن أموت حتى الآن ، وأثقلت عليكم طول هذا الوقت .

أخيرا استطعت أن أسمع صوت البيت حقا . لقد جاءت البارا رانى إلى منزلنا عروسا حين كانت سنى لا تتجاوز السادسة . وكنا نلعب معا طوال الأصائل النعسانة فى ركن من السطح ، وكنت أقذف إليها بثمار « الأمرا » الخضراء من أعلى الشجرة فتصنع منها مخللات لذيذة الطعم عسرة الهضم بأن تشققها وتعالجها بالخردل والملح والأعشاب العطرة . وكان علىّ أن أجمع لها كل المحرمات من حجرة الخزين لتستخدم فى زفاف دميتها ، فقد كنت أنا وحدى المعفى من العقاب فى قانون جدتى الجنائى . وكنت أعين رسولا من قبلها إلى أخى كلما أرادت أن تظفر منه بشئ ذى قيمة خاصة ، لأنه لم يكن يستطيع أن يقاوم إلحاحى . وإنى لأتذكر أيضا حين كنت أقاسى شدة نظام أطباء تلك الأيام ، الذين ما كانوا ليسمحوا بشئ غير الماء الدافئ وبذور القاقلى المسكرة فى أثناء نوبات الحمى ، فكانت زوجة أخى لا تتحمل حرمانى فتأتينى بأطيب الطعام فى الخفاء . وما أقسى التوبيخ الذى نالها حين ضبطت ذات يوم !

(١) المضاغ ، ما يمضغ ، والمراد به هنا نوع خاص منه (المترجم) .

ثم كانت أفراحنا وأحزاننا المشتركة تكتسب نغمات من الألفة أكثر عمقا كلما كبرنا . وكم تشاجرنا ! فأحيانا كان الصراع على المصالح الدنيوية يثير الشكوك والغيرة ، ويصيب حبنا بصداع ، وعندما دخلت تشوتا رانى بيننا بدا كأن هذه الصدوع لن تلتئم أبدا ، ولكن كان يثبت دائما أن القوى الشافية الراقدة فى الأعماق أقوى من الجروح على السطح .

وهكذا نمت بيننا علاقة صحيحة منذ طفولتنا حتى الآن ، وامتدت دوحتها وتفرعت أغصانها فوق كل حجرة وكل شرفة فى ذلك البيت الكبير . وعندما رأيت البارا رانى تستعد للرحيل عن منزلنا هذا بكل ما تملك ، هزت الصدمة كل الأواصر التى تربطنا حتى أطرافها الممتدة .

لم يخف علىّ السبب فى عزمها على أن تسبح نحو المجهول ممزقة كل روابط العمر من عاداتها اليومية ، فى المنزل الذى لم تفارقه يوما منذ دخلته أول مرة وهى فى سن التاسعة ، ومع ذلك فقد أبت أن تسمح لهذا السبب الصحيح بالخروج من بين شفتيها ، مؤثرة أن تعلل بعذر تافه أيا كان .

لم يبق لها فى الدنيا كلها سوى هذه العلاقة الوحيدة ، وكانت المرأة المسكينة الشقية الأرملة العاقر تحرص عليها بكل ما اختزنه قلبها من حنو ، ولم أدرك عمق إحساسها بفراقنا المرتقب كما أدركته وأنا واقف بين صناديقها وصررها المبعثرة .

ويذهلنى أن الخلافات الصغيرة التى كانت تنشأ بينها وبين بيمالا حول النقود لم تكن عن حب وضيع للدنيا بل عن شعورها بأن حقوقها نحو هذه العلاقة الوحيدة فى حياتها قد صودرت ، وأوراصرها وهت ، بدخول هذه المرأة الأخرى التى لا يعلم إلا الله من أين جاءت ! لقد كانت تجرح فى كل خطوة ولم يكن لها الحق أن تشكو .

وبيمالا ؟ لقد شعرت هى أيضا بأن حق البارا رانى علىّ لم يكن قائما على الرابطة الاجتماعية بيننا بل كان أعمق من ذلك جدا ، وكانت تغار من هذه العلائق بيننا، الممتدة إلى طفولتنا .

واليوم دق قلبى بعنف على أبواب صدرى ، فتهاويت على أحد الصناديق وأنا أقول: شد ما أحب يا أختى الرانى لو أعود إلى تلك الأيام التى تقابلنا فيها لأول مرة فى منزلنا هذا القديم !

فأجابت وهى تتنهد : لا يا أخى العزيز . إننى لا أحب أن أعيد حياتى من جديد – لا أحب أن أعيدها امرأة ! فليتنه ما كان علىّ أن أقاسيه مع هذه الولادة الواحدة ، فإنى لا أستطيع احتماله مرة أخرى .

قلت لها : إن الحرية التى نبلغها من خلال الحزن أعظم من الحزن .

– قد يكون هذا صحيحا بالنسبة لكم معشر الرجال . الحرية لكم . أما نحن النساء فنريد أن نبقى غيرنا مقيدين ، ونفضل أن نوضع نحن أنفسنا فى القيود . لا ، لا ، يا أخى ، لن نتحرر أبدا من حبائلنا . إن كان لابد لك أن تبسط جناحيك فعليك أن تأخذنا معك ، فنحن نأبى أن نترك وراء . لهذا جمعت كل هذه الأثقال ، إذ لا يصح أبدا أن يترك الرجال يجرون خفافا .

قلت ضاحكا : أستطيع أن أشعر بثقل كلماتك ، وإذا كنا نحن الرجال لا نشكو من أحمالكن فلأن النساء يعوضننا أحسن العوض عما يكلفننا حمله .

– قالت : أنتم تحملونه ؛ لأنه مؤلف من أشياء كثيرة صغيرة . فكلما هممت بإلقاء واحد أحتج بخفة وزنه ، وهكذا تثقل عليكم بكثير من الخفة .. متى نرحل ؟

– القطار يقوم الليلة فى منتصف الحادية عشرة . فأمامنا وقت كثير .

– اسمع . كن طيبا مرة وخذ كلمة منى . نم جيدا بعد الظهر . فأنت تعلم أنك لا تنام فى القطار أبدا . إنك تبدو مرهقا ، توشك أن تتداعى . هيا ، اذهب أولا إلى الحمام .

وبينما كنا نسير نحو حجرتى جاءت الوصيفة خيما وقالت لنا بنبرات خفيضة مستعيذة وهى تجذب برقعها بحياء مفرط : إن مفتش الشرطة قد جاء بسجين ، وأنه يريد مقابلة المهراجا .

فصاحت البارا رانى غاضبة : هل المهراجا لص أو سارق حتى تزعجه الشرطة هكذا ؟ اذهبى وقولى للمفتش إن المهراجا فى الحمام .

فجادلتها قائلا : دعينى أذهب فأرى ما الخبر . قد يكون أمرا عاجلا .

فأصرت أرملة أخى : لا ، لا ، لقد صنعت تشوتا رانى كعكا كثيرا ليلة أمس ، فأرسل بعضا منه إلى المفتش حتى يسكت إلى أن تستعد – قالت ذلك ودفعتنى إلى حجرتى وأغلقت علىّ الباب .

لم تكن لدى القوة لأقاوم مثل هذا الاستبداد ، فإنه جد قليل فى هذه الدنيا . فليمض المفتش الوقت فى أكل الكعك . ماذا إن أهمل العمل قليلا ؟

لقد كانت الشرطة نشيطة فى هذه الأيام الأخيرة تقبض على هذا ثم هذا ، وكل يوم يجلب شخص برئ ليبعث حياة فى الجمعية المنعقدة فى مكتبى . فقلت لنفسى : واحد من هؤلاء المساكين جىء به اليوم . ولكن لماذا يستمتع المفتش وحده بالكعك ؟ هذا لا يليق أبدا .

فطرقت الباب بقوة .

نادت أرملة أخى من الدهليز : إن كان عقلك يجن فأسرع وصب بعض الماء على رأسك – إنه يهدئك .

فصحت : ابعثى كعكا لاثنين ، لعل الشخص الذى جىء به على أنه اللص أحوج إليه . قولى للرجل يعطه نصيبا كبيرا .

واستحممت بسرعة . ولما خرجت وجدت بيمالا جالسة على الأرض خارج الحجرة[1] . أهذه بيمالى القديمة ، بيمالى المتكبرة الحساسة ؟ أى معروف تريد أن تطلب وهى جالسة هكذا عند بابى ؟ حين وقفت قامت وقالت بلطف وعيناها منكستان : أريد أن أتكلم معك .

قلت : إذن خارج لأمر ؟

– كنت خارجا . ولكن لا بأس . أريد أن أسمع ..

– لا . إنه عملك أولا . سنتحدث بعد أن تتناول غداءك .

فخرجت إلى حجرة الجلوس لأجد طبق المفتش خاليا تماما ، إلا أن الشخص الذى أحضره معه لايزال منهمكا فى الأكل .

وصحت دهشا : مرحى ! أهو أنت يا أموليا ؟

فقال أموليا وفمه مكتظ بالكعك : إنه أنا ياسيدى .. لقد أكلت كثيراً ، وإذا أذنت لى فآخذ الباقى معى .

قال ذلك وبدأ يصر الكعكات الباقية فى منديله .

(١) الجلوس على الأرض علامة على الحداد ، ومن ثم يدل – بترابط الأفكار – على حالة من ذلة النفس (المترجم) .

سألت وأنا أحملق فى المفتش : ما معنى هذا ؟

فضحك الرجل وقال : إننا لم نقترب ياسيدى من حل مشكلة اللص ، ومع ذلك فإن سر السرقة يزداد غموضا . ثم أخرج شيئا مربوطا فى خرقة ، ظهر حين حله أنه رزمة من الأوراق النقدية .

قال المفتش :

– هذه يامهراجا هى الستة آلاف من الروبيات .

– أين وجدت ؟

– فى يدى أموليا بابو . لقد ذهب مساء البارحة إلى وكيل مكتبك فى تشاكنا ليخبره أن النقود وجدت. وبدأ الوكيل أشد هلعا لاسترداد النقود مما كان عند سرقتها. فقد خاف أن يشك فى أنه سرق النقود ثم جاء الآن يخترع قصة خرافية لئلا يكتشف أمره . فسأل أموليا أن ينتظر متعللا بإحضار شراب له ثم جاء مسرعا إلى مركز البوليس . فقمت على الفور ، وأبقيت أموليا معى ، وشغلت بأمره طول الصباح . فهو يرفض أن يخبرنا من أين جاء بالنقود، وقد حذرته أنه سيظل محجوزا حتى يفعل ذلك ، فقال لى إنه سيضطر إلى الكذب فى هذه الحالة . قلت له فليكذب إن أراد . فقرر أنه وجد النقود تحت شجرة . فأوضحت له أن الكذب ليس سهلا إلى هذا الحد . فتحت أى شجرة وجدها ؟ وأين هذه الشجرة ؟ ولماذا كان هناك ؟ عليه أن يقرر كل ذلك أيضا . فقال : لا تقلق . هناك متسع من الوقت لاختراع هذا كله .

قلت : ولكن ياحضرة المفتش ، لماذا تضايق سيدا شابا محترما مثل أموليا بابو ؟

قال المفتش : أنا لا أرغب فى إزعاجه ، فهو ليس سيدا فحسب بل ابن نيبا ران بابو زميلى فى الدراسة . دعنى أقل لك يامهراجا ماحدث بالضبط كما أعتقد . إن أموليا يعرف اللص ، ولكنه يريد حمايته بتعريض نفسه للشبهة . فهو يحب هذا النوع من إظهار الشجاعة .

ثم التفت المفتش إلى أموليا قائلا : اسمع أيها الشاب . أنا أيضا كنت فى الثامنة عشرة مرة ، وكنت طالبا فى كلية ريبون ، وكدت أدخل السجن لمحاولتى إنقاذ سائق عربة من يد شرطى ، بمشقة نجوت .

ثم التفت إلىّ ثانية وقال : يامهراجا يظهر أن اللص الحقيقى سينجو الآن ، ولكنى أستطيع أن أخبرك من أصل هذا كله .

فسألت : من ؟

– ذلك الوكيل بالاتفاق مع الحارس قاسم .

ولما ذهب المفتش أخيرا بعد أن احتج لنظريته كما حلا له ، قلت لأموليا : إذا أخبرتنى من أخذ النقود فإنى أعدك ألا يضار أحد .

فقال : أنا أخذتها .

– ولكن كيف يمكن هذا ؟ وعصابة الرجال المسلحين ؟

– بل أنا وحدى !

وكان ما أخبرنى به أموليا بعد ذلك عجيبا . إن الوكيل كان قد فرغ لتوه من عشائه ، وكان فى الشرفة يغسل فمه ، والمكان معتم ، وكان أموليا يحمل مسدسين فى كلا جيبيه ، أحدهما محشو بطلقات فارغة والآخر بالرصاص، ويضع قناعا على وجهه ، فصوب ضوء مصباح كاشف إلى عينيه ، وأطلق طلقة فارغة ، فأغمى على الرجل . وجاء بعض الحراس مسرعين ، ولم تكن نوبتهم ، ولكن أموليا أطلق طلقة فارغة أخرى نحوهم فسارعوا بالاختفاء . ثم جاء قاسم ، صاحب النوبة ، يلوح بعصا ، وفى هذه المرة صوب أموليا رصاصة إلى ساقيه ، فلما وجد قاسم أنه جرح تداعى إلى الأرض . عند ذلك أمر أموليا الوكيل المرتعد ، وكان قد أفاق ، أن يفتح الخزانة ويسلم إليه ستة آلاف روبية . وأخيرا ركب أحد جياد الضيعة وجرى به بضعة أميال . ثم أطلق الحصان ومشى إلى منزلنا مطمئنا .

سألته : وما جعلك تفعل هذا كله يا أموليا ؟

فأجاب : كان هناك سبب هام يامهراجا .

– إذن فلماذا تحاول رد النقود ؟

– دعها تحضر ، تلك التى فعلت ذلك بأمرها . فى محضرها سأصرح بكل شئ .

– ومن هى ؟

– أختى التشوتا رانى !

فأرسلت إلى بيمالا . وجاءت تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، حافية القدمين ، على رأسها شال أبيض . لم أر بيمالا قط فى هذه الصورة من قبل . بدت كما لو كانت متدثرة بنور الصباح .

ركع أموليا محييا ومسح التراب عن قدميها . ثم قال وهو ينهض :

– نفذ أمرك يا أختى . ردت النقود .

قالت : لقد أنقذتنى يا أخى الصغير .

فاستمر أموليا يقول : كانت صورتك فى مخيلتى فلم أكذب مرة واحدة . إن شعارى « باندى ماترم » قد ألق عند قدميك إلى الأبد . وقد تلقيت مكافأتى ، البراساد الذى صنعته لى ، لحظة جئت إلى القصر .

فنظرت إليه بيمالا نظرة فارغة وقد غاب عنها معنى كلماته الأخيرة . فأخرج أموليا منديله وحله وأراها الكعكات التى وضعها فيه . قال : لم آكلها كلها . استبقيت هذه حتى تقدميها إلىّ بيديك .

ورأيت ألا مكان لى . فخرجت من الحجرة ، وقلت لنفسى : أنا لا أستطيع إلا أن أعظ وأعظ ، حتى أكافأ بحرق صورتى . لم أستطع بعد أن أسترد روحا واحدة من طريق الموت . الذين يملكون القدرة على ذلك يفعلونه بإشارة ، ولكن كلماتى ليس لها هذا المعنى الذى لايوصف . لست شعلة بل فحمة سوداء منطفئة . لا يمكننى أن أشعل مصباحا . هذا ماتدل عليه قصة حياتى . صف مصابيحى بقى غير مضاء .

- ١٦ -

عدت إلى الحجرات الداخلية وبيد الخطا . لابد أن حجرة البارا راني كانت تجتذبني مرة أخرى . لقد كانت ضرورة محتمة عليّ في ذلك اليوم أن أشعر بأن حياتي هذه استطاعت أن تعزف لحنا ، أن تضرب على وتر حساس في قيثارة حياة أخرى . إن الإنسان لايستطيع تحقيق وجوده بالبقاء داخل نفسه ، بل يجب أن يلتمسه خارجها .

ولما مررت أمام حجرة أرملة أخي خرجت قائلة : لقد خفت أن تتأخر اليوم أيضا . ولكني أمرت بإعداد غدائك حالما سمعتك قادما . سيكون حاضرا بعد دقيقة .

قلت : في أثناء ذلك أخرج نقودك استعدادا لآخذها معنا . وبينما كنا سائرين نحو حجرتي سألتني هل جاء مفتش الشرطة بخبر عن السرقة . ولم أشأ أن أخبرها بكل التفاصيل عن رد تلك الستة آلاف ، فقلت مراوغا : هذا سبب كل الضجة .

وعندما دخلت حجرة ملابسي وأخرجت سلسلة مفاتيحي لم أجد مفتاح الخزانة الحديدية في الحلقة . حقا إنني مبتلى بالنسيان ! ففي هذا الصباح نفسه كنت أفتح كثيرا من الصناديق وغيرها ولم ألاحظ قط أن هذا المفتاح غير موجود .

سألتني : ماذا حدث لمفتاحك ؟

ورحت أفتش في هذا الجيب وذاك ، ولكني لم أستطع أن أجيبها . وبحثت في المكان الواحد مرات . ثم خطر لنا كلينا أن الأمر لايمكن أن يكون خطأ في مكان المفتاح بل لابد أن أحدا أخذه من الحلقة ، ترى من يكون ؟ من غيرنا يمكن أن يدخل هذه الحجرة؟

قالت لي : لا تشغل بالك به . هلم إلى طعامك أولا ، فلابد أن تشوتا راني تحتفظ به لعلها أيقنت أنك أصبحت كثير النسيان .

ولكنني كنت شديد الانزعاج . فلم يكن من عادة بيمالا أن تأخذ مفتاح من مفاتيحي دون أن تخبرني بذلك ، ولم تحضر بيمالا الغداء معي في ذلك اليوم ، فقد كانت مشغولة بإطعام أموليا في حجرتها ، وأرادت أرملة أخي أن تبعث إليها لتأتي ، ولكني سألتها ألا تفعل .

لم أكد أفرغ من غدائى حتى دخلت بيمالا ، وكنت أفضل ألا أتحدث معها فى أمر المفتاح بمحضر من البارا رانى ، ولكنها ما إن رأت بيمالا حتى سألتها : أتعلمين ياعزيزتى أين مفتاح الخزانة ؟

وكان الجواب : إنه معى .

فصاحت أرملة أخى منتصرة : ألم أقل لك ؟ إن التشوتا رانى تتظاهر أنها لا تبالى بهذه السرقات ، ولكنها تحتاط منها فى الخفاء .

ورأيت على وجه بيمالا ما بعث فى نفسى الشك . فقلت : دعى أمر المفتاح الآن . سأخرج تلك النقود فى المساء .

فقالت البارا رانى : هأنت ذا تؤجل مرة أخرى . لماذا لاتخرجها وتبعثها إلى الخزانة وأنت ذاكر ؟

قالت بيمالا : أنا أخرجتها .

فانتفضت ، وسألت أرملة أخى : أين احتفظت بها إذن ؟

– لقد صرفتها .

– عجبا ! وفيم صرفت كل هذه النقود ؟

فلم تجب بيمالا . ولم أوجه إليها سؤالاً آخر . وبدا أن البارا رانى تهم بإبداء ملاحظة أخرى لبيمالا ، ولكنها ردت نفسها عن ذلك ، وأخيرا قالت وهى تنظر نحوى : حسن لابأس على كل حال . تماما كما كنت أفعل بنقود زوجى السائبة . كنت أعلم أن لا فائدة من تركها معه ، فسيأخذها المتطفلون وهم كثيرون ، أنت مثله ياعزيزى . ما أكثر الطرق التى تعرفونها معشر الرجال لصرف النقود . إننا لا نستطيع إنقاذها من أيديكم إلا بأن نسرقها نحن . هيا . قم لتنام .

وقادتنى البارا رانى إلى حجرتى ، ولكننى كنت لا أكاد أعى أين أذهب . وجلست بجانب سريرى بعد أن تمددت عليه ، وابتسمت لبيمالا وهى تقول : أعطينى كعكة من كعكاتك ياحبيبتى تشوتى . ماذا ؟ ليس معك شئ ! لقد أصبحت أشد إسرافا من عقيلة الحاكم . إذن فاطلبى بعضا من حجرتى .

فسألت قلقا : لكن هل تناولت غداءك ؟

فأجبت : أوه ، منذ مدة ، وكان واضحا أنها كذبة .

وظلت بجانب فراشي تثرثر حول أمور شتى . وجاءت الوصيفة وقالت لبيمالا إن غداءها حاضر وقد كاد يبرد ، ولكنها لم تبد أثرا لسماع ذلك . فقالت البارا راني : « ألم تتناولي غداءك بعد ! كيف هذا ؟ لقد تأخرت جدا » . وخرجت مع بيمالا .

كان في وسعي أن ألمح صلة مابين أخذ هذه الستة آلاف وسرقة الأخرى . ولكنني غير مشوق إلى معرفة طبيعة هذه الصلة ، ولن أسأل عنها أبدا .

إن القدر يترك حياتنا مشكلة بصورة غير كاملة ، لأنه يريد أن نضع بأنفسنا اللمسات الأخيرة ، ونعطيها الشكل النهائي الذي نرغبه . ولقد كان في نفسي دائما شوق إلى التعبير عن فكرة عظيمة خلال تشكيل حياتي على ما رسم الخالق . في هذا الجهد أنفقت أيامي جميعا ، ولا يعلم إلا المطلع على القلوب بأي قسوة كبحت رغباتي ، وقمعت نفسي في كل خطوة .

ولكن العسير في الأمر هو أن حياة المرء ليست حياته وحده . فمن أراد أن يصنعها فعليه أن يستعين بما حوله وإلا فشل . لهذا كان حلمي الدائم أن أجتذب بيمالا حتى تشاطرني صنع نفسي . كنت أحبها بكل روحي ، إذن فلابد أن أنجح في كسبها لغرضي – تلك كانت عقيدتي الراسخة .

ثم اكتشفت أن الذين يستطيعون في يسر وبلا تكلف أن يجتذبوا ما يحيط بهم إلى الاشتراك في صنع أنفسهم أولئك ينتمون إلى نوع من جنس الإنسان ، وأنا إلى نوع آخر . لقد تلقيت الشرارة الحيوية ، ولكنني لا أستطيع إعطاءها لغيري ، والذين سلمت إليهم كل ما عندي أخذوا كل ما عندي ، ولكنهم لم يأخذوني معه .

إن اختباري لعسير . فطالما اشتدت حاجتي إلى معين لم أجد غير نفسي . ولكنني آليت أن أنتصر حتى في هذا الاختبار . لأخطون وحيدا في طريقي الشائك إلى حيث تنتهي رحلة هذه الحياة ..

بدأت أشك أني لم أخل قط من عرق استبداد . كنت مستبدا في رغبتي أن أصب علاقتي ببيمالا في شكل صلب واضح كامل . ولكن حياة الإنسان لم تجعل لتصب في قالب . وإذا حاولنا أن نشكل الخير كما نشكل المادة فإنه ينتقم انتقاما رهيبا بأن يفقد حياته .

لم أدرك طوال هذا الزمن أن استبدادي اللاشعوري ذاك هو الذي جعلنا نتباعد شيئا فشيئا . إن حياة بيمالا لم تجد مستواها الحقيقي لأني كنت أضغط من أعلى ،

فاضطرت أن تلتمس مخرجا بهدم شواطئها من القاع . اضطرت أن تسرق هذه الستة آلاف من الروبيات ؛ لأنها لم تستطع أن تكون صريحة معى ، لأنها شعرت أنى أستبد بمخالفتها فى بعض الأشياء .

إن الرجال الذين تتملكهم فكرة واحدة مثلى لا يفرقون بين أنفسهم وبين من يستطيعون موافقتهم ، إنه عنادنا الصلب الذى يدفع أكثر الناس صراحة إلى الالتواء . فى محاولتنا أن نصنع رفيقة نفسد زوجة .

هل يمكننى أن أعود إلى البداية ؟ إذن لاتبعت سبيل البسطاء ، إذن لما حاولت أن أقيد رفيقة حياتى بأفكارى ، بل لعزفت على نايات حبى الطروب وقلت : هل تحبيننى ؟ إذن فلتكبرى صادقة مع نفسك فى ضوء حبك . فلتهمل مشورتى ، ولتنتصر حكمة الله فيك ، ولتتوار أفكارى خجلى » .

ولكن هل يستطيع طب الطبيعة نفسها أن يأسو الجرح المتهتك ، الذى تفجرت فيه كل خلافاتنا المتجمعة ؟ لقد تمزق الحجاب الذى تستطيع قوى الطبيعة الصامتة وحدها أن تعمل تحت ستره ، ويجب أن تضمد الجروح ، فهل يمكننا أن نضمد جرحنا بحبنا حتى يأتى اليوم الذى لا تظهر فيه ندبته ؟ ألم يفت الأوان ؟ ما أكثر الوقت الذى ضاع فى سوء الفهم ! لقد وصلنا بمشقة إلى تفاهم ، فكم نحتاج لنصحح الخطأ ؟ وماذا إن التأم الجرح آخر الأمر ؟ هل يمكن إصلاح ما أفسده ؟

سمعت صوتا قرب الباب، فلما التفت رأيت شبح بيمالا يتراجع من الباب المفتوح. لابد أنها كانت منتظرة عند الباب ، تتردد هل تدخل أو لا تدخل ، وأخيرا قررت أن ترجع . فهببت ووثبت إلى الباب مناديا : « بيمالا » .

فتوقفت ، وكان ظهرها إلىّ . فذهبت وأخذت بيدها وقدتها إلى حجرتنا . وانطرحت بوجهها على وسادة وأجهشت بالبكاء . ولم أقل شيئا ، ولكن ظللت ممسكا بيدها وجلست عند رأسها .

وعندما سكنت عاصفة حزنها استوت جالسة . وحاولت أن أضمها إلى صدرى ، ولكنها رفعت ذراعى عنها وركعت عند قدمى ، وراحت تلمسها برأسها فى خشوع . فسحبتهما مسرعا ، لكنها اعتنقتهما قائلة بصوت مختنق : لا ، لا ، لا ، لا تبعد قدميك ؛ دعنى أتم عبادتى .

ويقيت ساكنا، من أكون لأمنعها؟ أنا إلهها المعبود حتى أجد من عبادتها حرجا ؟

حكاية بيمالا

- ٢٣ -

كفى ، كفى ! آن أن ننشر الشراع نحو ذلك المرج العظيم ؛ حيث يلتقى نهر الحب ببحر العبادة . فى تلك الزرقة الصافية يهبط ثقل أو حاله جميعا ويختفى .

أنا الآن لا أخاف أحدا ، لا نفسى ولا أحدا غيرى . لقد اقتحمت النار وعبرتها ، وما كان للحريق صار رمادا ، وما بقى لايموت. لقد نذرت نفسى لقدميه ، من تلقى كل خطيئتى فى أعماق أمله .

الليلة نذهب إلى كلكتا . لقد منعتنى متاعبى الباطنية طويلا من النظر فى حاجاتى ، فلأرتبها الآن ولأحزمها .

بعد لحظة وجدت زوجى قد دخل وأخذ يعاون فى إعداد الحقائب .

فقلت : هذا لا يكون . ألم تعدنى أنك ستنام ؟

فأجاب : لعلى وعدت ، ولكن نومى لم يعد ، ولم أجده فى مكان .

فرددت : لا ، لا هذا لايكون أبدا . ارقد ساعة على الأقل .

– ولكن كيف تستطيعين القيام بهذا كله وحدك ؟

– إننى أستطيع ولا شك .

– حسنا ، لك أن تفخرى بقدرتك على الاستغناء عنى . ولكنى أصارحك القول أنى لا أستطيع الاستغناء عنك . حتى النوم أبى أن يوافينى وحدى فى تلك الحجرة .

ثم عاود العمل .

ولكن شاغلا جاء فى صورة خادم قال إن بسنديب بابو قدم وطلب الإذن فى الدخول . ولم أجرؤ أن أسأل من كان يريد . وبدا أن نور السماء يغمض فجأة كوُراق نبات حساس .

قال زوجى : تعالى يا بيمالا . فلنذهب ولنسمع ما يريد بسنديب أن يقول لنا . لابد أن لديه أمراً ذا بال مادام قد عاد بعد استئذانه فى الرحيل .

فذهبت . لا لشئ إلا أن البقاء كان أكثر حرجا . كان بسنديب يحملق فى صورة على الحائط ، وقال ونحن ندخل : لابد أنكما تتساءلان فيم عاد الرجل . ولكنكما تعلمان أن الشبح لا يذهب حتى تتم جميع الطقوس .

قال ذلك وأخرج من جيبه شيئا مربوطا فى منديله . وبعد أن وضعه على المنضدة حل العقدة . كانت تلك الجنيهات الذهبية .

قال : لا تسئ الفهم يانيكهيل . لا تحسبن أن عدوى صحبتك قد أحالتنى فجأة رجلا أميـنا . لست بالذى يرجع تائبا متباكيا ليرد نقودا حصل عليها بغير حق . ولكن ...

ولم يتم كلامه . وبعد لحظة التفت إلى نيكيهل ، ولكنه خاطبنى قائلا : بعد كل هذه الأيام يا ملكة وجد شبح الندم طريقا إلى ضميرى الذى لم يكن يزعجه شئ . وما دمت لا أجد بدا من مصارعته كل ليلة بعد أن تذهب أول سنة من النوم فإنى لا أستطيع أن أسميه شبحا من صنع خيالى . حتى أنا لا نجاة لى أو أقضى دينه . دعينى إذن أرد الحق إلى يدى ذلك الروح . يا إلهة ! منك وحدك دون العالمين لن أستطيع أن أنتزع شيئا . لن أتخلص منك حتى أترب . استردى هذه !

وفيما كان يقول ذلك أخرج صندوق الحلى من تحت عباءته ، ووضعه وتركنا مسرع الخطا .

وناداه زوجى : أصغ إلىّ يا سنديب !

فقال بسنديب وهو يقف قرب الباب : إن وقتى ضيق يانيكهيل . لقد سمعت أن المسلمين يروننى جوهرة لا تقدر بثمن ، ويأتمرون بى ، ولكنى أشعر أن من الضرورى أن أعيش . ليس أمامى إلا خمس وعشرون دقيقة لألحق بالقطار المسافر إلى الشمال . وهكذا يجب أن أذهب الآن . سنتحدث فى أول فرصة مناسبة . وإذا أردت نصيحتى فلا ترجئ سفرك أنت أيضا . أحييك ياملكة ، يا ملكة القلوب الدامية ، يا ملكة الخراب !

ثم ذهب سنديب وهو يكاد يعدو . ووقفت سامدة . لم أدرك قط من قبل كما أدركت اليوم كم كان هذا الذهب وهذه الحلى تافهة حقيرة . منذ لحظة قصيرة كنت مشغولة بالتفكير فيما ينبغى أن آخذه معى ، وكيف أضعه فى الحقائب ، والآن شعرت ألا حاجة إلى أخذ شئ ما . إنما الأمر المهم هو الخروج والانطلاق .

قام زوجى من كرسيه وجاء إلىّ وأخذ بيدى وقال : إن الوقت يتقدم ، ولم يبق لدينا متسع لنتم معدات الرحلة .

وهنا دخل تشاندرانات بابو فجأة . فلما وجدنا مجتمعين تراجع لحظة ثم قال : سامحينى يا أمى الصغيرة إن تطفلت . نيكهيل ، إن المسلمين ثائرون فى مقاطعة هاريش كوندو !

فقال زوجى : أنا ذاهب .

وجادلته وأنا أمسك بيده : « ماذا تستطيع أن تصنع هناك ؟» . وتوسلت إلى أستاذه : « أن تأمره ألا يذهب ؟ » .

فأجاب : يا أمى الصغيرة . الوقت لا يسمح بغير ذلك .

وقال زوجى وهو يغادرنا : لا تخافى يا بيمالا .

وعندما ذهبت إلى النافذة رأيت زوجى يركض جواده ولا سلاح بيديه .

وبعد دقيقة أقبلت البارا رانى مسرعة وصاحت : ماذا فعلت ياتشوتى ياحبيبتى ؟ كيف تركته يذهب ؟

وقالت ملتفتة إلى أحد الخدم : ناد رئيس الديوان حالا !

ولم تكن الملكات يظهر أن أمام رئيس الديوان ، ولكن البارا رانى كانت فى شغل عن مراعاة التقاليد . قالت حالما جاء رئيس الديوان : أرسل فارسا ليعيد المهراجا على الفور !

فقال رئيس الديوان : لقد توسلنا إليه جميعا أن يبقى يا أمنا الرانى ، ولكنه أبى أن يلتفت .

فصاحت سلفتى بجنون : ابعثوا إليه ، أن البارا رانى مريضة ، وأنها على فراش الموت !

وعندما خرج رئيس الديوان التفتت إلىّ ثائرة : أنت يا ساحرة ، يا شيطانة ، لم تستطيعى أن تموتى أنت ، ولكنك أبيت إلا أن ترسليه إلى حتفه ! ..

وبدأ ضوء النهار ينبل ، وغابت الشمس خلف شجرة « الساجنا » المزهرة بأوراقها التى تشبه الريش . ما زلت إلى اليوم أرى كل لون من ألوان ذلك الغروب . كان على كلا جانبى القرص الغارب ركام من سحاب ؛ فبدا كطائر عظيم نشر جناحين لهما ريش نارى . وخيل إلىّ أن ذلك اليوم الرهيب يطير ليعبر محيط الليل .

واحلولك الظلام . وكانت ضجة بعيدة تنبثق فى موجات تتردد تحت جنح الليل ، كألسنة النار فى قرية بعيدة أصابها الحريق ، تثب كل حين فوق الأفق .

ورنت دقات صلاة المساء من معبدنا . وكنت أعلم أن البارا رانى جالسة هناك وقد ضمت راحتيها فى حالة صامتة ، ولكنى لم أستطع أن أبتعد عن النافذة خطوة .

وانبهمت الطرق ، والقرية من ورائها ، وستار الأشجار البعيد وراء القرية . وكانت البركة فى أراضينا شاخصة إلى السماء بلمعان كان كعين ضرير ، وعلى اليسار كان البرج يبدو مشرئبا ليلمح شيئا يحدث .

إن أصوات الليل تتنكر فى شتى الصور . ينكسر غصن فتحسب أن أحدا يجرى هاربا من الموت ، ويصطفق باب فتخالها دقة مفاجئة من قلب عالم مذعور .

أنوار تضوى تحت ظل الأشجار البعيدة ثم تختفى . حوافر جياد تدق من حين إلى حين ، ثم يتبين أنها لفرسان يخرجون من أبواب القصر .

ولازمنى الإحساس بأنى لو استطعت فقط أن أموت لانتهى كل هذا الاضطراب . فطالما بقيت حية ستظل آثامى فى عنفوانها تنثر الخراب فى كل جانب . وتذكرت المسدس فى صندوقى . ولكن قدمى أبتا أن تزايلا النافذة للبحث عنه . ألم أكن أنتظر قدرى ؟

دق جرس الساعة عشرا فى مهابة وجلال . وبعد قليل لاحت على البعد مجموعات من الأنوار ، وزحف حشد من الناس على الطرقات فى الظلام نحو أبواب القصر كثعبان عظيم .

وأسرع رئيس الديوان إلى البوابة لدى سماع الصوت . فإذا بفارس يركض جواده . فسأله : ماذا وراءك يا جاتا ؟

فكان الجواب : شر .

استطعت أن أسمع هذه الكلمات بجلاء من نافذتى . ولكنها أردفت بهمس لم تستطع أذناى التقاطه .

ثم أقبلت محفة يتبعها سرير . وكان الطبيب يسير بجانب المحفة .

وسأل رئيس الديوان : ما رأيك يا دكتور ؟

فأجاب الطبيب : لا أستطيع أن أحكم الآن . إن الجرح فى الرأس خطير .

– وأموليا بابو ؟

– أصيب برصاصة فى القلب . لا أمل فى حياته .

تمت

فهرس

المشروع القومى للترجمة

١ – اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ – الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ – التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ – كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ – ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ – اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ – العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ – مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ – التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ – خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ – مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ – طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ – ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ – التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ – الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ – أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ – مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ – الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ – الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ – قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ – خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ – مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ – تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ – ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ – مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ – دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ – التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ – رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ – الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ – الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ – مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ – الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ – التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ – الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ – الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ - واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ - نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحي / محمود ماجد
٤٢ - عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ - اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدي أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
٤٥ - التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد علي
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
٤٩ - الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
٥١ - مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستي	ت : محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسي التدعيمي	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣ - الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسي سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
٥٥ - ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : علي يوسف علي
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود علي مكي
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ - المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبري محمد عبد الغني
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
٦٢ - لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعي .
٦٣ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ - في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ - العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلي
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومي
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمري
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوي
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت : محمود السيد علي
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالي
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقي	ت : أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العناني
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوي
٩٥ – مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
٩٨ – الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحي
١٠١ – النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣ – قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوي
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرامتي	ت : أشرف علي دعدور
١٠٧ – صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ –نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣–الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيتل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاجنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ – قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف اليمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديڤيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت : مجموعة من المترجمين
١٦٤ – شامپليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد

(تحت الطبع)

الجانب الدينى للفلسفة
الولاية
مختارات من الشعر اليونانى الحديث
جان كوكتو على شاشة السينما
الأرضة
نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية والقوانين المعالجة
العنف والنبوءة
العمى والبصيرة (مقالات فى بلاغة النقد المعاصر)
وضع حد
التليفزيون فى الحياة اليومية
أنطوان تشيخوف
تاريخ النقد الأدبى الحديث (الجزء الرابع)
الإسلام فى السودان
العربى فى الأدب الإسرائيلى
ضحايا التنمية
المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر
فن الرواية
ما بعد المعلومات
علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
المهلة الأخيرة
الهيولية تصنع علماً جديداً
مختارات من النقد الأنجلو - أمريكى
النقد الأدبى الأمريكى
موت الأدب
عن النباب والفئران والبشر
العولمة والتحرير
حجر الشمس
علم اجتماع العلوم
الطريق
الكلام رأسمال
محاورات كونفوشيوس
رحلة إبراهيم بيك
قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان
شتاء ٨٤
الشعر والشاعرية
ديوان شمس
عامل المنجم
مصر أرض الوادى
الدرافيل أو الجيل الجديد
سحر مصر
أسفار العهد القديم

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٠١٥٤ / ٢٠٠٠

في عالم طاغور

طاغور شاعر الحب والسلام
البيت والعالم

لقد ترك طاغور لمحبي الفن والأدب أكثر من ألف قصيدة وأكثر من ألفي أغنية بالإضافة إلى عديد من القصص القصيرة والطويلة، والمسرحيات والمقالات والبحوث التي عالجت موضوعات كثيرة ومختلفة، فهو في إنتاجه من حيث الكم لا يباريه شاعر آخر، ومن حيث الكيف لا يرقى إلى مستواه إلا قلة من العباقرة؛ على أن إنتاج طاغور لم يقف عند هذا الحد، فالشعر والأدب لم يستنفدا كل طاقاته الكامنة العارمة، فعمد إلى الموسيقى يؤلف فيها ويفرغ بعض طاقاته، وإلى الرسم ينفّس عن بعض مكنون طاقاته الفنية، ومن عجب أنه بدأ يرسم وهو في السبعين من عمره، ومع ذلك أنتج أكثر من ثلاثة آلاف لوحة بعضها فريد في كماله الفني.

هذا التنوع الفذ قلما اجتمع لشخص واحد، ولكنه اجتمع في طاغور؛ لأن طاغور كان يؤمن بالحياة ويحبها ولا يزهد فيها، كان يهب نفسه للكون باعتباره جزءاً منه، فعرف الكون وعرف الحياة، وتفتحت له أسرار الوجود بالإيمان والحب والعمل..

فمن حق هذا الشاعر علينا - إذن - أن نعيد قراءة فيض خواطره، وأن نردد أشعاره وأغانيه، وأن نلقنها أبناءنا ونملأ بها جوانحهم، ليشبوا مؤمنين برسالته عاملين على تحقيقها.

ووفاء لهذا الحق يصدر المجلس الأعلى للثقافة ضمن المشروع القومي للترجمة هذه المختارات من مقطوعاته الشعرية وهي: الهلال وشيترا وجيتنجالي والبستاني وجنى الثمار ومكتب البريد والبيت والعالم.

المجلس الأعلى للثقافة